القواعد العسكرية والقانون الدولي

بقلم عبد الوهاب الأزرق

— ١ —

اذا صح ان التاريخ لعنة فالامر الذي لاشك فيه ان هذا الذي اصطلح على تسميته بالاستعمار ، هو لعنته الكبرى : انه اللعنة التي ليس كمثلها لعنة واللعنة التي دونها كل لعنة ..

ان الاستعمار البغيض لم يرهق شعوب الارض بالظلم والبؤس المنكر ولم يجهدهم بالطغيان والفقر المدقع ولم يخدعهم بالباطل فيأخذ البريء بالمسيء والصحيح بالسقيم ولم يسرف في النهب والاستغلال والاستذلال فحسب .. وانما عمد الى ماهو اخطر من هذا كله انه عمل جاهدا ماضيا بالبطش الاحمق حينا وبالمكر الخبيث احيانا ، ليبقي الانسانية متخلفة وليفوت على ركبها سيره المبارك في اتساع الحضارة وانبساط المدنية وتبديد الضلال والظلمة فحقت عليه هذه اللعنة .

ولكن هذا المنطق الغليظ السخيف مهما اوتي من تضليل الدعايات وزخرف الوسائل وتآمر القوى لابد للشعوب من ان تستأصل شأفته وتوهن سلطانه ، انه ورم خبيث غيرطبيعي ، انه عمل مصطنع زائف ليس بدعا ان يقضى عليه لانه مامن شيء يقوم على الغش والكذب ويكتب له البقاء ، ان الله بالغ امره قد جعل لكل شيء قدرا .

وما كان ينبثق النور وتسطع اشعة المعرفة في القارتين العظيمتين آسيا وافريقيا بعدالحرب العالمية الثانية حتى ادركت الشعوب المظلومة واقعها وامسكت بقضيتها تغذيها بروحها ، ونهضت باعباء الجهاد الواصب والنضال الفعال لتصارع الاستعمار وتصرعه : انها لمست بوضوح ماتعانيه في السياسة والاقتصاد والعلم من تخلف وتقصير ، وآمنت بحقها في الحياة وحريتها وكرامتها : فكان طبيعيا ان تحرك هذه الشعلة ساكن الشعوب وتذكي ثورتها وان تجعلها وقد طال صبرهالاتستطيع الصبر ولا تطيق الجمود فانفجرت العزائم المريرة كما تنفجر البراكين المستعرة ، واندفعت النفوس الطماحة تنتزع سيادتها المستلبة وتصحح اوضاعها المضطربة فلا تدع قيدا من قيود الاستعمار الا حطمته ولا أثرا من آثاره الا اتت عليه ودمرته .

ولكن الاستعمار الذي حرمته الثورات راحة الليل ونشاط النهار ساءه ان ينتشر ما كان يحجبه من نور على الامم المتخلفة ولم يقنعه هذا المصير الذي صار اليه يتعثر فيه ووجد في ثروات البلاد الناهضة مايغرى بالاستزادة منها لتهيء للمغامرين والرأسماليين من ابنائه وسائل للاثراء الجرام وموارد للرغد الظالم والترف الباغي ؛ وايقن انه لم يعد يقوى على تسيير الاساطيل وارسال الصواريخ وانه ان فعل ذلك فلن يملأ القلوب رعبا ورهبا ولن يغتصب الطاعة والخضوع اغتصابا ، ومازال الاعتداء على السويس يؤرق جفنه ويقض مضجعه لان نور الحرية لايمكن ان يخبو أوأن ينكسر ، وان شعوبه ، شعوب الدول الاستعمارية لن يخدعها الباطل الذي كان يتستر وراءه المستأثرون بمقدراتها تحت ستار كاذب من غرض اسمي وسبيل قصد يقوم على تمدين الشعوب المتخلفة واعمار الارض الموات ...

وان من العسير ان تقاد هذه الشعوب بعد اليوم كما يقاد القطيع لتنصر الجور والاستبداد ارضاء لنفوس لاتشتفي واطماع لاتحد ومصالح لاتتصل بمصالحها من قريب او بعيد .

وعندما احس الاستعمار ما اصابه من فشل وخزي وفضيحة زين له سوء مكره ان يعود من النافذة بعد ان خرج من الباب واوصد الباب في وجهه فعمد الى القواعد العسكرية يقيمها في البلاد التي كان يحتلها من قبل والى الاحلاف يعقدها معها والى المعاهدات والمواثيق السياسية يفرضها ، والاتفاقات الاقتصادية يثبتها بحجة درء الاذى وكف الظلم وهو لايريد الا الاذى والظلم والاستئثار بمقدرات البلاد وتسخير مواقعها الحربية والافادة من ثرواتها التي لاتعد ولاتحصى .

وقد تعرضت الامة العربية لهذا اللون من الكيد والاذى والعدوان اكثر مما تعرضت له شعوب العالم بأسره وذلك لما حباها الله من استراتيجية ممتازة وامكانيات هائلة .

ولكن الشعب العربي وهو اليقظ الرأي الكلوء العين ، لم يستقبل هذه الاجراءات البلهاء بالقلق او الذعر وانما استقبلها بما هي خليقة ان يستقبلها به من العبث والسخرية والهزء .

ان هـــذه الاحلاف والمعاهدات والقواعد مهما قيل في تسميتها من زخرف القول زوراً وبهتانا فان ظاهرها وباطنها العذاب ، انها في حقيقتها معاودة للاحتلال ووسيلة معروفة من وسائل كيده وطريقة مشهورة من الطرق التي اعتادهـــا الاستعمار لنهب المرافق وعرقلة التطور واعاقة مساهمتنا في انهاض الانسانية واعزازها .

ان الشعب العربي قد اعتزم تصفية الاستعمار وهذه التصفية لاتتم الا بنقض القواعد والغاء المواثيق التي ارتضتها حكومات ضعيفة مفرطة عاجزة متهاونة استكرهت عليها في ظروف ضيقـــة حرجة . واستقلال البلد العربي سيظل مشوبا وسيادته ستبقى منقوصة ، والاخطار ستهددنا الى ماشاء الله حـــتى نأتي على كل قيد من قيود الاستعمار ننسفه نسفا ونذره قاعا صفصفا لاعوج فيه ولاامتا .

لعمرك ماتبلى سرابيل عامر من اللؤم مادامت عليه جلودها

ومن حق الوطن العربي الذي تآمرت قوى الاستعمار على حاضره ومستقبله والذي تـــألم وأحين دهراً طويلا من الزمن ذاق خلاله انواع العذاب ان يحاذر،وهو ينهض من كبوته ليستأنف الحياة قويا نشيطا من عدو لقي منه شر أي شر وبلاء أي بلاء .

على ان دراستنا هذه ليست لتحفظ الصدور ولا لتملأ القلوب ضغينة وحقدا.. وانما اردناها ان تدارس امر هذه القواعد والاحلاف والمواثيق دراسة علمية مجردة عن الهوى مبرأة من الفرض على ضوء مبادىء القانون الدولي لنثبت للعقول التي تميز الحق من الباطل والخطأ من الصواب.

ان الاستعمار فيما اقدم عليه من ظواهر صورية قد جانب الحق والعدل وجافى القانون والسداد.

ان من المتفق عليه في الفقه والاجتهاد ان احكام القانون المدني وقواعـــده تسري على مبادىء القانون الدولي وتسود احكامه ، وعلى هدى ذلك لايكون الميثاق او العقد او الاتفاق او الحلف شرعيا له قوته الملزمة للفريقين الا اذا توفرت فيه الشرائط الاساسية التي يجب توافرهـــا قانونا ، وقد نصت جميع القوانين المدنية والدولية في الامم المتمدينة التي نعاصرها ونصارعها على ان هذه الشرائط هي التالية :

١ — وجوب توفر الاهلية في المتعاقدين .

٢ — التراضي .

٣ — المحل .

٤ — السبب .

والشرط الاول واعني به الاهلية وهي اهلية الاداء فانه يستدعي توفر القدرة على عقد المعاهدات الدولية على اختلاف اشكالها وامكانية تطبيقها ، ولما كانت هذه المعاهدات تتم بين دول تتمتع بالسيادة فان سلطة التعاقد تكون متصلة اتصالا وثيقا بالسيادة ومرتبطة بها او بتعبير اصح هي جزء لايتجزأ منها ، والسلطة التي تتوفر لها هذه السيادة تكون كالشخصية الطبيعية او الاعتبارية التي تتمتع بكامل الاهلية ، وبالتالي يكون من حقها مباشرة مختلف انواع العقود : اغتناء وادارة وتصرفا وتبرعا .

واتفق فقهاء القانون الدولي على اعتبار السيادة هي الاساس المكين الذي يقوم عليه بنيان الاهلية الدولية في ممارسة التعاقد ، وان حق التفاوض وابرام الاتفاقات وعقد المعاهدات وامضاء المواثيق ، كل ذلك لايعدو ان يكون مظهراً من مظاهر السيادة واثراً من آثارها .

وكما ان احكام الاهلية في القانون المدني هي من النظام العام فلا يجوز ان يعطى شخص أهلية غير متوافرة عنده ولا يوسع عليه فيما نقص عنده منها ، فان اهلية القانون الدولي مثل ذلك ايضاً ، واتفق الباحثون على أن السيادة مطلقة لايمكن تجزئتها ولا التنازل عنها ... والامة هي وحدها التي تملك حق السيادة لاينازعها في ذلك منازع .

وان دساتير العالم نصت بوضوح على أن الحفاظ على تربة الوطن منوط بالامة وموكول اليها ، وحقها في ذلك كحق المالك على ارضه تصرفاً وانتفاعاً واستثماراً بصورة مستقلة عن أية دولة اجنبية اخرى ، ولا يحق لأية حكومة ان تعقد أو تبرم أي ميثاق دولي يحد من سيادة الامة وسلطانها على أرضها ، وهذا الحق الذي للأمة على تربتها يرتب التزاماً سلبياً على بقية الدول يحوم عليها أن تضع اية عقبة في ممارسة حقها ممارسة مطلقة لايحدها قيد ولا يؤذيها تشبث .

واجمع الفقهاء الدوليون على ان تقدير توفر عناصر الاهلية في مباشرة اتفاق دولي هو من حق القانون الداخلي ولا معقب لحكمه في هذا الشأن ، ونصت الشرائع الدولية على أن المعاهدات تعقد من قبل السلطات المختصة المخولة دستوريا اجراء الاتفاقات الدولية حسب نصوص هذه الدساتير ، ولا تعتبر المعاهدة شرعية اذا تخطى واضعها حدود اختصاصه ، ولما اثير موضوع قاعدة غوانتنامو والمنازعة بشأنها بين الولايات المتحدة وكوبا

كتب قاضي المحكمة العليا في كوبا الفاريز تابيو في مجلة القانون المعاصر ، السنة العاشرة عام ١٩٦٣ يقول : (لما كانت الحكومة العسكرية هي التي امضت هذا الاتفاق خلافا لنص الدستور الكوبي ولاحكام القانون الداخلي فان هذه المعاهدة جاءت مشوبة بالبطلان المطلق لعدم اهلية الحكومة بهذا التنازل عن ارض كوبية تحت ستار عقد ايجار) ..

ان صدور مثل هذه التصرفات عن الحكومات لاتعبر تعبيراً صادقاً عن رأي الامة مثله كمثل تصرف المريض مرض الموت في ماله أو تصرف السفيه أو ذي الغفلة في حقوقه .. فمثل هذه التصرفات وان وقعت الا انها تظل باطلة وتفقد آثارها .

والشرط الثاني واعني به صحة التراضي ، وهو عنصر اساسي يجب توفره في المعاهدات الدولية ، اذ لايكفي ان يكون التراضي موجودا بل ينبغي ان يكون صحيحاً سليما من كل عيب ، والتراضي لايكون كذلك اذا كانت ارادة احد المتعاقدين مشوبة بعيب ، وعيوب الارادة هي الغلط والتدليس والاكراه والاستغلال .

ولانريد التحدث عن الغلط او التدليس وانما سنقصر بحثنا على الاكراه وهو الذي نواجهه في ميدان القانون الدولي الذي نحن بصدده .

والاكراه ضغط حسي أو معنوي تتأثر به ارادة الشخص وتحمله كرها على اجراء اتفاق أو توقيع معاهدة ، والذي يفسد الرضاء ليست هي الوسائل المادية التي تستعمل في الاكراه بل هي الرهبة التي تقع في نفس المتعاقد ، ولهذا يكون الاتفاق باطلا .

ويشترط ان يتضمن الاكراه خطراً جسيا محدقاً وان يكون غير مشروع ، وتنص مواد القانون المدني على توفر عنصر الاكراه عندما تقع في نفس المتعاقد المكره ان خطراً جسيا وشيك الوقوع به يهدده ، ومن يطالع نصوص الاتفاقات الناظمة للقواعد العسكرية في البلاد العربية والمعاهدات التي عقدتها الدول التي كانت محتلة لأمارات الخليج والتي استبدلت فيها المحميات باسماء جديدة هي الاتحاد أو ما ماثله يجد ان الاكراه المعنوي بيّن واضح لالبس فيه ولاغموض ، وان ارادة التعاقد ليست صحيحة ولاسليمة وبالتالي غير شرعية ، وهذه القواعد العسكرية واتفاقات الحماية القائمة على القوة والاكراه والاستغلال ستبقى خطراً ماثلا يتأذى منها المجتمع الدولي وتكون سبباً دائماً لتعكير السلم واضطراب الامن ، واذا قدر لها أن تحيا فحياتها موقوتة مضطربة قلقة لاتعرف الثبات والاستقرار ، وان عقول الناس مهما ادركها العجز ومهما هيء لها من اسباب الخداع والتلاعب فانها مازالت قادرة على التفكير وعلى أن تميز الخبيث من الطيب وعلى ان هذه المعاهدات الصورية تمثل اصدق تمثيل المنطق الاستعماري في

سخفه وتناقضه ، وليس أدل على ذلك من مأساة حريب التي وقعت في شهر آذار الماضي ، ان سفك الدماء الذي جرى ليس حراماً ؟ وازهاقه نفوس الاطفال والنساء والشيوخ في هجوم خاطف ليس بغيا ؟! وانتهاك محارم القانون الدولي والعبث في ميثاق هيئة الامم المتحـــدة ليس تحديا ولا اهانة ؟ ! ! .

هذه صور منطق الإستعمار الاخرق وعقله الجافي ، اما صور الاعوجاج والتهافت فهي ان بريطانيا اقرب الى عدن من اليمن ؟ ! انها تريد حماية الاخ من اخيه والولد من ابيه ، وان القدر قد نصبها وصية ، غير شرعية ، لتصب على العرب الجور والهضم والاستذلال ...

ان البريطاني في لغته ودينه وتاريخه وتقاليده وامانيه اقرب الى بيحان من حريب ... وان اهالي المحميات العربية هي سلع بريطانية تباع وتشرى ولو شيت حكومة اتحاد ... ان هدر الدماء الزكية وترك المدن الآمنة يملؤها الخوف والذعر ويسيطر عليها القلق والاضطراب اولى من الرجـــوع الى مجلس الامن ولاحكام الشرع الدولي . . . ان تيـــودور روزفلت « وعصاه الغليظة » اولى في وضع الموازين القسط من تحكيم محكمة العدل الدولية .

ولعل ابشع من هذا المنطق المخيف والعقل الاعوج ان تعلن في تكبر واستعلاء انهـــا استطاعت في دقائق معدودات ان ترج الارض رجاً وتبسها بساً وتدعها هباء منبثاً كأنها انقضت على قاعدة كارانيفال ودمرتها تدميراً ! اذن لكانت سماء بريطانيا رجوماً للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير عذاب جهنم وبئس المصير ...

وتكتب الى مجلس الامن وهي عضو دائم فيه فتقول إنهـا ارادت ان تثأر للجمل الشهيد الذي اغارت عليه طائرة الهوليكوبتر فقتلته بغير حق ! !

انها غلت في كظم الغيظ وتكادتتميز منه فهي لاتستطيع الآن صبراً ؟ ولها عـــذرها إن اعتدت اعتداءاً صارخاً على بلد مستقل وبسطت يدها ولسانها بالسوء ، ولها عـــذرها أن تأخذ الناس بالظنة وتقتلهم بالشبهة وتترك القوم فيها صرعى فليس في ذلك اي ظلم او جـور ولا أي انتهاك لحرمة الشرع الدولي ؟ !

ان هذا لهو الحق اليقين .. ان أخذ الثأر وجعل السماء كالمهل والجبال كالعهن هو تطبيق لما نص عليه ميثاق الامم المتحدة . . وهـــذه القواعد العسكرية لماذا اقيمت ، وهذه الحمايات للجنوب اليمني المحتل لماذا فرضت ؟ أليست هي نقـــاط انطلاق لقتل الحركات التحررية ونزعات الاستقلال ، ولتجعلها تذكرة وتعيها اذن واعية ...

ولعل هـــذا المثل يرينا بوضوح ان الاستعمار سواء أسره القول او جهر به ، لاتخفى لاتفاقاته خافية وانها ابعد ماتكون عن صدق الارادة وصحة التراضي وان من حق الشعوب

ان تطرح الاستعمار ومخاذيه وتقف في وجه قواعده واحلافه ، وان الشرع الدولي يؤيدها في نضالها وان الله مولى الاحرار وان المستعمرين لامولى لهم ...

يقول الفقيه الكبير بوستامانت ان القانون الدولي العام هو الحجة البيضاء ليلها كنهارها وان الرهبة التي تمارسها الدولة القوية على الدول الضعيفة فتلتزم من جراء ذلك بما تلتزم به من قيام القواعد أو توقيع المعاهدات لاقيمة له قانونا لأن الحقائق ستخرج اضغانهم وتحبط اعمالهم والتاريخ شاهد عدل على ان القوة لاتوفر الا سلماً موقتاً مضطرباً وان العدل وتحقيق اماني الشعوب في السيادة هو مايحتاجه المجتمع الدولي ليستقر ويطرد نموه ، ومن العسير على الانسانية ان تعيش في أمن وخفض وهناء اذا كانت هناك للضعفاء حقوق مهدورة ومصالح مضيعة وارادات مزورة على حساب الدول القوية التي سولت لها الاطماع ماسولت واملت لها ماأملت وان الدول المستعمرة تخطيء افدح الخطأ اذا ظنت ان ظواهر الحياة خاضعة لسلطانها ، وان صورية المعاهدات تدعوها كلما أرادت فتستجيب لها.

ان الرأي العام الدولي قد حكم على الاستعمار على اختلاف اشكاله بالموت .. واقامت هيئة الامم المتحدة لجنة خاصة تعنى بتصفيته . . والدول التي تتمسك به انما تبني قصوراً في اسبانيا كما يقول المثل الافرنسي وهي لاتخدع أحداً في هذه الاساليب العدوانية الجديدة من قواعد أو محالفات وانما على النقيض من ذلك فان عملها يثير الاحرار من ابنائها وتتردى سمعة دولها وتخلق موجات جديدة من العداء في العالم لها ، لقد اعلن رئيس وزارتها في الشهر قبل الفائت ان الاستعمار قد مات وما ينفع التخدير في جسد ميت ... فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين استعمروا ، وقيل هذا الذي كنتم به توعدون ، وهل ينظرون الا الساعة أن تأتيهم بغتة ، فقد جاء اشراطها فأنى لهم اذا جاءتهم ذكرام ..

وأخرى لابد منها هي ان ايجار القواعد العسكرية الذي تتذرع به الدول صاحبة هذه القواعد هو عقد غير صحيح قانوناً للعيوب الجوهرية التي تشوب هذا العقد ، وان الظروف التي اسبغت على هذا العقد قوته الملزمة قد تبدلت تبدلا جذريا ، واجمع الفقه والقضاء على ان كل عقد من عقود الايجار لا أجل له أو أنه طويل الاجل وان طول الاجل أريد به تحاشي انعدام أجله فانما يكون قد احتوى ضمنا على شرط نفاذه مابقيت الظروف التي استدعت قيامه

فان تبدلت وجبت اعادة النظر فيه ، وقديماً قيل تبدل الاحكام بتبدل الظروف ، وان المشتغلين في القانون يؤثرون في هذه الحالة تطبيق القاعدة الكلية القائمة (Rebus Sic Stantilens).. وهم يرون ان مما يناهض العدل ويناقي المنطق القانوني ويغاير طبيعة الاشياء ان نسبغ على المعاهدات الدولية صفة الاستمرار .

وكلنا يذكر اعلان حقوق الانسان في ٢٤ حزيران ١٧٩٣ وان الثوار الافرنسيين الذين طالعوا العالم بهذه الوثيقة التاريخية الخالدة اصروا على ان يثبتوا في المادة ٢٨ منها مايلي : ان من حق كل شعب ان يعيد النظر في دستوره ، ولا يملك اي جيل ان يتحكم بمصير الاجيال اللاحقة ... انهم خلقوا لزمان غير زمانكم !

قد يقول قوم ان من المبادىء المسلم بها احترام نصوص القوانين ويقول فقهاء القانون المدني ان القوة الملزمة للنصوص هي اثر من آثار هذه القاعدة السائدة في القانون الداخلي ،وان الشرع الدولي يحتوي على نص مماثل ونعني به القاعدة التي تقول (Pacta sund seruanda). أي ان العقد بين الدول هو شريعة المتعاقدين .

الا ان هذا ليس معناه ان نتوصل من هذه القوة الملزمة التي للاتفاق الى التزام يغاير ارادة الطرف الثاني ، ولهذا قال علماء القانون الدولي ان هـذا المبدأ ينتهي حيث يستبان زيف الارادة وتضليلها او اكراهها ولا ينبغي ان يتمتع بحجة مطلقة في النظام الدولي ، وانما ينهض في وجهه وله ذات القوة الثبوتية المبدأ الآخر الذي اشرنا اليه وهو تغيير الظروف (Rebus stic santibus) ، ونعني به ان الاتفاقات الدولية وقد تم انعقادها يمكن ان يصار الى تعديلها او تصحيحها او انهائها او الغائها متى تهيأت الظروف التي تستدعي ذلك .

وهذا المبدأ قد استقر عليه الاجتهاد والفقه الدوليان في ايامنا هـذه ، فالافرنسيون والارجنتينيون يطلقون عليه نظرية الطوارىء (théorie de l'imprévision) والاسبانيون يسمونه الخطر غير المتوقـع (risque imprévisible) ، واما الالمـان والهولانديون والبرازيليون فانهم حرصوا على استبقاء الاسم كما جاء (rebus sic santibus) .

اما الفقه الاسلامي حيث يطبق في اكثر البلدان التي تقوم فيها القواعـد العسكرية والاحلاف المشكو منها وهي البلاد العربية ، فان هذه النظرية قد قتلت بحثا ودرسا واستقصاء وحسبنا ان نذكر هنا القواعد الكلية التي اعتمدهـا الفقهاء اساساً لتقريرها لنجعل القارىء على بينة من سمو المنطق الفقهي الاسلامي في هذا الصدد ، واولى هـذه القواعد ان لا ضرر ولا ضرار وان الضرر يدفع بقدر الامكان وان المشقة تجلب التيسير وان الامر اذا ضاق اتسع

والعبرة في العقود للمقاصد والمعاني لا للالفاظ والمباني : ويرجع الفقهاء المسلمون هذه النظرية الى الاساس الذي قامت عليه الشريعة وهو منع الارهاق والحؤول دون تمنت التكاليف وعسرها ويبنون ذلك على قول الله تعالى ... ماجعل الله عليكم في الدين من حرج ...

وحفلت كتب الفقه في التطبيق العملي لهذه النظرية (يراجع في ذلك بدائع الصنائع الجزء الرابع صحيفة / ١٩٧ و/ ١٩٨ / وابن عابدين الجزء الخامس صحيفة / ٧٦ / والفتاوى الهندية الجزء الرابع ص ٤٥٩) .

ورجال الفقه الروماني لايرون استمداد هذه النظرية مما نص عليه في الديجست — rebus sic stantibus loquimur وانما يجمعون على انها مأخوذة من فتوى المفتين التي تنص على مايلي: contractus shni habent tractum successivum et dependentiamde futurum sic stantibus intelligenar :

اي ان العقود التي يجري تنفيذها بدون تراخ أو لآجال غير محدودة فانها تسودها جميعا القاعدة التي توجب قيام شرط ضمني فيها هو شرط تغير الظروف .

والقانون الكنسي اختط هذا النهج ودرج عليه واعتمد في ذلك على نصوص القديس ارغستان دوغرانيان والقديس توما داكان الذي صرح في مجموعة الاجتهادات اللاهوتية (٣ ، ١١٠ ، ٢ ، ١١) بأنه ينتفي الاخلال بالتعهد اذا تبدلت الظروف المادية وتغيرت الشرائط الشخصية .

في العدد القادم

بقية احكام الشرائع والقوانين في موضوع القواعد الاستعمارية



التطور الاجتماعي
في الطب الحديث

للدكتور منذر الدقاق
عضو المجمع الامريكي لامراض جهاز الهضم

في الوقت الذي تتطور فيه النظم الاجتماعية في انحاء العالم ، يظهر مفهوم جديد في الطب اوجدته هذه التطورات العامة واتجاه جديد في المجتمع حققته النظم السياسية الجديدة التي جعلت من شعاراتها سعادة الانسان ورفاهيته .

لقد عرف الطب في السنين التي اعقبت الحروب العالمية الاخيرة ، تطوراً اجتماعياً بعيد المدى ، واصبح الطب الاجتماعي هو الطريقة الجديدة لتحقيق المثل الانسانية التي كان يرددها القديم دون ان يحسن تطبيقها .

مفهوم الطب الاجتماعي :

ويقضي الطب الاجتماعي بأن يأخذ المجتمع على عاتقه معالجة امراض معينة سارية أو غير سارية لعدم قدرة المريض على تحمل نفقات المعالجة لصعوبة المرض أو لأن المحافظة على الصحة العامة في المجتمع توجب بأن لا ينتقل المرض الانتاني بين الأفراد فهو ليس بطب وقائي فحسب ، انما هو طب علاجي يكافح أمراضاً معينة تؤذي المجتمع اذا ما انتشرت وانتقلت ولما كانت الدولة مسؤولة عن الصحة العامة وعن سلامة المواطنين من الامراض الخطرة ولذا فان ثمة ترتيبات صحية واجتماعية تتولى معالجة هذه الامراض لابعاد خطرها عن المجتمع والحؤول دون أن تؤثر على نموه وتكاثره .

وتوجب هذه الترتيبات الصحية والاجتماعية ، اقامة مراكز طبية واسعة تتولى العناية بهذه الأمراض العامة أو بالأمراض المستوطنة كالملاريا والبلهارسيا أو بالحوامل والأطفال بالمجان غالباً ، وفي بعض الأحيان تضطر السلطات المسؤولة الى حماية المجتمع اذا ما تمرد المريض ورفض العلاج الضروري : والدولة قادرة على فرض العناية الطبية بالعزل والمداواة حتى يتم له الشفاء ويتبدد الخطر الاجتماعي الناجم عن مرضه كما هو الحال في الجدري والكوليرا وسواهما من الامراض الانتانية السارية .

ولذلك عملت الهيئات الصحية والطبية الرسمية وغير الرسمية في انحاء العالم على تحديد المفهوم التفصيلي للطب الاجتماعي وتوضيح نوعية الامراض التي تتحمل فيها الدولة مسؤولية المعالجة ونفقاتها اما لغلاء تكاليف المداواة أو لأن بقاءها يحد من الازدهار الجماعي للمجتمع ويوقف عجلة تطوره .

حدود الطب الاجتماعي

يحسن أن نوضح الحدود الطبية لهذه الامراض التي ترى الدولة ان اولى واجباتها مكافحتها ورعاية المصابين بها .

فالامراض السارية والزهرية على اختلاف درجاتها هي الزمرة المرضية الاولى التي تتحمل الدولة امر العناية بها في أكثر بلاد العالم ، وفي كثير من الاحيان تفرض الدولة على الاطباء الاخبار عنها وترغم المرضى على قبول كافة الترتيبات الوقائية التي تمنع انتشار المرض الى بقية افراد المجتمع .

وأصبح مرض التدرن (السل) في زمرة الامراض التي كفل المجتمع مكافحتها ومعالجة المصابين بها بعد ان كانت هذه الاصابة المرضية الشديدة تفتك بالشعوب وتهدم الحضارات .

وتتولى السلطات الصحية الرسمية والدولية تخطيط مكافحة ومعالجة بعض الامراض الطفيلية الانتانية وقد تم افتتاح مراكز طبية واسعة لمكافحة الملاريا والبلهارسيا وغدت هذه الامراض في طريق الاضمحلال بعد ان عملت التدابير الصحية الوقائية على ازالة اسباب انتشار المرض وانتقاله .

وعقب الحرب العالمية الاخيرة اصبحت مراكز الطفولة والامومة تتولى العناية مجاناً برعاية الحامل ومعالجة الاطفال المرضى لأن تأمين الشروط الصحية الحسنة للامهات ولأطفالهن يقدم للمجتمع القاعدة الاساسية لازدهاره ونموه ويقدم جيلا صحيح البنية وافر الصحة ، وهو اول ماتسعى اليه حضارات التاريخ .

ومنذ قديم الزمان ، تعتبر الامراض العقلية في زمرة الامراض التي يرعاها المجتمع بكليته ، حماية لنفسه وابعاداً لقسوة كثير من الناس اعتادوا السخرية الاجتماعية بهذا النوع من الاصابات المرضية .

وفي الحقبة الاخيرة بـدأت السلطات الصحية في شتى البلدان تنظر الى موضوع السرطان نظرة طبية خاصة بعد ان اصبحت تكاليف المعالجة باهظة الثمن تفوق قدرة اكثرية الافراد ، وبدأ التخطيط الصحي والاجتماعي الجديد يعمل على انشاء مراكز طبية لاكتشاف السرطان الباكر ومعالجته بالوسائل الحديثة وتعميم هذه العناية الصحية المجانية على كل من اصيب بهذا المرض العضال .

مدى خطورة المرض على المجتمع

اذا كان المجتمع يولي الرعاية الطبية والعناية الصحية الاهمية القصوى فلأن العناصر الاساسية لبقائه تقوم على مدى الرفاهية التي يتمتع بها افراده ، وهـــذه العناصر الاساسية من مادية ومعنوية تفرض الترتيب الاجتماعي الجديد وبالتالي التطور الطبي الحديث في ارجاء العالم .

ومن اهم هذه العناصر ، الفكرة الانسانية التي تدفع المجتمع ان ينظر الى الامراض الصعبة الخطرة نظرة خاصة ويعمل على تقديم المعونة المادية والمعنوية للمصابين بهـا .

ثم ان التكاليف المادية الباهظة التي باتت تتطلبها العناية الطبيـة لكثير من الامراض قد جعلت معالجة المريض فوق طاقة الفرد مهما بلغت امكانياته ، فلا بـد للمؤسسات العامة من المساهمة في التخفيف عن المريض غلاء الدواء وطول العناية الطبية بالمساهمة المادية جزئياً أو كلياً .

هذا ولا بد ان يدافع المجتمع عن نفسه وعن سلامته الصحية بابعاد خطر المرض عنـه ما دام انتشار بعض الامراض السارية او اهمال رعاية الحامـل وصحة الطفل يؤثر في كيانه الذي يرتكز على صحة وعدد افراده . . .

فاذا ما اضمحل التوالد الصحيح والتناسل السليم وازدادت وفيات الاطفال . . .

تقلص المجتمع وتضاءل مستقبله وتحدد اتساعه واندثر اثره فهو في تأمينه العناية الصحية المثلى لأفراده يدافع عن ازدهاره وتطوره ونموه .

مسؤولية المجتمع أمام المرض

ليس من شك ان المجتمع مسؤول اخلاقياً وادبياً امام النكبات التي يتعرض لها افراده من مرض أو سواه والمؤسسات الرسمية من صحية وغير صحية مدينة بوجودها وبقائها للمواطنين ابناء البلد الواحد ، ولذا فان من أبسط واجب هذه المؤسسات ان تعمل على مساعدة أفراد المجتمع في الكوارث والمصائب ... والاصابة المرضية الصعبة هي الكارثة الخانقة للفرد في المجتمع ... ومن واجب المؤسسات التي ترعى المجتمع ان تعمل على رفع البؤس عن الافراد ... واول أنواع البؤس ... المرض العضال ومن ابسط اشكال الرعاية ان تعمل الدولة على تحمل نفقات المرض الخطير او الاصابات السارية او العلل الصعبة ، وان ترعى كل ما يؤول الى حفظ المجتمع من الانقراض والى تعزيز نموه وتكاثره وذلك برعاية الحامل وحفظ الطفل حين لا يتمكن الاهل من تأمين العناية الطبية الصحيحة والاشراف الصحي المفيد .

ان هذه المبادىء الاساسية في حفظ الصحة العامة قد اصبحت قانوناً لمختلف النظم الاجتماعية وقد اقرت مختلف المذاهب السياسية الجديدة هذا التشريع الصحي الجديد الذي هو احد اسس العدالة الاجتماعية .

ولذلك فاننا نرى ان الامراض العامة الخطرة قد دخلت مرحلة التأميم في اكثر بلدان العالم ، ونعني بذلك ان العناية بها قد اصبحت على عاتق الدولة التي هي مسؤولة عن معالجتها والوقاية منها .

التوجيه الدولي للطب الاجتماعي

لم تعد رعاية الطب الاجتماعي باشكاله العديدة وفروعه المتعددة قاصرة على الدولة واجهزتها الرسمية بل تعدته الى الهيئات العالمية الصحية والاجتماعية ،اذ تعمل منظمة الصحة العالمية ومركزها جنيف على تنظيم وتطوير الامكانيات الطبية في شتى البلدان في سبيل تنمية رعاية وعناية الدولة للمصابين ببعض الامراض العامة كالامراض الانتانية والسل والملاريا والبلهارسيا الخ .. من الامراض التي يؤذي انتشارها المجتمع بافراده وممتلكاته .

ولهذا فان منظمة الصحة العالمية قد عملت على اقامة مؤسسات عامة غايتها تنظيم معرفة كل دولة بكثير من اشكال الصحة العامة وسن القوانين الخاصة بذلك وتأمين وسائل التشخيص والمعالجة لعدد من الامراض الانتانية السارية المعدية التي كانت تؤذي نمو الشعوب في مراحل التاريخ ، ومن هـــذه الامراض الجدري والجذام والكوليرا والتراخوما وداء القرع .. ولا تكتفي المنظمة بايضـــاح طرق الوقاية والمعالجة بل تعمل على مكافحة هذه الامراض الخطرة والحد من انتشارها .

ولعل أهم ماتعمل له المنظمات الدولية وبالتالي المنظمات الحكومية في مختلف البلاد هو مكافحة مرض السل بأنواعه وخاصة التدرن الرئوي نظراً لما يتصف به من عدوى سريعة مؤذية لمختلف طبقات المجتمع وتعمل مراكز مكافحة السل على كشفه الباكر ومعالجته وتوفير العناية المنظمة بالمصابين به وتأمين المراقبـــة الصحية عن طريق الزائرات الصحيات الاجتماعيات وهـــو مايسمح بايقاف انتشار المرض .

ولا تقف العناية عند هذه الحدود ، بل تفرض أصلا تهيئة حمـلات من التلقيح ضدالسل تسمح أن تقلل من امكانية العدوى وانتقال المرض هذا وقـد

اصبحت الدولة مسؤولة عن اجراء حملات تلقيح منظمة في حالات مرضية عديدة. منها تلقيح الاطفال ضد الجدري ، على أن يكون التلقيح عاماً اذا مائبت ظهور المرض في احدى المناطق ، ومنها أيضا التلقيح ضد الكوليرا في المناطق الموبوءة. وحديثاً التلقيح ضد شلل الاطفال وخاصة لدى صغار السن .

ومن اهم ماتعمل له الان المنظمات الصحية الرسمية والدولية حملات تلقيح ضد السل بواسطة لقاح .A . C . G لمن كان بعيداً عن الانتان السلي البدئي الذي هو نوع من التلقيح الكسبي ويصيب اكثر الاشخاص بصورة عفوية .

الامراض العقلية وطب الاحداث

مما تهتم به المؤسسات الصحية الرسمية الاقليمية والدولية هو الطب العقلي لان الامراض العقلية بأشكالها العـــديدة تقع في زمرة مايؤثر على المجتمع اذا ما كثر أو تطور ... وفي كل بلدان العالم ، تتم معالجة الامراض العقلية مجانا في مؤسسات طبية مختصة ، وان توفرت الامكانيـات المادية لدى المريض . وتعمل الهيئات الدولية الصحية على اقامة دورات تدريبية طبية لتوضيح طرق معالجة الاصابات العقلية في كافة ادوارها وتضع بنفس الوقت تخطيطاً اجتماعياً لمكافحة اخطارها وتكاثرها .

وطب الاحداث هو أهم ما تعمل لأجله الدولة في سبيل رفع الوعي الاجتماعي لدى طبقة من الاطفال والشبان خدعهم القدر بحوادث مفجعة فباتوا ضحايا مؤذية تتقاذفهم عناصر السوء في المجتمع بكثير من الغلظة وعدم الادراك . ولو أتيـــح لهؤلاء الاحداث الجانحين حياة اجتماعية طبيعية لعادوا الى حظيرة المجتمع كعنصر خير ووفاء ... والحكومات من خلال اقامتها مؤسسات اجتماعية تربوية خاصـــة بالأحداث تخفف كثيراً من اذاهم وتعمل على تأمين عناصر صالحة ومفيدة للمجتمع.

والمجتمع مسؤول عن انطلاق الاحداث في شرهم وهو بالتالي مسؤول ايضاً عن العناية بهم لاعادتهم الى حظيرة الخير ليفيدوه ويستفيدون منه

مكافحة الامراض المستوطنة

تختلف مفـــاهيم الطب الاجتماعي باختلاف الاقاليم ... ولكل بلد بعض الامراض الخاصة فيه التي تنتشر بين سكانه وتنتقل في ارجائه ، كالكوليرا في الهند والبلهارسيا في مصر والملاريا — حتى الى وقت قريب — في سورية — ولذا فان المؤسسات الرسمية تعمل جاهدة لمكافحة هذه الامراض المستوطنة بشتى امكانيات المعالجة بالاضافة الى توفير اكثر اسس الوقاية لمنع عدواها وانتشارها .

ويساعد المؤسسات الرسمية الاقليمية المنظات الدولية الصحية الممثلة في منظمة الصحة العالمية التي تعمل على تقديم الخبراء وتنظيم دورات تدريبية للفنيين الصحيين ومنح المساعدات المادية والعلمية اللازمة لتأمين الوسائل الاساسية في المكافحة. وتساعد هذه الجهود كثيرا على ايقاف انتشار الامراض المستوطنة بل في كثير من الاحيان تستطيع السلطات الصحية ان تقضي على المرض المستوطن قضاء تاما على نحو ماتم في سورية حيث اثمرت الجهود الصحية الرسمية والدولية في مكافحة الملاريا وقضت تقريبا على وجود هذا المرض في انحاء البلاد السورية بعد ان عانت منه الكثير ابان وبعد الحرب العالمية الاخيرة .

رعاية الطفولة والامومة

تنتشر في شتى انحاء العـــالم مراكز صحية تهدف الى اسمى غايات الطب الانسانية وتسمى بمراكز (رعاية الطفولة والامومة) ومهمتها تأمين حمل طبيعي لدى الامهات يمنع الاختلاطات ويضمن وضعاً سليما ويقدم اطفالا يرعاهم المركز بعنـــايته الطبية المنظمة في السنين الاولى من العمر ، ينظم لهم التغذية ويقدم لهم اللقاحات ويمنع عنهم الامراض .

وبمثل هذه الرعاية الانسانيـــة المتتابعة يضمن المجتمع لنفسه جيلا جديدا سليما.

اما العناية بالحوامل فتقضي بان يتابع مركز الرعاية الحمل بادواره الكاملة وعلى الاخص في الاشهر الاخيرة منه ، يراقب الاجهزة الغريزية للحامل ويتابع فحص القلب وجهاز الدوران ، ويلاحظ تطور نمو الجنين في البطن من خلال فحوص منتظمة متتابعة مرة كل ثلاثة اشهر ثم مرة كل شهر ثم مرة كل اسبوع .. حتى اذا ماوضعت الحامـل ، راقب المركز وزن الطفل وتغذيتـه خلال السنة الاولى .

ان مثل هذه المراقبة القريبة تذهب بأخطار الحمل لدى النساء وتخفف كثيرا نسبة الوفيات لدى الاطفال وهذا مايحفظ للمجتمع جيلا سليما قويا يتمتـع بكافة مفاهيم الصحة العامة .

ولا بد من التذكير بان العناية بالطفولة في انحاء العـالم تعود ايضا الى مؤسسات عامية كمركز الطفولة الدولي في باريس ومؤسسات الاطفال اللاجئين التابعة لهيئة الامم المتحدة ... وهذه المراكز المختصـة تشرف على كثير من مشاريع رعاية الطفولة في العالم . وتعمل هذه المشاريع على متابعة امراض الاطفال من الوجهة الطبية والاجتماعية والعقلية ، واجراء دورات تدريبية للاطباء والممرضات تسمح برفع سوية العناية الصحية للاطفال في ارجاء العالم .

النشاط الصحي الاجتماعي في سوريا

واذا كنا قد استعرضنا بشيء من الاسهاب الخطوط العامـــة للتطور الاجتماعي في الطب الحديث ، فمن المؤكد ان ثمة نشاطاً كبيراً تقوم به الهيئـات

الصحية في سوريا لتأمين شتى اشكال ومتطلبات الطب الاجتماعي في حدود الطاقات المادية المتوفرة .

وانا لنرى امتداد مراكز رعاية الطفولة في ارجاء سورية وانتظام العناية بها على الرغم من صعوبة التقاليد الشرقية لدى كثير من المراجعين المرضى .. كما اننا نلاحظ وجود مراكز صحية منظمة كاملة لمكافحة السل والملاريا والقرع ونلاحظ ايضا وجود مؤسسات خاصة لرعاية الاحداث تقوم بعملها خير قيام من الوجهة الطبية الصحية ومن الناحية الاجتماعية .

وان جل هذه المؤسسات الصحية قد نمـا وانتظم واصبح احـدى ضرورات الطب الحديث . وعلى الرغم من اننا في الشرق مازلنا بعيدين عن ادارك كافة اشكال التطور الطبي الحديث الا ان ماحققته السلطات التشريعية والصحية في مضمار الطب الاجتماعي من تنظيم وتوجيه ومكافحة يعبر عن تطور اجتماعي كبير بالنسبة لاوضاعنا الصحية قبل الحرب العالمية الاخيرة ، وهذا يوحي بأن امكانيتنا العلمية والمادية تعمل بجد وفي حدود استطاعتها لصيانة المجتمع من ويلات المرض .

الطب الاجتماعي احد مفاهيم العدالة الاجتماعية

ان الطب الاجتماعي هو احدى اشكال تطور الطب الحديث ، وما ازدياد وازدهـار مؤسسات ومراكز الطب الاجتماعي بفروعه واقسامه سوى الشكل الحقيقي الواقعي للعدالة الاجتماعيـة التي تعنى بالفقير اذا كانت امكانياته المـادية لاتسمح له ان يتحمل ماتتطلبه الامراض الصعبة من نفقات واشراف صحي وطبي ، بالاضافة الى ان رعاية الحامل والمعطف على الاطفال يخفف عنه عناء اجتماعيا ويحفظ له عائلته ويؤمن له العيش في مجتمع سعيد

ان تطورات الطب الاجتماعية توجب ازدياد الامكانيات الصحية وازدياد الامكانيات الصحية تقضي بتتابع المراقبة الطبية الدقيقه ... وتتبع المراقبة الطبيـة يقـدم التطور العلمي في الطب عن طريق اتساع الدراسة وتوفر الخبرة ، وهكذا نرى ان ثمة حلقة كامــلة تضم علم الطب الى اسس الصحة العامة والى مفاهيم علم الاجتماع ، وهذه الحلقة الجميلة هي احدى المثل الانسانية التي اصبحت تعرف في ارجاء العالم بالعدالة الاجتماعية .



تركيب الواقع الانساني

بقلم : إحسان مراش

حياة الانسان ، في كل مجتمع وفي كل عصر ، فريدة فذة . ليس كمثلها حياة اي كائن طبيعي . ذلك انها تشبه دوماً حبلاً مفتولاً لا بخيط واحد ، بل بخيطين مختلفين ، متشابكين متداخلين : خيط حريته وخيط الضرورات الواقعة عليه . فالانسان وكل واقع انساني وكل ما يمت الى حياته بصلة ، يحمل أبداً هذه السمة ، سمة كونه مركباً من ضرورة ومن حرية ، من تحتيم ومن اختيار ، من قوانين تسود وتتحكم وتحدد ، ومن تمرد على هذه القوانين ، يرفض الخضوع لها ويتملص من تحتيمها وتحديدها ، ويحول مجراها ومفعولها .

فكيف استطاع الانسان أن يجمع بين هذين المتناقضين ، ويؤلف بينهما في حياته ؟ كيف تفعل القوانين الضرورية فعلها الحتمي في حياة الانسان دون أن تعدم حريته وتلغيها ؟ كيف يمارس الانسان حريته واختياره ، دون ان يمزق القوانين ، ويجرح تحتيمها وتحديدها ؟ كيف تستطيع حرية الانسان ان تكون مؤثرة وفعلية ، دون ان تكون عجائبية او سحرية ، تشذ عن قوانين الطبيعة ، وتعبث بضرورات الواقع وتتعرى من اي ضابط او ناظم لها ؟

الجواب كما نوضحه هنا ، هو ان الضرورة التي يقع فعلها على الانسان هي ابداً ضرورة مكيفة ومشروطة من جهة ؛ وان الحرية التي يمارسها الانسان هي ابداً حرية مكيفة ومشروطة ايضا من جهة ثانية ؛ وان الاولى اي الضرورة مكيفة ومشروطة بالثانية اي الحرية ؛ كما ان الثانية مكيفة ومشروطة بالاولى . تلك هي حقيقة الواقع الانساني وسمت الملازمة الدائمة .

وبتعبير آخر : الحرية والقانون، الاختيار والتحتيم، التلقائية الذاتية والضرورة الموضوعية الروح والمادة ، الحاجة والقيمة ... الخ ... جانبـان متلازمان متداخلان في حياة الانسان ، يشكلان معا كلا واحداً لاينفصم ، ويتبادلان باستمرار التفاعل والتأثير في داخل هذا الكل المتطور عبر التاريخ ، بنتيجة هذا التفاعل .

وبتعبير ثالث : ليس بين جميع مايفعل فعله في الانسان من ضرورات اي مؤثر مستقل عن رأيه فيه وحكمه عليه وممارسته لحريته ازاءه من جهة وليست آراء الانسان واحـكامه وطرق ممارسة حريته ، بمستقلة ابداً عما يقع عليه من ضرورات وعوامل مؤثرة من جهة ثانية .

تلك هي حقيقة تركيب الانسان او الواقع الانساني ، او الحياة الانسانية . وان هـذا التركيب العجيب الذي ينفرد بـه الانسان دون غيره من الكائنات الطبيعية ـ التي لانعرف سوى جانب الضرورة او القانون اوالتحتيم فحسب ـ انما يرجع سببه الى فاعلية في وجدان الانسان تتميز بالاستقلال او التلقائية او الذاتية او الحرية ـ وجميعها بمعنى واحد ـ تنبع من داخل الانسان اي من صميميته ، وتتدخل دوما في مجرى القوانين والضرورات الواقعة عليه ، فتكيفها ، وتعدل سيرها ، وتستخدمها لغاياتها ، دون ان تشذ عنها او تبطل مفعولها او تجرح حتميتها .

هذا ما نحاول بيانه هنا ، من خلال بعض التحليلات والامثلة المستمدة من ابسط الظواهر الطبيعية والانسانية ، في حياتنا الحاضرة .

لنبدأ اولا باعطاء تحديد علمي لكل من الضرورة والحرية .

حين يترك الشيء الجامد وشأنه ، يظل في مكانه ساكناً لايتحرك ، وحين يتحرك تكون بقوة ما قد وقعت عليه من الخارج فحركته أولا وتكون حركته معادلة ومساوية تماما للقوة التي وقعت عليه ثانياً . بالاضافة الى ذلك، الشيء الجامد محروم حتى من الاحساس بما يقع عليه من قوى وعوامل . فهو عطالة تامة . لهذه الاسباب يقال عن الجماد أن داخله مثل خارجه ، أي ان

لاصميمية أو داخلية في داخله . ويقال عنه ايضاً انه خارجية بحتة تعبيراً عن انه يتكون بكامله من جسم ميت لاحياة ولا احساس فيه . ويقال انه موضوع صرف او عار تماما عن الذاتية ، وكل هذه التعابير بمعنى واحد .

اما الكائن الحي كالحيوان مثلا ، فيحس في داخله بالقوى الواقعة عليه ، أو بالأصح الواقعة على جسمه المادي ، اوعلى خارجيته ، يحس بالألم اذا ضرب وبالجوع اذا فرغت معدته ، فهو اذن على شيء من الصميمية او الداخلية . لكنه لما كان في تصرفه يقتصر دوما على اعطاء اجوبة مساوية ومطابقة لهذه العوامل والمحركات الواقعة على جسمه المادي او خارجيته ،فلايتحرك الا بمقدار ماتحركه هذه القوى ، ولا يذهب الا الى حيث تدفعه ، وكان رد فعله عليها أبداًمعادلا ومساويا لما تحتمه عليه ، نقول عنه ، ان صميميته أو داخليته تلك التي اعترفنا بوجودها تلعب دوراً منفعلا فحسب في حياته ، فهي مجرد صدى لجسمه المادي وما يقع على هذا الجسم من عوامل ومؤثرات ، اي انها محرومة من اي استقلال ذاتي اوحرية ، فلا فاعلية مستقلة اذن في وجدان الحيوان مادام هذا الوجدان لايضيف اثراً ما على حركة حياته المندفعة ابداً بقوة المؤثر الخارجي فلا يلعب الوجدان الحيواني اكثر من دور آلة لتسجيل هذا المؤثر الخارجي والايضاح له .

الكائنات الطبيعية — الجامدة منها والحية — محرومة اذن من اية فاعلية داخلية مستقلة عن العوامل الخارجية الواقعة عليها .

اما الانسان فان وجدانه ذو فاعلية مستقلة عما يقع عليه من عوامل خارجية ، — أو مايقع على جسمه المادي اوخارجيته من عوامل ، والتعبيران مترادفان كما ذكرنا — أي أن صميمية او داخلية الانسان ، تتدخل دوماً فيما بين العوامل والمؤثرات الواقعة علىخارجيته، وبين رد الفعل عليها ، ويحدث هذا التدخل تبايناً او افتراقاً بين مايصدر عن الانسان منحركة ، وما كان يحتمه المحرك او المؤثر من جواب ، لولا هــذا التدخل ، اي لو عمل المحرك او المؤثر بمفرده . بتعبير آخر ، كانت القوة الواقعة على خارجية الانسان تقضي عليه بأن يذهب من الف الى باء واذا به يذهب من الف الى تاء . هذا التباين او الافتراق بين خطي السير ، بين خط الف باء وخط الف تاء،هو البرهان العملي على وجود فاعلية في داخل الانسان مستقلة عن العواملالخارجية تدعي ذاتيته او تلقائيته او حريته ؟ وان التحديد العلمي للحرية هو هذه القدرة على احداث مثل هذا التباين او الافتراق ؟ والانسان حائز على هذه القدرة ، ففي وجدانه فاعلية مستقلة عنالعوامل الواقعة عليه ، تمكنه من ذلك .

حقاً هذا لاينطبق على الانسان في طفولته الاولى ، اذ يكون وقتئذ — مثل الحيوان — خاضعاً كل الخضوع للعوامل الفاعلة فيه — وهي آنئذ عوامل بيولوجية — وتكون داخليته أو صميميته منفعلة فحسب لجسمه المادي وما يطرأ على هذا الجسم من عوامل ومؤثرات خارجية ،

أي يكون وجدانه خالياً من الحرية او من الفاعلية المستقلة. الا ان هذا الوجدان لايلبث أن يبرهن على فاعليته واستقلاله وتأثيره الحر على التصرف تدريجياً مع التقدم في السن والتطور .

يمكن ايضاح ذلك من دراسة بعض مراحل تطور الطفل البشري ، وبخاصة دراسة فترات الانتقال من مرحلة الى مرحلة ؛ فان فترات الانتقال هذه تمتاز بأنها تبرز اكثر من غيرها فعل الحرية في حياة الانسان ؛ بشكل جلي قاطع .

لنأخذ على سبيل المثال فترة انتقال الطفل البشري من مرحلة الطفولة الاولى الى مرحلة الحداثة. في مرحلة الطفولة الاولى ، لايعير الطفل اذناً لتوجيه المجتمع قط ، ولا يبلغ سمعه شيء من تعاليمه وتوصياته ، ولا يدري حتى بوجوده . ولكن الطفل يأخذ ابتداءاً من سن معينة ، يتلقى توجيهات المجتمع وتعاليم التربية التي تعطى له ويأخذ يتعلم مايلقنه أهله أو أوصياؤه . لماذا ؟ كيف يتحقق في حياة الطفل هذا الانتقال ؟ ماذا يحدث له في هذه الفترة ؟

ابان الطفولة الاولى كان الطفل خاضعاً خضوعا كاملا للعوامل العضوية او الفطرية التي كانت تحركه بشكل آني ، فوري ملح ؛ وكان استبداد هذه العوامل لايترك له مجالا لأى شيء آخر سوى الانصياع التام لها . لذلك كان في حياته هذه ، مسيراً في كل لحظة بعامل من العوامـــل الطبيعية الفاعلة في جسمه ، يتقلب تصرفه مع تقلبها . وكانت حياته موزعة بين لحظات تستغرق كل واحدة منها استغراقا تاما ، وكان احساسه باستمرار غارقا في لجة امواجها المتلاحقة. ويبقى الطفل على هذه الحالة زمناً ، واذا به في يوم من الايام ، يأخذ بتعلم اصول الحياة في المجتمع وانظمـــة التربية التي تعطى له . ان مجرد وقوع ذلك ، يدل بما لايقبل الشك ، على ان ثمة شيء في داخل الطفل استطاع ايقاف العوامل الطفولية الطبيعية الاولى ، او تخفيف ثقل مطاليبهـــا ، او ارجاء الاستجابة لها ، فأخرج الطفل من غرقه السابق في لجتها ورضوخه التام الفوري لها . فالطفل قد استطاع ولايلبث ان يستبعد هذه العوامل التي كانت من قبل داهمة ومستبدة وطاغية ، وان يوجد بينه وبينها مسافة تمكنه من النظر اليها عن بعد ومن الاشراف عليها بعض الاشراف ، فان هذا وحده يمكن ان يفسر كونه استطاع ان ينتبه لشيء آخر سواها ، ويعي بتلقي توجيهات المجتمع ، ويعير طرفاً من سمعه لقواعد التربية التي تعطى له .

ان وجدان الطفل قد استطاع اذن التملص من استبداد العوامل الطبيعية وطغيانها وآنيتها وفوريتها ؛ فهو اذن قد تدخل في مجرى فعل هذه العوامل ، وأثر تدخله على رد الفعل عليها الذي اصبح مباينا ومغايرا لما كان يتحتم ان يكون ــ وماهو متحتم ابدا على الحيوان ــ تلك هي الحرية كما حددناها . ان الطفل يمارس اذن فاعلية وجدانية حرة ، عند مايتحقق هذا الانتقال من الحيـــاة الطفولية الى الحياة الاجتماعية .

حقــا ان الطفل او الناشيء ، الذي انتقل هكـــذا من التصرف البيولوجي الطبيعي الى

التصرف السيكولوجي الاجتماعي ، قد لايدري هو نفسه بوجود مثل هذه الفاعلية الحرة في داخله لأنه لايحس بها فهي على الغالب — وخاصة في بعض المجتمعات التي تطمسها — فاعلية لاواعية . ذاك ان الوجدان لايعي سوى فاعليته المقصودة . اما فاعليته غير المقصودة فتبقى خافية عليه ، تصدر عنه دون ان يدري بها .

على اي حال ، لايستغنى عن هذه الفاعلية الوجدانية الحرة من العوامل الطبيعية ، لتعليل امكان انتقال الطفل الى الحياة الاجتماعية . فلولا هذه الحرية او الذاتية في الانسان ، لبقي المجتمع غارقاً في العدم لاوجود له في نظره ، كما هي الحال بالنسبة لسائر الكائنات الطبيعية .

ينجم عما تقدم ان ما نسميه الواقع الاجتماعي ، وما نظن انه سابق للانسان ومستقل عنه وانه يتحكم بالانسان ويفرض عليه حكم ضروراته وقوانينه ، انما هو اذن مدين بوجود نفسه لفاعلية الوجدان المستقلة ، وذاتيته الحرة من العوامل الطبيعية . والواقع الاجتماعي ليس قائماً بذاته اذن ، بل وجوده مشروط بشرط وجود الفاعلية الوجدانية المستقلة في الانسان . ان ضروراته وقوانينه اذن ليست مطلقة بل مشروطة ايضاً بهذا الشرط نفسه .

لنأخذ مثلا آخر من فترة الانتقال من مرحلة الحداثة الاولى الى مرحلة اكتمال الشخصية عند الشباب .

في مرحلة الحداثة الاولى يكون الناشيء في أول عهده بالحياة الاجتماعية وفي بداية تدربه عليها آنئذ تبدو له مطاليب التربية وتوجيهات المجتمع صادرة عن الغير من الاهل او الاساتذة أو مختلف افراد المجتمع ، وتقع عليه وقع المطلب الخارجي الذي تفرضه ارادة الآخرين ، ويحتمه الضغط الاجتماعي . لذلك ترى الصبي في هذه المرحلة ، كثيراً مايضرب بمطاليب التربية وتوصيات المجتمع عرض الحائط ، ويلقي بها جانباً ، ليعود الى طفولته الاولى . وهو يفعل ذلك مثلا كلما خلا الى نفسه ، او في فترات اللعب ، أي كلما زال عنه الاكراه الخارجي ، ذلك ان لاشيء في داخله بعد يدفعه الى هذا الخط الجديد من الحياة ، أو يدفعه اليه بالمقدار الكافي . ويظل الحدث الناشيء يتدرج في ذلك الى ان يأتي اليوم الذي يأخذ يمارس هذه المطاليب والتوجيهات الاجتماعية ، من تلقاء نفسه ، ودون أن يطالبه بها أحد أو يفرضها عليه ضغط خارجي ما . حينئذ تمسي حياة الشباب الاجتماعية ، تبدو له نابعة من ذاته ، مما يسميه شخصه ، وهو يدعو بهذا الاسم ، صميميته وقد تبلورت في بنيان داخلي ، وأخذت على عاتقها تقرير سلوكه تلقائياً .

فأهي هذه الشخصية التي تشكلت في داخل الشباب ؟ وهل هذه الحياة الاجتماعية التي أخذ يسير فيها الشاب بدافع تلقائي من شخصيته هذه ، تنطوي حقاً على حرية ؟ وكيف تلعب الحرية دوراً ما في هذه الحياة مادامت خاضعة لانظمة المجتمع ، مقيدة بقوانينه ومفاهيمه ؟ أفلا تكون

هذه الشخصية مجرد أداة نقل للضغط الاجتماعي الذي كان خارجيا من قبل واصبح اليوم داخلياً؟

ان هذا السؤال وارد ومشروع وعلى الاخص في مجتمعنا الراهن الذي يتميز بشدة وطأته على الوجدان، وتأثيره الماحق على ذاتية الفرد وفاعليته التلقائية. الا انه يبقى ان انتقال الناشيء من مرحلة بداية التربية في المجتمع، الى مرحلة اثباتها باستقرار الشخصية، هو أبداً وفي جميع المجتمعات انتقال الى مزيد من الفاعلية الذاتية الحرة، وارتفاع الى مستوى أعلى من التلقائية عما كانت عليه من قبل. ذاك ان هذا الانتقال يدخل على الحياة الاجتماعية كما كانت تجري من قبل، عنصراً جديداً، لم يكن فيها، هو الزمن، ويعود الفضل في ايجاد هذا العنصر الجديد الى هذه الشخصية التي تكونت في الوجدان في هذه المرحلة من حياة الانسان.

وبالفعل ليست الشخصية سوى سيطرة على الزمن. كان الناشيء في بداية حياته الاجتماعية، مسيراً في كل لحظة من لحظاتها، بقاعدة ما او عرف او الزام اجتماعي ما. فكان وجدانه غارقاً في كل لحظة، في لجة التعاليم الاجتماعية ـ كما كان من قبل غارقاً في لجة الدوافع الطبيعية ـ يسوقه كل حين، عامل من العوامل الاجتماعية المختلفة المتقلبة عليه مع تقلب الامكنة والظروف الاجتماعية التي تمر عليه. وتتابع هذه الحياة الاجتماعية المسيرة، واذا بوجدانه قد اعتاد نمطها، وألف مطاليبها، وتكونت في داخله، فكرة عامة عنها، او صورة تشمل وقائعها وعواملها المختلفة.

فيأخذ الشاب يشرف بنظره على هذه العوامل المتقلبة، وعلى لحظات حياته الفورية المتقطعة المنساقة مع هذه العوامل، فلا تلبث نظرته هذه ان تربط هذه اللحظات بعضها ببعض، في سلسلة واحدة، متتابعة الحلقات ومنسجمة فيما بينها، تمتد من الماضي الى الحاضر، وتستشرف المستقبل أيضاً. هذا التنظيم الواحد للحظات كانت من قبل متقطعة، والذي ينهي فوريتها، وعزلتها عن بعضها، وفوضويتها الماضية، ويلحم تشتتها واطلاقها السابق، ويجعل منها حلقات متصلة في سلسلة واحدة، هو ما نسميه الزمن.

فالزمان نظام يشمل تقلباً، ووحدة تضم تعدداً، وثباتاً يستمر ويخترق اللحظات المتحركة. وان بلوغ الانسان هذه المرحلة التي يغدو فيها مشرفاً على خط منظم واحد يمتد من الماضي الى المستقبل هو وعي الانسان للزمن. وهو العامود الفقري لهذه الشخصية التي تكونت في داخل الشاب في نهاية هذه المرحلة من تطوره.

هنا يكمن ايضاً تفوق آخر من الانسان على الحيوان، يعود الفضل فيه الى فاعلية وجدانه المستقلة عن العوامل الواقعة عليه. فالحيوان لا يعرف الماضي كماض ولا المستقبل كمستقبل. صحيح ان ماضيه يؤثر في حاضره، فاذا مارفعت عصا في وجه كلب مثلا، بادر الى الفرار. ولكن هذا لا يعني ان الكلب تذكر الماضي كماض، اي كشيء مفصول عن الحاضر بفاصل

زمني . كلا ! كل ما في الامر ، ان صورة الضرب الذي وقسع عليه في الماضي ، والذي كان يعقب ارتفاع العصا ، تهجم عليه - كالشبح - وتداهمه في حاضره نفسه ، فيفر من هذه الصورة الماثلة في حاضره ، والتي لايعرف سواها ، والتي يجهل مصدرها الزمني . ان هذه الاشباح الماثلة في كل لحظة من حياة الحيوان تتحكم في حياته باستمرار ، بوضعها ، «ماثلة وراهنة ،لابوصفها منبعثة من الماضي . ان حياة الحيوان الآنية هذه ، لا نقطة بداية لها في الماضي ولا نقطة نهاية لها في المستقبل . أما الانسان فيمتد من انطلاقه في الماضي الى نقطة وصول في المستقبل ، وهـــذا مايسميه شخصه .

ان فاعلية الوجدان الانساني قد ابتدعت اذن في نهاية هذه المرحلة من تطوره الزمني ، وبالتالي أدخلت على الحياة الاجتماعية البعد الزمني الذي كان مفقوداً فيها من قبل . غدا الشباب يكيف حاضره ويؤثر فيه وفق ذكرياته الماضية ومشاريعه المقبلة . وفقدت الضرورات والعوامل الاجتماعية المختلفة بعد دخولها في المجال أو الأفق الزمني الرحب ، شيئا - كثيراً او قليلا - من طغيانها الفوري الآلي السابق ، بسبب تكيفها مع الخط الزمني الذي أخذت الحياة تسير فيـــه متجهة صوب المستقبل . ان تأثير المستقبل على الحاضر هو مما تتميز به حياة الانسان ، دون سائر الكائنات وهو من صنع فاعليته الذاتية التي اخرجت حياته من عبوديتها السابقة للحظة العابرة وأدخلتها في صيرورة عبر الزمن .

ان استطاعة الانسان ، تكييف العوامل الاجتماعية الواقعة عليه وتعديل مجراها بجعلها داخلة في هذا النمط الزمني من الحياة ، لدليل علمي آخر على فاعلية في وجدانه مستقلة عن هذه العوامل الاجتماعية .

تلك هي حرية الانسان . وقد ثبتت بالبرهان العلمي مرة أخرى . فبعد ان نقلت حياة الانسان من التصرف الطبيعي الطفولي ، الى التصرف البسيكولوجي الاجتماعي ، ها هي تنقلها من التصرف الاجتماعي الى التصرف الزمني .

ولو تابعنا تعقب أثر الحرية في حياة الانسان لأمكننا أيضاً ابراز وجودها في مراحل أخرى من حياته ، تبلغ الحرية فيها مستويات أعلى وتتعرض فيها لضرورات جديدة .

فمثلا لو حللنا فكرة المستقبل هذه التي توصلنا اليها في التحليل السابق ، لافادنا ذلك الى ان المستقبل ليس صورة واقعية عن الماضي فحسب ، بل صورة اعتبارية ومعقولة عن هذا الماضي أيضاً . وهذا مايبرز الحرية مبدعة لحياة المعنوية العاقلة ، ويبرهن على ان الفاعلية الوجدانية المستقلة والناظمة للزمن التي لمسناها في الانسان هي أيضاً فاعلية عاقلة .

ولو تابعنا تحليل هذا العقل ، لوجدناه قائماً على مفترضات تسوقه وتتحكم فيه ولا شك ، ولكننا نجد ايضا انه لاينساق بهذه المفترضات الا لتأكيد سيادته على الحياة ، ولتمسكه بمعقولية

نظامها . هنا تبرز الحرية ليس كفاعلية مستقلة وناظمة وعاقلة فحسب ، بل كفاية يبدعها الوجدان من العدم ، ويشتد تحقيقها في الحياة على شكل سيادة عقلية ، اي على شكل نظام معقول .

اخيراً اذا حللنا هذا النظام المعقول ووجدناه صورة طبق الاصل عن النظام القائم في المجتمع ، ادركنا ولا شك ان حياتنا الحاضرة في هذا المجتمع هي اسيرة النظام القائم فيه ، وان سيادة عقلنا في حياتنا هذه هي بالتالي وهم من الاوهام ، ولكننا ندرك ايضاً ان بامكان العقل ان يحقق سيادته الفعلية على الحياة بالثورة على هذا النظام القائم ، وبناء نظام جـديد يختاره العقل ويكون من صنعه . هنا تبرز الحرية ليس كفاعلية مستقلة وناظمة وعاقلة ومبدعة فحسب بل كفاعلية ثورية ايضاً تتصدى للنظام القائم وتحقق سيادة الانسان الفعلية لا الوهمية على حياته.

ولا مجال هنا الى تفصيل وتوضيح كل ذلك . الا ان ماتقدم يكفي لبيان ان حرية الانسان تنقل حياته في مراحلها المتلاحقة ، من نمط الى نمط آخر ، فتبلغ الحياة في النمط الجديد سيطرة على الضرورات التي كانت تتحكم فيها في النمط السابق ، الا انها من جهة ثانية ، تتعرض في النمط الجديد لحكم ضرورات لم تكن معرضة لها في النمط السابق . فقد رأينـا ان حرية الانسان لاتتملص من ضرورات الطبيعة الا لتقع تحت ضرورات المجتمع ، ولا تتحرر من هذه الاخيرة الا لتقع تحت حكم الزمن وتأثير الماضي .. وتستمر هذه القاعدة فيا يتعلق بالضرورات التي تتحكم في العقل وفي الفكر والعمل الثوري نفسه . لايتملص الانسان من قيود الا ليقع في قيود جديدة اخفى بصراً وأعمق غوراً . لايكاد يفتح عينيه على الضرورات الراهنـة ويشرف ويسيطر عليها ، حتى يكون قد ولج وهو بعد في نشوة الظفر ، حلقة جـديدة من أخواتها كانت خافية عنه .

فالانسان هو ابداً ذلك المتملص من الضرورات ، المتعثر بها في آن واحد . وان حريته هي مجرد عملية تحرر دائمة : ما ان يتوقف التحرر حتى تموت الحرية . فحرية الانسان لاتوجد الا سابحة بين دواليب الضرورة ! انها تنقل مستمر بين هذه الدواليب المسننة ، المتشابكة ؛ وكلما ارتفع الانسان في الطريق الصاعدة التي تشقها حريته ، تنشق هواء حرية جديدة اوسع وأرحب وأقوى من السابقة ولكنه يتعرض ايضاً لأرياح ضرورات جديدة . انه يوسع أبداً الهامش الحر الفاصل بين الدواليب ؛ انه يفتح ابداً امكانات للحياة جديدة ومجالات للاختيار جديدة ...

وبكلمة واحدة انه يبتعد اكثر فأكثر وباستمرار عن حالة الجماد وعطالتـه ، حيث لاخيار ولا حرية ... وهو يقترب اكثر فأكثر وباستمرار من الفاعلية الخالصة التي لن يبلغها ابدا . فالانسان مها سيطر على الطبيعة ، لايغدو خارقاً للطبيعة ، بل يبقى ابنا من ابنائها وبالتالي خاضعاً لها . لذلك ما أشبه بني البشر ، بمتسلقي الجبال الذين لاترام الا مشدودين بالحبال والذين تعينهم حبالهم نفسها على الصعود .

قدراً اكبر من الحرية ! ذلك هو شعار الانسان .

لوناً جديداً من الضرورة ! ذلك هو قدر الانسان .

الحياة في البادية

بقلم محمد ابو الفرج العش

خلال اقامتي في البادية في جبل أسيس مدة شهرين في ربيع سنة ١٩٦٢ وشهرين في ربيع سنة ١٩٦٣ لاحظت أشياء كثيرة تستحق أن تعالج في عـــدة أبحاث ، سأعطي منها نتفاً في هذه الكلمة .

كان ربيع ١٩٦٢ مخصباً في الجهة الجنوبية من البادية ، لذا كان المار في البادية يرى قطعان الابل، وبيوت الشعر وأسراب الطيور لا تنقطع طوال الطريق . تتشكل البرك في أماكن كثيرة تردها القطعان من كل مكان ، وأسراب الطيور وخاصة الطيور المائية الكبيرة .



الابل ترد الماء في بحيرة أسيس

كانت البادية غنية بقطعان الغزال ، وقد قضي الآن على الغزال في الحماد عندما دخلت السيارة عالم البادية، فقد صار الصيادون والجنود يلاحقونها فيكسرون منها ثلاثين دابة ليأخذوا اثنتين او ثلاثاً . اختبأ الآن الغزال على مقياس ضئيل في مواطن الوعر حيث لاتدخل السيارات ، واختبأ الارنب البري ، وبقيت الضباع تجوس مناطق الوعر لتقتات .

يوجد في البادية أنواع عديدة من الزواحف أهمها الضب باشكال مختلفة تتلون بلون الارض التي تعيش فيها . ويوجد نوع خطر منها اسمه (الورل) وهو اصفر اللون يهاجم الحيوان والانسان ويقدر طول الكبير منه بمترين او اكثر . ويوجد نوع آخر من الزواحف يشبه التمساح . هذا عدا عن الافاعي من انواع متعددة .

أما الطيور فانها تستحق أن تعالج وحدها في بحث مستقل ، اهمها الطيور المهاجرة وهي تأتي عصائب كالسحاب ، والطيور الجارحة بأنواعها تملأ الرحاب .

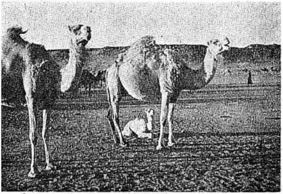
في أسيس تغمر مياه السيول فوهة البركان الكبرى في السنين المخصبة

وتتشكل بحيرة يطلق عليها البدو (الخبرة) مساحتها ٣×٢ كم او تزيد ،ويبلغ متوسط العمق حوالي ٨٠ سم .

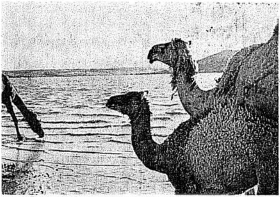
ورد البدو الى المكان منذ اول مايس ، واخذوا ينصبون بيوتهم حول البركة وعلى أكتاف الفوهة. وقد بلغ عدد البيوت في الصيف حوالي ١٥٠٠ بيت . فاذا كان في كل بيت عشرة اشخاص على الاقل ، فان عدد الواردين ١٥٠٠٠ شخص أو أكثر . وهم يأتون طبعاً مع إبلهم وغنمهم وخيولهم وكلابهم . وقد يستأجرون سيارات الشحن الكبيرة لنقل الاغنام والاحمال من المسافات البعيدة .

يأتي الى البدو بانتظام سيارات الشحن لتنقل اليهم المؤن والذخائر ، ويأتي اليهم تجار الغنم والصوف والسمن والمرابون، يفتتح الحضريون البائعون دكاكين بين بيوتات الشعر ، فيها التبغ والاقمشة والمواد الغذائية وجميع اللوازم الضرورية .

اكثر البدو الذين يردون المكان من عشائر النياث وبعض الروله ، أول



لقطة عن الابل في أسيس



الابل ترد الماء في بحيرة جبل أسيس

مايأتي زعماء القبائل يَسِمون (١) الآبار التي اعتادوا أن يستقوا منها ، ويعني هذا ان كل فئة تحتكر بعض الآبار لمواشيها .

وفي ربيع ١٩٦٣ كانت البادية الجنوبية مجدبة ، ولقد اجتزت في البادية مئة كم ، فلم أر فيها بيتا واحدا ولا حيوانا .ولم يطرق موضع جبل أسيس حتى نهاية حزيران أحد ، الا بعض القوافل المارة من الاردن او السعودية الى اطراف دمشق لبيع بعض الحيوانات .

هذه حال البادية ، عندما تقفر يتوجه البدو الى المكان الخصيب من أية جهة ، وليس يمنعهم الحدود الوهمية بين البلاد العربية ، فهم يتنقلون بين سورية والاردن والسعودية والعراق ، خبراء بالارض والطرق والاجواء ، ونجوم السماء ، يتناقلون الاخبار بسرعة ، ويعلمون مايدور في كل مكان من احداث وتطورات ، وخاصة اخبار الامكنة المقفرة والمخصبة .

(١) وسم يسم : وضع علامة خاصة على البئر .

البدوي ذكي بالفطرة ، مرهف الحس ، قوي الحدس ، يتكتم عن نفسه وعن عشيرته ، لا يذكر اسمه الى شخص غريب ، ولا يدل على احد سواه ، اذا سأل غريب عن شخص ، يجيبه أنه لايعلم حتى ولو كان الشخص المراد يقف الى جانبه .

والبدوي بقدر ماهو ذكي بقدر ماهو جاهل ، لايعرف عمره ويجهل القراءة والكتابة إلا ماندر . يجهل أمور دينه تماما . كثير منهم من يصلي لكن وضوءه ليس صحيحا وصلاته غير صحيحة . يعيش البدوي ليومه ولساعته ولا يتبصر أبدا بالمستقبل ، ان أتته النعمة أنفقها واستهلكها بمدة وجيزة بل بأيام معدودة ، ثم يقع مرة اخرى في العسر والدين . معاملته مع الدائن حسنة ، لانه يخشى الا يسلفه مرة اخرى . ومن المعلوم ان الدائن يمص دم البدوي استثمارا لجهله وعدم تبصره .

البدوي حاد الطبع على الاكثر ، حقود ، لاينسى المعروف كما لاينسى



لقطة طريفة لصغار الابل في البادية



حدث يمطي الناقة وصغيرها يرضع

الاساءة ، كريم بالطبع ، شجاع ، يحترم الصغير والكبير ، وتحترم المرأة الرجل وتطيعه اطاعة عمياء . يتابع أبناء العشيرة رئيسهم حتى ولو كان على خطأ .

كانت حروب الثأر والغزو شغل البدو الشاغل ، ولكن هذه الحروب خفت كثيرا حتى نستطيع أن نقول إنها انعدمت في بعض المواضع بفضل يقظة قوى البادية .

للبدو عادات وتقاليد ، منها الجميل ومنها القبيح ، لكنها على الاجمال طريفة بالنسبة لابناء المدن . عندهم هزيج جماعي ، يتقاربون كتفاً الى كتف ، ويصفقون يداً بيد ، ويحدثون صوتاً كأنه شخير الضباع ؛ يبذلون جهداً كبيراً في مواصلة الهزيج مع التمايل الى وقت طويل ولا يتوقفون الا اذا طلب اليهم التوقف ، فكأنه يأخذهم الحال ، فيسلسلون ويسترسلون في هذا النوع من الرقص الجماعي البعيد عن الفن ، إلا أن فيه كاريكاتوراً تعبيرياً لحياة البادية المليئة بالصعوبات والمشاق والتعرض لخطر الحيوان المفترس .

كم يسر البدوي باطلاق النار في ايام الاحتفالات ، وكم يهوى الفروسية وامتطاء الابل . ترى الطفل او الشاب او الكهل يثب الى الجمل متعلقا بوبره ، فتراه بلمحة البرق يستوي على سنمه وكأنه ملك الصحراء .

ما اجمل الابل وهي ترد الماء اسرابا اسرابا ، وما اجمل الاحداث من الابل وهي تكتظ نافرة من غريب ، وما اروع الرضيع منها وهو يلتحم بأمه يداورها ليرضع منها .

لا يزال البدوي على الفطرة ، ولم تدخل وسائل المدينة اليه الا بمقياس ضئيل جدا . عنده وسائل طبية بعضها ناجع ويعرف انواعا من الاعشاب تفيده ، ويلجأ الى الكي في احوال كثيرة . واذا داهمهم مرض سار ، استفحل في العشيرة كلها وخاصة في المواسم المجدبة ، لان الغذاء الجيد يكافح الداء ويخفف من بلواه . حدثني بعض من يرتادون مخيمات البدو ويتعاملون معهم ان قبائل برمتها قد قضت بسبب انتشار الوباء اثناء سنوات المحل الماضية . وقد حاولت الدولة ان ترسل بعثات طبية على نطاق ضيق ، ولكن كان الداء استشرى ولم يعد يفيد العلاج ، حتى انه حدثني ايضاً ان اعضاء البعثة الصحية لم يتجرؤوا على الدخول الى مخيماتهم ، وكانت رائحة الانتان تشم من بعيد .

من العادات الحسنة عند البدو انهم لا يستعملون ملابس وحوائج الميت ، بل يرمونها بعيدا ، يضعونها احيانا معه في الحفرة ، وقد يكون بعضها جديدا .

ومن الجدير بالذكر ان البدو يستطيعون ان يعيشوا بملء قليل من الماء يكفيهم ، وفي هذه الحال لا يستطيع الانسان ان يتصور مدى القذارة الموجودة لديهم . الا انهم اذا كانوا قريبين من المياه فانهم نظاف نسبة ، وهم يعنون بتقليم اظافرهم وبهندامهم وقد التقطت بعض الصور لشبانهم واطفالهم ، وهي تفصح

عن احوالهم . اجتمعت بشاب يطلق عليه جيرانه لقب (الحضري) لانه نظيف جدا ، يرتدي صيفا الثياب البيضاء والعباءة البيضاء ويتكلم باتزان ، وهو متعلم على الاكثر .

من الملاحظ ان البدو لايزيد عددهم ، واذا زادوا بالتوالد ، فان الموت الجماعي والفردي يشاركهم بتنزيل العدد ، قد تنتج الاسرة عشرة اولاد ، فلايبقى منهم الا اثنان او واحد ، واذاسلم البدوي من المرض ، فالغزو يسهم في تقليل العدد. وهذا خطر كبير لان البادية مصدر ثروة عظيمة ، ولايستطيع احد غير البدو أن يعيش فيها ويستدر خيراتها . البدوي يجابه الطبيعة مباشرة دون احتياط ، فان قاوم صروفها سلم ، وان اشتدت قضت عليه .

فهل يترك الأمر على هذه الحال البدائية جدا ؟ وضعت الدولة عدة مشاريع للعناية بالبدو واغاثتهم عند اللزوم ، الا ان هذه التدابير لم تثمر تماما ، لأن هذه التدابير يجب أن تكون مستمرة ، متعاونة متضافرة من جميع النواحي . اذا لم يتعلم



وجوه من البدو في اسيس

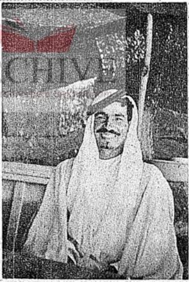
البدوي لا يدرك اهمية استعمال اسباب الوقاية ، واذا لم يسد الامن بين القبائل، فان أية وسيلة لا يمكن أن تجدي في زيادة الثروة العامة . واذا لم يتعلم البدوي أمور دينه، وينمو عنده الوجدان الروحي ، فهو بلية على نفسه وعشيرته وعلى الأمة . في بعض العشائر بعض المتعلمين المتدينين ، لذا نجد مستواهم الخلقي والانتاجي أرفع بكثير من سواهم .



بدوية في اسيس

اذاً كيف نجعل البادية مصدر ثروة انسانية واقتصادية أنا لا أقول بتحضير البدو جميعا ، لأنهم ان تحضروا جميعا — وهذا مستحيل — خسرنا خيرات البادية . القابل للتحضر والتوطن على هوامش البادية لا ينقص من عدد البدو وانما يزيده ، لأن البادية تمتص الانسان من مواقع اخرى ، والمتحضرين لا يهجرون البادية بالمرة ، وانما تبقى لهم بها علاقة . تشجع الدولة التحضر ولكنها لا تحارب التنقل ولا تحدّ منه. تجعل من المتحضرين مثالا حسنا للبدو الرحل : فتعنى بالتعليم والصحة والارشاد الزراعي والحيواني، واتخاذ اسباب الوقاية جميعا، وأنشاء المساكن لهم، ولا تهمل ابداً البدو الرحل ، بل توفر لهم جميع الشروط الاساسية العلم ، الصحة ، الارشاد في تربية الحيوان : وقايته ، تحسين نسله ، زيادة الانتاج .

لا نستطيع ان ننكر الجهود التي بذلتها الدولة في حفر الآبار، وبناء مستودعات الغلال وبعض الملاجىء، واحداث بعثات بيطرية لتلقيح الحيوانات. ليس المهم أن تحدث الدولة المشاريع، لكن الأهم المحافظة عليها والعمل على استمرارها لتقوم بالدور الفعال. ما الفائدة من البئر اذا لم يوجد ميكانيكي يشرف عليه، وما الفائدة من مخازن الغلال اذا بقيت فارغة، وما الفائدة من الملاجىء اذا لم يكن فيها أسباب اللجوء، وما الفائدة من التلقيح اذا كان اللقاح فاسدا. لقد حدثني بعض الناس عن كل هذا بمرارة، والأنكى من كل ذلك اللقاح الفاسد، فكيف تريدان يثق البدوي بفائدة التلقيح ورعاية الدولة اذا رأى قطيعه يموت بعد هذا الاجراء.

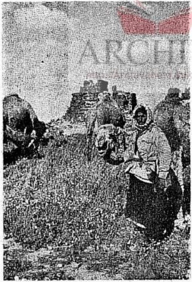


بدوي يعتني بنظافته وهندامه يطلق عليه جيرانه لقب «الحضري»

أما التعليم فانه ايضا لم يؤت ثمرته وربما ارسلت الدولة المعلم فجعله شيخ العشيرة كاتباً لحساباته. لا يكون التعليم ناجحاً الا بزيادة دور المعلمين البدوية. اي ان يكون المعلمون من البدو انفسهم، ويمكن ان نحصل على فائدة موقتة بتأليف جيش العلم المتطوع من الشبان المتطوعين الطيبين المتحمسين يقومون بهذا العمل لقاء تعويضات اضافية ليقوموا بهذا العمل. ومن الضروري جداً ان يهيأ هؤلاء

الشبان بدورات تدريبية، يدرسون بها أحوال البدو وطباعهم واخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم. فيسايرونهم، ويكلمونهم على قدر عقولهم ويعيشون معهم في الظروف نفسها، الا أنهم يحاولون، رفع مستواها من حيث النظافة ومراعاة شروط الصحة.

ان أول مواد التعليم التي يجب أن نوليها عنايتنا هي امور الدين لأنها تعلمهم النظافة والوقاية من الامراض، وتنظم حيـــاتهم الاجتماعية والاقتصادية، وترفع مستواهم الاجتماعي والوجداني، وتجعلهم مواطنين صالحين. ومن المعلوم أن الدين قريب من عقول وقلوب كل الناس وخاصة البدو، وهم حتما يقبلون عليه دون دعاية أو تمهيد، وخاصة اذا أتاهم من أناس مخلصين. لذا أرى أن يكون المتطوعون من المتدينين، وكم يجدر بالجمعيات والمؤسسات الدينية أن تعنى بهذه الناحية اننا نرى البعثات الدينيـــة الاجنبية تجوب الغـــابات والصحارى والأماكن الخطرة للتبشير بالدين، ونحن ـ مع الأسف ـ لم نسمع بأن متدينا او جماعة من المتدينين قاموا بعمل بسيط في هذا الميدان. واذا قام احدهم بعمل من هـذا القبيل كانت له غاية دنيوية قبل أن تكون روحية خالصة. وربما شعوذ على أهل القبيل ليمتص اموالهم، ثم يفر هارباً بعد حصوله على مبتغاه. يوجد حوادث من هذا النوع، لكني لا أعني أبداً أن

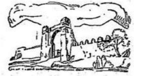

بدوي مسلح يذبح البعير

أطعن بالمتدينين جميعاً ، أو بالاحرى لايمكن أن احمي من يقترف ذنباً كهذا بأنه متدين بل هو شر على الدين من الفاسق الفاجر .

المهم — كما ذكرت — هوالتعاون والتضافر بين جميع الفئات والمؤسسات ومراقبتها ليكون التنفيذ حسنا ويؤتى العمل الثمرة المرجوة .

. . .

أنا لا أنتقد الوضع ، لكني أعرضه ، وأنا أعرف أن الجميع يتحسسون بهذه الامور ويقدرون اهميتها ، لكن الامكانيات أحياناً لاتساعد على استمرار المشروع . ارجو أن ينظر الى هذه المشكلة بكثير من الاهتمام ، وأن تعالج بكثير من الجد والنية الحسنة . وأنا مؤمن بأن الثمرات ستكون رائعة جدا وستغطي جميع النفقات بل تتجاوزها . وسنربح طاقة بشرية هائلة ، وانتاجا غزيرا،وسعادة واطمئنانا . وهذه هي الاشتراكية العملية .



مجموعات « المعرفة » المجلدة

يسر ادارة مجلة « المعرفة » أن تعلم قراءها واصدقاءها عن وجود كميات محدودة من مجموعات مجلة « المعرفة » منذ صدورها مجلدة – كل أربعة اعداد في مجلد واحد – وادارة المعرفة مستعدة لارسالها لطالبها بثمن ٢٠ ليرة سورية لمجموعة السنة الواحدة المؤلفة من ثلاثة مجلدات يضاف اليه اجرة البريد للخارج ، حسب رغبة صاحب الطلب .

يرجى أن يكتب الى محاسبة مجلة « المعرفة » وزارة الثقافة والارشاد القومي – دمشق – مع ارفاق الطلب بالثمن المذكور . والمحاسبة مستعدة لتقديم المعلومات اللازمة بشان التحويل من الخـــارج والارسال بالبريد العادي أو الجوي وفق الطلب .

الآداب

الكتاب والموضوعات

سارقو النار

شعر: سليمان العيسى

الى شعراء الغرب الذين تضمهم مجموعة
سيلدن رودمان (١) « مائة
قصيدة من الشعر الحديث ... »

ياسارقي نار الإله نغماً توهّجَ في الشفاهِ
الفاتحين نوافذ الألم المضيء على الجباهِ
ماذا وراءَ الليل ؟ خلفَ عصارة المقل السواهي
واللفظةِ الخضراء .. تستعصي على كل اكتناه !؟

★

ماذا وراءَ لهاثنـــا .. في قبة التيهِ العَنيدِ ؟
قبضَاتنا مَزقٌ مضرَّجـــة على باب الخلودِ
والريشُ .. في شدق الرياح الزرق من بيدٍ .. لبيدِ
هذا التحدّي للجليد .. إلى مَ .. يانار الجليدِ .؟

★

(١) تظهر المجموعة قريباً باللغة العربية .

ياسارقي كنزِ الغيوب ، لينثروه على الدروبِ
حَبَباً على كأسٍ .. وتمتمةً على شفةٍ طروبِ
وصراخ طفل فرَّ من يُمناه لألاءُ المغيـــبِ
لم يستطع صيد الشموسِ فراح يشكو للغروبِ

★

ماذا وراء الغيمة الحمراء تسبحُ في دمانا .. ؟
تسقي حناجرنا .. وننسجُ من مرارتها رؤانا
الحب ؟ نعطيه الوجودَ، وليس من حطبٍ سوانا
الخلد ؟ وهم تستريحُ على دجاه مقلتانا ..

★

ياسارقي كنـــز الإله .. وناثريه على الرمالِ
انا من صحارى الشرق.. حنجرةٌ تعثَّرُ بالسؤالِ
شبَّابةٌ سمراء قطَّعها الحنـــين الى الظلالِ
أحرقتُ اعصابي لأوقظَ صخرةً خلف التلالِ

★

يا مُتخمين من السحاب.. وعفو ناطحةِ السحابِ
تشكون .. يا للنَّهْر يقتله الحنين الى السراب !
ترَفٌ.. تنوء به العيون .. فيستحيلُ الى عذاب
إنّا هنا .. شفة تدق لقطرةٍ حلَكَ الضبابِ

★

إنّا هنا .. أأعيد ملحمة عصرتُ بها وجودي؟
قبراً .. أمر عليه كل عشية أسقي نشيدي
دنيا .. فُجعتُ بها منضّرة كأحلام .. الوليد
سدت عليّ نوافذي .. ريح النّخاسة والعبيد

★

ياسارقي نار الإله . بأرضنـــا نارٌ . غريبه
أكلت عيون الناظرين الى السماوات الرحيبـه
من كوة خلف الغروب.. تلفنا كفٌ خضيبه..
لم تعرفوها .. إنهـــا مأساةُ أغنيتي الصليبه

★

عشنا معاً.. خلجات أجنحة ..وحلماً في شراع
حمل البراءة ..ملءَ عينيه الى ظـُفـر السباع
الشعر قربانُ الربيـع .. الى الجديب من البقاع..
هل تورق الزفرات ذات منُحىً وتخضرُّ المراعي؟

★

لا بُدَّ من ظلٍ ، ولو شط السفارُ بنا وطالا
لا بُدَّ .. ما أشقى مصيرَ الارض صحراءً،وآلا
المجد للفولاذ يحدو الركب .. ينتعلُ الرجالا
ياشعر ! قطرةَ روعة ياشعرُ ، تمنحنا الجمالا

الحروب (١)

للشاعر المرحوم أبي القاسم الشابي



ابو القاسم الشابي كما يراه الرسام التونسي
جلال بن عبد الله

هل الحروب سوى وحشية نهضت ... في أنفس الناس فانقادت لها الدول
فايقظت في قلوب الناس عاصفة ... فاسودت الشمس وأربدت لها السبل
فالدهر مشتعل بالنار ملتحف ... من المآتم والايام تشتعل
والارض دامية والكأس حامية ... والشر يخفق في آفاقها ثمل
والموت يسبح في موج الضجيج فلا ... يبقي ويخطف من قد خانه الأجل
وفي المهامة أشلاء ممزقة ... تتلو على القفر شعرا ليس ينتحل
تثير في النفس احزاناً يرتلها ... فم الفؤاد بتغريده فتنهمل

---

(١) لأبي القاسم الشابي مؤلفات متنوعة لم تنشر ، وله أيضاً مجموعة شعرية كبرى ضائعة في الصحف والمجلات القديمة وعند بعض أصدقائه . وهذه قصيدة لم تنشر في ديوانه «اغاني الحياة» .

عبد الرؤوف الخنيسي — تونس

ضمير النقاد

للكاتب الفرنسي گه تان بيكون

Gaëtan Picon

ترجمة سعيد القضماني

انا لندرك ، نحن النقاد ، ادراكا تاما ماهو سوء الضمير والتواء الوجدان ، واننا لنشعر ، بعض الاحيان ، باننا مجرمون عن طواعية واختيار ... ولكن يجب الاعتراف ايضا بأن النماذج التي تعرض علينا ونتحدث عنها ليست بشجعة على الدوام . فمهما صرفنا من القول وأوردنا من الحديث ، يقال لنا بأن ذلك ليس بالقول الحق والحديث الصحيح ، أو انه على الاقل ، ليس بالقول الحق على الضبط . اننا كثيرا مانلمح سؤالا يضطرب في عين المؤلف وقد أخذته الدهشة بعد أن قرأ تعليقا لناقدمن النقاد ، نلمح سؤالا يقول :

وهل عني يتحدث هذا الناقد ؟ ومن جهة أخرى فكم من السهل على الكاتب ان يجيب على نقد لم يرق في عينه ، فيقول بأنه من العبث الحكم في لحظات قصار على كتاب شغل سنوات طوالاً من حياة الكاتب .

اما اذا استقام نقدنا واتسمت احكامنا بالدقة والصحة واعترف لنا بذلك، نجد من يقول : ماجدوى ان نضيف الى اشعاع الأثر الادبي ضوءنا الخافت ؟

أفلسنا نقف في الجانب السيء : جانب الذكاء الهدام بدلا من ان نقف في جانب الحياة المندفعة العارمة ؟

وقد تمر بنا لحظات يخالجنا شعور يدفعنا الى التواري عن المسرح بعد ادراكنا بطلان مهمتنا وعدم جدوى مانمارس من نقد .

واذا أحببنا ان نثأر احيانا من الكاتب ورددنا قول باسكال : « ياله من بطلان عندما يشدنا النقد الى مؤلفات ليس لها قيمة اصيلة في حد ذاتها » ولكن هذا الثأر يعود لينصب علينا نحن معشر النقاد .

* * *

ولكن ، انكم لتعلمون علم اليقين « بأن عذاب الضمير السيء هو السبيل الوحيد لتكوين الضمير السليم والوجدان المستقيم . وهذا حق من حقوقنا التي لاينازعنا فيها احد .

ثم ان النقد ، قبل كل شيء ، انعكاس طبيعي ورد فعل لايمكن تجنبه ، كالحمرة التي تلون الوجه اثر عاطفة عنيفة ، والاشارة التي ترافق كل اندهاش . ان انطباع القارىء عندما يفرغ من قراءة كتاب لايتعدى مجرد الاعجاب او التحفظ او الرفض . وما النقد الا التفسير والايضاح للتجربة التي مرت بها عملية القراءة . والنقد مع بعده عن ممارسة تشويه الشمس المنبعثة من الكتاب برمته

خلالا لاجدوى منها ، فان هذا النقد يعين على تدعيم الاستمتاع العفوي وتعميقه ، كما يعمل احيانا على تقويمه أو تبديده .

على ان النقد في الوقت الحاضر قد تعدى مجرد الحكم على مؤلف والاستمتاع الواعي له ، لقد اصبح السبيل الى معرفة الانسان نفسه .

وان المرء ليأخذه الاعجاب مما يلمسه من المزايا التي يتسم بها النقد المعاصر والتي تتجلى في شمول النظرة وعمق الحكم ورهافة التعبير . حتى ان اساتذتنا في النقد في القرن التاسع عشر ليدهشون ايضا اذا اطلعوا على بعض ما نكتب من فصول النقد .

وهنا يتبادر سؤال الى الاذهان : هل هذه الخصوبة في النقد هي البديل عن البذور الخلاقة ؟ على أني استطيع ان ارد هذه الخصوبة الى التقدم الذي تحقق عن طريق العلوم الانسانية التي يمكن اعتبار النقد تطبيقاً خاصاً لها . فالتحليل النفسي ، وعلم نفس الاعماق وعلم الفنولوجيا من جهة ، ثم الماركسية والتاريخ المجرد عن الاحداث ، وتاريخ الطبائع من جهة أخرى ، كل ذلك قد وسع معرفتنا عن الانسان وألقى عليها اضواء جديدة كما جدد معرفتنا عن ظروف الانسان التاريخية - الاجتماعية .

كان النقد في الماضي يرتكز على مبادىء علم النفس والاجتماع ، اما النقد المعاصر فقد وسع نقاط ارتكازه واصبح يعتمد على علم التاريخ الطبيعي للانسان الذي تقدم تقدما عظيما وامتدت آفاقه الى آماد بعيدة .

ثم انه في استطاعة النقد المعاصر ان يضيف الى العلوم الانسانية عناصر جديدة لاتشملها هذه العلوم في الاصل . ذلك ان النقد ، في المفهوم الحديث، يرى

اللغة قوة اساسية وفعالة في حياة الانسان ، فاللغة هي التعريف نفسه للانسان ، وهي التي تفرض وجود كل علم لتاريخ الانسان الطبيعي .

ويشمل النقد ايضاً علم الاخلاق لأنه يعين الانسان على التعرف على اخيه الانسان بشكل افضل،فهو كوسيلة الى المعرفة، يعتبر قوة دافعة من قوى الحضارة .

والنقد لا يقرب الانسان من الانسان فحسب ، بل انه قبل كل شيء ، يقرب المؤلف من القارئ (وربما المؤلف ايضا من نفسه) ، النقد هو الكلام المفهوم الذي يجمع بين كل هؤلاء .

ثم اننا بحاجة الى النقد ، آخر الامر ، لكي نقرب آداب الامم الاخرى على اختلافها بعضها من بعض . فجذور معرفتنا للآداب الاجنبية ترويها دوماً وساطة النقد المختص . وجميع القراء الفرنسيين الذين يقاربونني في العمر مدينون الى امثال ادمون جالو ، ولويس جيه ، والبيركان ، وفالري لاربو ، وبانجامان كرميو . وبوريس دوشلوزر . مدينون اليهم في خطواتهم الاولى نحو الادب الانكليزي والالماني والايطالي والروسي ...

فبالنقد استطاع هذا الأدب العالمي أن يستشعر بوجوده كما يقول غوته ، وأن يحتل مكانه بين الآداب القومية . وهذه العالمية في الأدب لا ترتكز ، بالطبع ، على هوية معينة ، ولكنها تستمد وجودها من حقيقة مجموع العلاقات التي تربط بين مختلف الآداب ، والتي تتخطى الحاضر وتتطلع الى مستقبل يفرض تعايشاً سلمياً بينها بعيداً عن ملابسات الاذعان او الخوف وقائماً على الاعتراف بوجود مشترك .

والحق ايضا انه لولا ابداع المؤلف لا يكون هناك مجال لقول ناقد ، ولكن عن طريق النقد يستطيع المؤلف ان يقول كل ما يريده قوله، وان يقوله لجميع الناس .

مع اللغة في تاريخنا ......



ثياب المرأة العربية

بقلم منير العمادي

كنت في مطالعاتي الطويلة ،اقيد كل مايقع لي من اسماء وانواع الثياب التي، تلبسها المرأة العربية ؛ في أوراق متناثرة ،وأثبات متفرقة ، وحسبتني اليوم ، بجمعي، هذه الشوارد ، قد أبرأت ذمتي من دين ادرك اجل قضائه ، وحان أوان وفائه .

لبست المرأة العربيـة ضروباً من الثياب ، بألوان متعددة . فمنها مما اخرجته مناسج اليمن وعُمان والبحرين ، ومنهامن ديار الشام والعراق ، ومنهـا ما كان، يُجلب من بلاد الصين والهند وفارس .

ومن تلك الثيـــاب مارق نسجه ، ودقت خيوطه ، وذلك مانسميه بالمُهَلْهَلْ ، والمُسَلْسَل ، والهَفَّاف ، « انواع الكريب » .

ومنها ماكثف حوكه . وذلك مايدعى بالصفيق ، والشبيع ، والحصيف .

ومنها مالم يخالط لونه لون آخر ، كالابيض والأخضـــر والأسود والأحمر .

والمُدَمَّى، وهو ذو الحمرة القانية .

والمُشْرَق ، وهو ماكان وسطاً بين الحمرة والبياض .

والمفووق ، وهو ماصُبِغ او أُشبِع بالزعفران وماإجتمع فيه لونان أو اكثر .

والمُشْرَب ، وهو الذي يماوجُ بين لونين .

والمُخطَّط والمُسَهَّم ، وهو ماتُشبِه خطوطُه أفاويق السهام ، « والفوق موضع السهم من الوتر » .

والمُفوَّق ، وهو ماإجتمع الى لونه خطوط بيض ، ويجوز العكس أو النقيض .

والنَّميق والمنمَّق ، وهو المنقوش ، **والمُوَشَّى** ، وهو ما اجتمع عليه الزُخْرُف .

والمعيَّن ، وهو الذي تشبه نقوشه عيون النرجس والورود .

والمُذْهَب ، وهو ماحيك نسجه بخيوط الذهب .

. . .

وأما مادة هذه الثياب ، فهي الحرير ، ومنه الدِّيباج وهو الحرير عامـــة والدِّمَقْس وهو القَزُّ والسُّنْدُس وهو رقيق الديباج ، والاستَبْرَق وهو

صفيق الديباج او ماحيك بالذهب ، **والخَزُّ** ، وهو وبر حيوان كالأرنب يجلب من شمال العراق وهو مانسميه اليوم « انقورا » ، نسبة الى ارانب انقره .

. . .

وانواع هذه الثياب عديدة ، مختلفة الصفات والاسماء واعمها واشملهـا **الشّعار والدّثار** .

فأما الشعار ، وهو مايلي جسدها ، **فالصّدار والمِجْوَل**، وهما قميصان قصيران متقاربان ، ودونهما السراويل .

واما دثارها وهو مايلي الشعار ، **فالدُّرع** . وهو جلباب شامل يحيط بدثارها ، **والنّطاق** ، ويلبس دون الدرع ، وهو ثوب تشده المرأة الى وسطهـا وترخي نصفه الأعلى على نصفه الأسفل ، واذا ماقربناه الى مفهوم عصرنا قلنا انه « خراطة مضاعفة » ومن فوق هذين « أي الشعـار والدثار » **البَتّ** وهو ثوب واسع يحيط بجسم المرأة ويقنّع جزءاً منه رأسها ووجهها . فأن لم يكن البت **فالحُلّة** ، وهو ثوب يظـاهره ثوب آخر ويغلب ان يكون ظاهر الثوبين رقيقاً شفافاً يظهر ما يليه او ما تحته .

. . .

وترتدي الى ذلك بأصناف من الأردية للزينة او للتصوّن والأحتشام .

ومن تلك الأردية **العطاف** او **المِعْطَف** . وهو رداء تلقيه على عطفيها وترسله على جسمها .

والرَّيْطة ، وهي ملاءة ذات شقة واحدة .

والحَبَرة وهي برد من برود اليمن منمّر أي الذي فيه غرة بيضاء واخرى سوداء ، او الوان عديدة ، والنمرة النكته من اي لون كان .

وبهذه المناسبة تحضرني نادرة ، هي ان ولداً صبياً لحسان بن ثابت لسعته زنبور ، ولم يكن قد عرف اسمه ، فقال ياابت لسعني طائر كأنه ملتف في بردي حبرة يمانية .

ومن أرديتهن **المرط** « بكسر اوله وسكون ثانيه »، وهي « ملاءة » بضم الميم، ذات شقين ، وهي الأعم استعمالاً ، **والوشاح** وهو شقة ، قد ترصع بالجواهر ، تشدها المرأة بين عاتقها وخصرها ، **والمطرف** ، وهو رداء مربع من الخز موشى بالوان من غير لونه او من لونه .

ولهن كذلك **المسح والسلب** ، والمسح بكسر الميم ، الكساء من الشعر وهو من اكسية البادية واما السلب بضم السين والسلاب فهي ثياب سود تلبسها في المأتم ، وسلبت المرأة وهي مسلب اذا كانت محداً تلبس الثياب السود للحداد ، والسلب « بكسر اللام » : الطويل .

ومن الأردية ، **الميدع** ، « بكسر الميم » وهو ثوب تلبسه المرأة فوق ثيابها عند معاناة عملها « الأعمال البيتية » فتصون به غوالي ثيابها من الأبتذال ، وهو ما يسمى اليوم بالقدّامية « مريول » .

ومن ارديتها **الإتب** وهو برد يشق ثم تلقيه المرأة في عنقها من غير كمين ولا جيب وهو يعرف اليوم رداء « الشوال » ، وقيل هو الملحفة وقيل الأزار .

ومنها **الشوذر** وهو ثوب تجتابه المرأة الى طرف عضدها .

وكذلك من الأردية **الأزار** وهو كل ما وارى وستر ، ومن الأردية **الخيلع** « بفتح الخاء وسكون الياء وفتح اللام » لغة في الخيعل . وهو ثوب لا كمي له « شلحة » او « كومبينيزون » « حاشية : جاء في اللسان ، قال الهوريني

في تعليقه على القاموس ، قوله لا كمي له ، قال الصاغاني وانما اسقطت النون من كمين للأضافة ، لأن اللام كالقحمة لا يعتد بها في مثل هذا الموضع » .

ونأتي في الأخير على ذكر اردية الرأس ، وهي متعددة الاسماء على ان استمالها لايجاوز الرأس والوجه ، فمنها **السَّرَق** ، واحدته **السَّرَقة** وهي شقة تلتفع بها ، ولفع رأسه تلفيعاً اي غطاه .

والمِقْنَع والمِقْنَعة ، ماتغطي به المرأة رأسها ، وفي الصحاح ماتُقنّع به المرأة رأسها .

والغَمَر ، وهو منديل الرأس « ايشارب » اليوم

والمِعْجَر ، والعِجار ، وهو ثوب تلفـــه المرأة على استدارة رأسها ثم تجلبب فوقه بجلبابهاوالجـــع معاجر ، والجلباب ثوب دون الرداء تغطي به المرأة رأسها وصدرها ، وقيل هو ثوب واسع ، دون الملحفة **والنَّصِيف** ، هو الخمار وقد نصّفت المرأة رأسها بالخمار

« وفي اللسان ، قال ابو سعيـــد ، النصيف ثوب تتجلل به المرأة فوق ثيابها كلها ، سمي نصيفاً لأنه نصف بين الناس وبينها فحجز ابصارهم عنهـــا قال والدليل على صحته ماقاله النابغة

سقط النصيف ولم تُرِد اسقاطه ... فتنـاولته واتّقتنـا باليـــد[1]

لأن النصيف اذا جعل خماراً فسقط فليس لسترها وجهها مع كشفها معنى. »

ومن اردية **الرأس الخِمار** ، والخمار ماتغطي به المرأة رأسها والخِمْرة من الخمار كاللِّحفة من اللحـاف ، وفي المثل ان العوان لاتعلَّم الخِمرة اي ان المرأة المجربة لاتُعلم كيف تفعل .

وعلى ذكر الخمار تحضرني نادرة : جاء في ج ٢ ص ١٧٣ من الاغاني ان

(١) نرجح ان نصيف النابغة الذبياني هو حجاب الوجه وما يليه لاثوب كامل . وألا فان الشعر هنا يفقد روعة الحركة فيه (المعرفة)

تاجراً من اهل الكوفة قدم المدينة بخمر « جمع خمار » فباعها كلها وبقيت السود منها فكسدت ولم تنفق ، وكان هذا التاجر صديقاً للشاعر الدارمي . فشكا امره اليه ، وكان الدارمي قد نسك وترك الغناء وقول الشعر واعتكف في المسجد .

فقال ، لاتهتم فأني سأنفقها لك حتى تبيعها اجمع ، فنظم بيتين من الشعر وغنى فيها وهما :

قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا فعلت براهب متعبّد
قد كان شمّر للصلاة ثيابه حتى وقفت له بباب المسجد

ولحنها وغنى فيها ، وشاع الغناء في الناس ، فقال اهل المدينة قد فتك الدارمي ورجع عن نسكه ، فلم تبق في المدينة ظريفة الا ابتاعت خماراً اسود ، حتى نفد ما كان مع العراقي منها ، ولما علم بذلك الدارمي رجع الى نسكه ولازم المسجد .

والدارمي هذا كان في ايام ولاية عمر بن عبد العزيز على المدينة ، وكانت له أشعار ونوادر ، وكان من ظرفاء اهل مكة ، وله اصوات يسيرة « غناء » اي انه كان شاعراً ظريفاً ومغنياً وملحناً ويغني بشعره .

وكانت متفتيات اهل مكة لا يطيب لهن متنزه الا بالدارمي . وكان الى شاعريته وظرفه وحسن غنائه بخيلاً ، ومن نوادره :

لقيته صاحبته ليلة في الطواف ، فأخرجته الى ناحية المسجد وجعلت تعاتبه ، على شيء يبدو انه وعدها به ، الى ان قالت له يادارمي بحق هذه البَنيَّة « الكعبة » أتحبني ؟ فقال نعم ، قال وانت فبربها أتحبينني ؟ قالت نعم ، قال فيالك الخير ، انت تحبينني وانا أحبك فما مدخل الدراهم بيننا .

ومن ارديتها : البخنق : « بضم فسكون فضم »وهو يغشّي العنق والصدر

والبرنس الصغير يسمى بخنقـــاً ، والبخنق تلبسه المرأة فتغطي به رأسها ماقبل وما دبر غير وسط رأسها ، وقيل هي خرقة تقنّعُ بها وتخيط طرفيها تحت حنكها وتخيط معها خرقة على موضع الجبهة ، وبعضهم يسميه «المحنك» بكسر الميم » والبخنق ان تخاط خرقة مع الدرع فيصير كأنه ترس فتجعله المرأة على رأسها ، وفي الصحاح ، البخنق خرقة تقنّعُ بها الجارية وتشد طرفيها تحت حنكها لتوقي الخمار من الدهن او الدهن «الكريم» من الغبار .

. . .

ونعود بالموضوع الى الثياب ، فمنها ما يسمى **السّكب** «بفتح وسكون» وهـــو ضرب من الثياب كأنه غبار من رقته ، او كأنه سكب ماء من رقته والسكب «محرك الكاف» ضرب من الثياب .

. . .

ومن الاردية **النقاب** ، وهو **القناع** على مارن الانف ، «والمارن بكسر الراء طرف الانف او مالان من طرفه» وقد تنقبت المرأة وانتقبت وانها لحسنة النّقبة ، واذا ادنت المرأة نقابها الى عينها ، فتلك **الوصوصة**، فأن ازلته دون ذلك الى المحجر فهو النقاب ، فأن كان على طرف الانف فهو **اللّفام** ، والنقاب هو الذي يبدو منه محجر العين ، وكانت تبدو منه احدى العينين والاخرى مستورة .

واذكر بالمناسبة بعض أبيات للشاعر الأديب قسطاكي الحمصي الحلبي ، يتغزل بمنتقبة يختمها بالبيت التالي ، بعد ان نضت النقاب ، يقول :

فغاب من حسنها ما كان منتقباً ... وبان من فسقها ما كان مستورا

. . .

ومن الاردية البرقع « بضم فسكون فضم » وهو مايوازي الوجه ويحجبه وفيه خَرقان للعينين ، وكان خاصاً بنساء الأعراب ، ثم انتقل الى نساء الحضر .

والصدار ، « بكسر الصاد » مايغشي الصدر اومايليه ، ويمكن أن تكون هي الصدرية في عرفنا اليوم ، والمجـــول بكسر الميم وسكون الجيم وفتح الواو ثوب صغير تجول فيـه الجارية ، وثوب يُثْنَى ويخاط من أحـد شقيه ، ويجعل له جيب تجول فيه المرأة ، وقيل المجول للصبية والدرع للمرأة ، والجيب من القميص طوقه المقور ، المفتوح .

ودرع المرأة قميصها ، وهو ايضاً الثوب الصغير تلبسه الجارية الصغيرة في بيتها ، وفي التهذيب: الدرع ثوب تجوب المرأة وسطه وتجعل له يدين وتخيط فرجيه.





بقلم يوسف شرورو

قد يضيع وجهي بين الوجوه ، في زحمة الطريق ،قد يفسى تقاطيعي ، فلا يذكروني . الدرب الذي أسير عليه تأكله الاقدام المتلاحقة . عينان تتابعان حركاتي عبر جريدة يومية، صفحاتها ست ، أبوابها متنوعة ،وأحرفها تصور حادثة قتل حدثت بالامس . وجهي غريب بين الوجوه هنا ، لأحد يعرفه فمنذ ايام تركت عملي في مطعم « الضوء الخافت» اللندني ، الايام لونها باهت . العمل الذي طلب مني أن اقوم به ، قد انجزته منذ أيام . سأطير كسرب من طيور مهاجرة، سأكتب تقريراً وأضعه بيد حسين .. الأيام سيحمر لونها، ستشرق منها شمس فتية وجديدة . المقهى الذي يبتلعني ، صغير كوجه فتاة حلوة ، رصيفي ، الطاولات موزعة بلا تنسيق . الناس فيه قلائل تأكلهم عيون الخدم النهمة .

العينان وبساط الضوء

العينان أزاحتا الجريدة . صاحبها سددهما نحوي ، قال صوت أجش فيه همجية :

— الغريب ، كالكلب يبحث عن عظمة !

رأيت صاحب الوجه ، وقمت . دفعت حسابي الضئيل ، وسرت صغيراً ، أحمل بيدي اليمنى حقيبة جلدية فاخرة ، دفعت ثمنها من عرقي المالح . الناس هنا لاعرق لهم ، يعملون بايديهم وبعقولهم ولكنهم لايفرزون عرقاً . الشارع مزدحم بالوجوه المتعبة والجميلة .. وجهي يلعب فيه خوف طارىء ، قد يزول ، وقد يحفر فيه الى الأبد .

جاء صوت من خلفي ، الصوت فيه لكنة غريبة وفيه نعومة هذه المرة :

— الغريب يتقدم نحوي . لايبتعد ، فأنا أعرفه ، لايفر ، فسوف أناله كسمكة بحر صغيرة .

أبطأت سيري . وقفت قرب جدار يلمع ، حبات المطر ماتت في السماء . المقاهي الرصيفية تزدحم بالاجسام المترفة ، الصوت لم يمت في أذني . يدي ارتعشت ثم رجفت ، بدأ الليل الاسود يغزو الشوارع . الخوف تسلل الى قلبي ، البرودة امتزجت بعرق نبعت خيوطه المقدية على جبيني .. أوف ، الى متى ايتها الغربة ؟ لم لاتقتل هذه الكلمة الجريحة في قواميس اللغات ؟ سأذكر هذا في تقريري وسأكتبه بخط جميل . اقتربت العينان ،صغيرتان زرقاوان قاسيتان . التصقت بالجدار ، ووضعت حقيبتي بين قدمي .

أرض الشارع مبتلة ، اعلان يزحف كذبابة جريحة ، كلمات الاعلان غير واضحة مطموسة . قبضت على حزامي الجلدي الرفيع .. سأحفر خندقاً يسيل فيه دم الزرقة ، سأمزجها بحمرة قانية . سأقتلع عينيه وأسحقها كعقب سيجارة .

الغريب لن يموت ككلب ، ولن ُينال كسمكة بحر . ابتسم الوجه ابتسامة ثعلبية ، لعق لسانه ، قلت بخوف يموت :

— لا تتقدم ، فالحياة هي أن تبقى بعيداً عني .

ضحك كمن أصابته نوبة ، ودق جسده في الشارع ، الخيال كان عملاقاً وضخماً قال وهو يمضغ عود كبريت جاف : — أنا أراقبك منذ يومين ، أرسلوا بي خلفك من لندن ، لا تخف فأنت في يدي كالشعرة أداعبها ، ثم أقذف بها بعنف حتى تضيع على الرصيف .

طوحت بحزامي وأصبته في وجهه . قال : — آخ ، سأزدردك بحلاوة .

وانطلقت كعابرة مدى ، وحشرت جسدي بين أجساد تسير بتعب حتى وصلت إلى منطقة هادئة ، أشجارها عارية لا تعرف العناق ، واخترت بابا أبيض له عين سحرية ضغطت جرساً رنينه أزعجني ، وأطل وجه هرم كقمر يحتضر . لم يبتسم الوجه ولم يقل كلمة واحدة . الوجه يحمله سيدة كانت منذ قليل تحضر طعاماً خفيفاً ، فهي غير متعبة . وغير أنيقة . قلت بصوت حاولت أن لا يرتعش :

— هل أستطيع أن أقضي ليلة هنا ؟ فأنا غريب والفنـــادق لا تعجبني لازدحام الناس فيها . أنا املك نقوداً وسأدفع لك .

سألتني عن بطاقتي ، وعن بلدي وعملي ، وبعد أن اطمأنت أفسحت لي طريقاً ، وأصبحت في الداخل .

البيت دافىء كفراش عروس ، ورجل يقرأ في كتاب ضخم ، لم يبعده عن وجهه . قالت السيدة العجوز : — زوجي يحب القراءة ، منذ أيام وهو يخوض المعارك مع نابليون ، انه يعيش في رواية « الحرب والسلم » .

قلت بسذاجة مضحكة : — نابليون أكلته الديدان ، والعـــالم يحتضر

وسيموت . أطفأت بسمة عينيها ، وسارت أمامي حتى الغرفة . قلت : — هل في البيت أحد من النزلاء ؟!

نظرت الي بشراسة غريبة وقالت : — أنت خائف ! هل أنت جبان ؟!

أذهلتني كلماتها . وكالدوامة دارت بي الغرفة ، الصور تحركت . والسرير انقلب ، والكرسي الكبير وخزني بشوكة حادة . قلت لنفسي : — هل أنا جبان ؟ الاجابة ماتت وتعفنت ، علمت بأني لست جباناً .

أخرجت الأوراق وبدأت أكتب تقريراً مطولاً عن أعمالهم هنا . وكيف يطاردوننا بلا هوادة . نحن قلة ، طلاب جاءوا من بلادهم الدراسة ، توزعوا في مدنهم الضخمة الملأى بالناس وبالحجارة المتكومة على شكل بنايات شاهقة، وبالمقاهي كتبت بأن الخطة التي طلب مني أن أحصل عليها ، هي في حوزتي . سوف أعطيها لحسين حتى يرسلها اليكم . وكتبت عن الغربة ، والناس كاذبون عندما يقولون بأن الوطن هو العالم ، الانسان يجد وطنه عندما يجد انساناً في أي بقعة .. أنا لا أؤمن بهذا ، أنا أريد أن يكون لي وطن ، وشعب ، وجذور أرضية تشدني اليها، أريد أن اكون في بلادي ، وبلادي بعيدة تفصلها عني بحار زرق ، تسرح فيها حيتان سود ، عيونها مخيفة .

وضعت التقرير مع الخطة التي حصلت عليها . وذهبت لأغلق الباب بالمفتاح، وسحبت كنبة كبيرة ثقيلة ، وضعتها خلف الباب . ونمت بلا تفكير .

في الثالثة والنصف صباحاً ، أزحت الغطاء الثقيل وغسلت وجهي جيداً وفكرت بالخروج . ولكن إذا خرجت الآن فسيراني الجميع . أذكر بأنهم قالوا لنا قبل سفرنا : — لتكن جميع تنقلاتكم في النهار وبلا سرعة .

ماذا سأفعل الآن ؟ الليل لم يغادر المدينة ، المدينة التي انام فيها اسمها صغير

وغير موسيقى « بون » جافة كعشبة ميتة ، ذبلت في ارضها . اللغة اعرفها فقد درستها منذ ثلاث سنوات . ولكنني غريب ، وجهي لايحمل شيئاً من ملامح وجوههم وخطواتي اعتادت على السرعة .

يجب أن اذهب لأعطي هذه الاشياء التي تنام في حقيبتي الى حسين . انه العقل الذي يدبر وينفذ كل شيء . الطريق اليه طويل ومخيف .

قالت صاحبة الوجه الهرم من خلف الباب : ــ هل تريد ان تشرب الشاي في غرفتك ؟ لم أرد عليها بسرعة . أعادت السؤال مرة ثانية ، وثالثة ، صيغة السؤال اختلفت . الصوت ارتفع ، وأخيراً أجبت ، بأنني سأنزل الى غرفة الطعام ، وذهبت دون صوت . شربت الشاي ودفعت لها « سبع ماركات » وخرجت ، الساعة في يدي جيدة ، كانت الثامنة والثلث . خير موعد للسير في شوارع بون الواسعة ، الناس كأنهم في مظاهرة من مظاهرات بلادي ، يطالعون واجهات المخازن . منهم من يشتري ومنهم من يتابع سيره . المحطة قريبة ومزدحمة . حسين في بيته ينتظرني كما اتفقنا . الخطة واضحة ومرسومة بقلم رصاص رفيع . العمل ينتظر الشباب في الارض البعيدة التي لم أرها مذ كنت في العاشرة من عمري . الخطة رسمها ضابط كان في جيش حربي وصل منطقة العلمين ، أخذنا الخطة منهم وسيدرسونها هناك وسيعرفون كيف تسير العملية .

لا أحد يسير خلفي . الوجوه نشيطة بعد نوم عميق لابرودة فيه . أخذت تذكرة وبدأت أحسب ، بعد اربع محطات سأكون مع حسين في غرفته ، حسين يدرس الطب هنا منذ خمس سنوات ، ويعمل خلال العطلة في مستشفى كبير أبوابه زجاجية ، كان يحبنا ويحمل لنا الطعام ، بعد أن يحضره من مطبخ المستشفى . . ثلاث محطات وأصل ، حسين لايدخن ، فالتدخين يتطلب نقوداً كثيرة ، ولكنه

يضع خشبة في فمه ، ويحك جلدة رأسه من الخلف . محطتان وأقابله . أذكر انني تعرفت به ، في فرانكفورت ليلة كرنفال صاخب ، وحدثني عن العمل في لندن . واستطعت أن انفذ خطة مرسومة لتخريب احدى حفلاتهم الخطابية .

محطة واحدة ياحسين وتقبلني ، فقد ذهبت الى لندن . ونفـذت كل شيء كما رسمت أنت . قال صوت لسيدة كانت تجلس الى جانبي :

ـ المترو يصيبني بالدوار ، سأنزل في المحطة القادمة !

ولسعتني حية ذات اجراس . : هـــذا كلب أثر . ونزلت ، كان الشارع خالياً ، البيوت صغيرة ولا صوت فيها . كأنهم لايحملون السنة في أفواههم . السيدة مازالت في المحطة . كلب الأثر لايخيف . البيت الثالث على اليمين . حسين لا يطيل إقامته في أي بيت ، ينتقل كل شهر او ثلاثة اشهر . . كان ينتظرني باسماً وفرحاً ابتسمت له وقلت : الغريب ينجح دوماً . الغريب لن يكون غريبـــاً بلا وطن . سلمته الحقيبة الجلدية ، ودون كلام صعدنا الى غرفته .

قال حسين وهو يفتح الحقيبة وينظر الى الخطة :ــ هل وجدت صعوبة في الحصول عليها ؟ قلت :ــ اشتغلت في مقهى « الضوء الخافت » ومن هناك راقبت اجتماعاتهم وذات ليلة تبعتهم بخفة ، وعندما علمت بأن كل شيء جاهز ، تركت العمل وذهبت الى بيتهم ، وأخذت الخطة دون مقاومة ، فقد كانوا يسهرون في « الضوء الخافت » تبعني اثنان منهم ، استطعت ان أحفر خندقاً يسيل فيـه دم ، في وجـه أحدهم ، وعندما جئت اليك لم أجد أحداً يتبعني حتى ولا كلب .

قال حسين مستفهماً :ــ وحادثة القتل التي كتبت عنها الصحف ؟!

قلت :ــ لا أعرف عنها شيئاً فنحن لا نقتل هنا .

ــ عليك ان تأخذ هذه الاوراق الى « آخن » وهي مدينة صغيرة قريبة

من هولندا ، ومنها تستطيع ان تذهب الى هولندا بكل سهولة ، وتسلم الاوراق للواحد منا سأعطيك عنوانه ، وتشرح له كل شيء ، وتحدثه عن الغربة أيضاً . خذ قطار الساعة السادسة ولتكن حذراً ، علمت بأنهم قد فرشوا عيونهم لمراقبتك.

فسألت :— هل أستطيع أن أبقى هنا حتى السادسة مساء ؟!

— نعم ، ولكن سأذهب أنا الى مكان آخر .

لم يغلق باب الغرفة ، أعطاني كتاب طب وقال : — اقرأ لتقتل الوقت .

كنت أدرس هندسة الكهرباء في بون ، ولا أحب الطب والعظام والخلايا .

استلقيت على السرير ورحت أفكر في العالم الذي فصلني بقسوة عن عالمي ، وعن الناس الذين أحبهم ، والذين يعيشون في بلادي . انهم يستعملون كل شيء لاستقطاب العيون حولهم ، معارض ، جرائد ، سينمات وأفلام وملاهي ، ونحن بدأنا العمل في أوروبا منذ شهور فقط ، نعمل دون مساعدة من أحد ، بل نعمل ونحن نحمل مآسي الناس في قلوبنا ونحاول ان نجعلها تذوب .

وطرق الباب بشدة . من يا ترى ؟ ألقيت الخفية في خزانة الملابس الضيقة ، وفتحت المذياع على أغنية حب كانت شائعة . اشتد الطرق ، قمت وفتحت . اثنان عملاقان ونظرات قاسية ، العضلات في الوجه مشدودة كالخيوط . قال واحد منهما وهو ينظر الي :— تعال معنا فأنت متهم في حادثة قتل !!

حزامي الجلدي لا أثر للدماء فيه فقد ازلت كل شيء . دخل الثاني وبدأ يفتش الغرفة بنظرة شاملة ، وضع الاول يده على كتفي وقال :—

كنت تشرب القهوة في المقهى الرصيفي ، وتركته بسرعة عندما قرأت عن جريمة القتل هل هذا صحيح ؟؟

أجبت بهدوء لا خوف فيه :— أنا لم أقتل أحداً ، فالقتل عذاب ضمير ، سأذهب معكم للتحقيق ، أنا نظيف كقميص أبيض غسلته يد امرأة .

وخرجنا . سينتهي التحقيق ، وأعود مرة ثانية الى حسين وأذهب الى « آخن » ومنها الى هولندا . قد يفتعلون جريمة ويلصقونها بنا ، انهم ثعالب نتنة .

حسنا : الشرطي ثقيل وأسود ، أسير بينهما قصيراً بين عملاقين . ان تأخرت عن الموعد ، سيأخذ حسين الاوراق الى هولندا ، العمل هو ان تسير ، لا تنظر خلفك ، الطريق يمتد واسعاً وطويلا وحسين سيصل هـــذه الليلة ومعه الاوراق ستموت الغربة عندما أعود الى وطني . .



ليلة عاصفة

قصة للكاتب البلغاري بافيل فيجينوف

للمرة الاولى والاخيرة التقيت بهذا الرجل الغريب قبل عشر سنوات بالضبط. وانني اذكر هذا اليوم جيدا ، وهو اليوم الذي كان ينبغي ان يكون اول ايام الربيع . وكان الجو غير محدد كأيام آذار — كانت تهب رياح خفيفة وحادة فتنثر الثلج في الجو . وكانت السماء رمادية اللون مائلة الى الرصاصي كاردأ ايام الشتاء ، وكانت شوارع المدينة مقفرة . واذكر ان الجو تحسن عند المساء غير انني لم اسرع للذهاب الى البيت .

وإذ ذاك ايضاً كنت اسكن في شارع «راكوفسكي» في وسط المدينـة . ولجت مدخل السلم ، شارد الفكر ، ومددت يدي ، بحكم العادة ، نحو الزر الكهربائي ، ولكنني لم اكد المسه حتى سمعت الصوت المألوف في الصندوق وشع النور في ارجاء السلم ، كان يقف قبالتي على مسافة خطوتين رجل مستندا الى الجدار ، متوسط العمر ، كاد وجهه يختفي بين ياقات معطفه المرفوعة . ولم ار للوهلة الاولى سوى عينيه ، وكانتا عينين متفحصتين ويبدو عليهما الارهاق . كان يتطلع الي وكأنه كان يريد تسميري في مكاني بنظره .

لم يرق لي البتة هذا اللقاء غير المتوقع ، فأخرجت يدي من الجيبين ، وفكرت بسرعة اين يجب ان اركله اذا ماهاجمني . فبادرني بالقول :

— لاتخف ! انا لست قطاع طرق .

وبعد ان ابتسم اضاف بنفس اللهجة :

— ولا ينم شكلي عن ذلك ، كما يبدو الي ...

عندئذ لاحظت ان مظهره وقور . كان يرتدي معطفا خاطته يد خياط ماهر . وقد انطبع في ذهني ، إذ كان مستطيلا ، جافا جدا ، تعبيره حسن وحزين جدا . عيناه وحدهما كانتا تقلقان ، فكانتا حازمتين مع شيء من القتامة ، محدقتين بي . فمن عساه كان ينتظر هنا ، على السلم البارد المظلم ؟

— كنت في انتظـارك ! ـ قال كالصدى هذا المجهول وابتسم ابتسامة تصعب ملاحظتها ـ كنت افكر بانني سأفاجئك ...

وهذا ايضا لم يرق لي . وكان لازال محدقا بي ، عندما ابتسم بسخرية وقال وكأنه يقرأ افـكاري :

— لاتخف ! فانا لا احمل لك رواية ولا أشعارا ...

— وبماذا يمكن ان اخدمك اذا ؟

— اريد ان اتحدث معك .

— الآن ؟

— نعم ، الآن ..

حياة الكاتب

ولد الكاتب القصاص البلغاري كاتب هذه القصة ـ بافيل فيجينوف في صوفيا عام ١٩١٤ من الكتاب البلغـار الذين عرفوا في المحيط العالمي الواسع ، بمجموعات من القصص الوطنية النضالية ، والروايات ذات الطابع الانساني . اشترك في معارك تحرير بلاده ضد النازية ، جندياً وكاتباً وصحافياً . وبرزت شخصيته كروائي على مستوى عالمي في روايته (السهل الأجرد) عام ١٩٥٢ و(بعيداً عن الشاطيء) عام ١٩٥٨ . طريقته الوصفيه في القصـة والرواية اكسبته تفوقاً على الكثيرين من الكتاب المعاصرين . كما اشتهر مؤخراً في تأليفـه الروايات المعدة للسينما البلغارية ، واهمها (نهاية الطريق) و (مختص في كل شيء) وهما من الكوميديات المحلية .

— فتمتمت متعجبا : ولكن الوقت متأخر جدا الآن . الافضل غدا .
قال الشخص المجهول بهدوء ، ودون الحاح :
— ان ذلك ضروري . غدا قد يفوت الأوان .
فكرت بان غرفتي باردة وغير مرتبة ، فكيف استقبل فيها شخصا غريبا ؟ قال :
— هذا غير مهم . ما اتيت لافحص لك المسكن ، وانما لاحدثك حول امر خطير .
هذه المرة امعنت النظر فعلا في هـذا الضيف العجيب . فاي انسان هو ؟ أهو قارىء افكار ام مجنون ؟ كلا ، من المؤكد انه مجنون ، فثمة شيء جنوني في نظرته .
— لست مجنونا — قال الشخص الغريب بحزن — انني طبيعي مثلك .
فصحت والدهشة تعقد لساني :
— يالشيطان ! انت حقا تقرأ افكاري .
— اجل ، انا حقا اقرأ افكارك . قال بجدية .
— وتزعم انك لست مجنونا ؟
فعقب ضيف نصف الليل بشيء من السخرية :
— ان المجنون لايستطيع قراءة الافكار .
وللاسف ان الامر كان هكذا بالضبط ، ولا احد يستطيع الطعن بصحة هذا الكلام . كنت مندهشاً الى درجة انه خيل الي ، لحظة ، انني احلم .
— كلا ، انت لاتحلم . — قال متنهدا ومد يده بحركة سريعة كي يهدىء من روعي .
— ليس من امر غريب خارق ! سأوضح لك الامر الآن .
نزع ياقة معطفه ، فبدا لي عاديا واكثر طيبة وحزنا . ولكن ماذا كان علي ان ارى ؟ لم يكن ثمة شيء هام للرؤية سوى جهاز السمع الذي كان سلكه يتدلى من اذنه اليمنى .
قال صاحبنا بهدوء :
— هذا ليس جهازا للسمع . بـــل جهاز التقاط صغير ، صنعته بنفسي ... ولكنه بدلا من موجات الاثير ، يستطيع التقاط التيارات البيولوجية التي يرسلها المخ البشري . وباختصار : يلتقط افكار الناس ..
ومهما بدا ذلك غريبـا ، فانه لم يعد يصعب علي تصديقه . فاخذت احدق بضيفي الغريب مدهوشا ، وتمتمت بصوت خافت :
— حسنا ، تعال الى فوق .
وبعد لحظة اضفت بعصبية :
— ولكن ، بالله عليك ، انزع هذا الجهاز عن اذنك .

لاول مرة ابتسم صاحبنا ، وكانت ابتسامته قلبية وطيبة ، مما جعلني اطمئن تماما .
— حسنا ، لن ازعجك اكثر من ذلك ! ـ أجاب ونزع الجهاز عن اذنه .
صعدنا الى المنزل ، ودعوته الى غرفتي غير المرتبة . وسألته مازحا :
— أتعلم ماذا افكر الآن ؟
فأجاب بنفس اللهجة :
— اعلم ! انك تفكر بان حياة العزوبية قاسية ... ودون ان اكون نبياً سأقول لك بانك ستتزوج عما قريب .
— آمين ! — قلت واحسست بقشعريرة في ظهري ، — وأنت ، متزوج ؟
وكأن وجهه اكفهر ، اجاب :
— متزوج . ولكنك ستسمع عن ذلك أيضاً ... سأقص عليك كل شيء .
فقلت بصوت خافت :
— أنا مستعد للاصغاء اليك . ولكن قل لي اولا ، لماذا تريد أن تتحدث معي بالذات ؟ وانا الشخص الغريب عنك تماما .
— كلا ، نحن نعرف بعضنا . — قال صاحبنا . — لعلك لاتتذكر ، ولكننا نعرف بعضنا ... قبيل ثلاث ليال كنا معا في احد المطاعم . أحقاً لاتتذكر ؟ كانت طاولتانا متجاورتين تماما .
لمعت الذكرى في ذهني كالبرق . حقاً ! نعم ! حقاً ! غير انني لم أعره اي انتباه اذ ذاك .
سألني بأمل :
— هل تذكرت ؟
بالطبع ... اذ ذاك ايضاً كان هذا الجهاز معلقاً باذنك .
فاومأ قائلا :
— أجـــل ، كنت اعلقه . وانت فكرت بينك وبين نفسك : « لن يكون ذلك ، في الواقع ، قبيحاً الى هذه الدرجة ... فاذا ما اضطررت انا الآخر فان ذلك لن يكون الا مميتاً ... انت لاتسمع جيداً بالاذن اليمنى ، أليس كذلك ؟
فصحت مذهولا :
— أجل . اذكر انني فكرت بذلك فعلا ...
وهل تذكر الجماعة التي كانت حول الطاولة المجاورة ؟
— انني اذكر جيدا جدا . كانت مؤلفة من امرأتين صبيتين وبضعة شباب من عمرهما تقريبا . احدى المرأتين كانت صغيرة القامة ، لطيفة جدا ، والى جانب ذلك كانت مغرمة بزوجها حتى اذنيها ، اذ كانت طوال الوقت تنظر اليه بهيام . لكن زوجها لم يكن يعيرها اي انتباه . بل

كانت نظراته الفـــاتقة تتوقف ، من حين لآخر على المرأة الاخرى التي كانت تزيد زوجته اناقة ، وتتمتع بشفتين غضتين استفزازيتين . وعندما اختمروا لم تعد سرا لا بالنسبة لي ولا بالنسبة للآخرين. على طاولته ، المشاعر التي كان يكنها لصديقة زوجته . وكأن الزوجة وحدها لم تكن ترتاب بشيء، بل كانت مرحة طوال الوقت ، وتزداد نظراتها هياما بزوجها الجميل .

— اذكر ! — واومأت برأسي .

— لقد كنت على حق ... لم تكن الزوجة ترتاب بشيء ، اذ كنت التقط افكارها .

اقشعر بدني لهول هذه الفكرة . يلتقط الافكار ؟ وقد بدا لي ذلك ، في هذه اللحظة ، أشد طرافة وهولا .

— وهل كان هنالك شيء بين الاثنين ؟

— بالطبع ... لقد كانا يخدعانها بحضورها . وقد ادركت ان علاقتهما ادرا كا صائباً... اذ كنت تترصدهما بصورة لاتقل جودة عني ، وحتى اكثر الحاحا مني ، بمزيد من الشغف الدراسي. ولما تأكدت تماما ، فكرت هكذا : « مسكينة هذه المرأة ، من حسن حظها انها لاتستطيع النفاذ خلف جمجمتيهما . والا كيف ستلسع ، كيف ستذبل كما تذبل الزهرة المقطوعة . » أهكذا فكرت؟

كنت أتتبع ضيفي بتوتر كبير . واختفت شكوكي ، وغدوت مقتنعا بان هذا الرجـــل الغريب ذا الوجه الدقيق والذكي هو حقا مخترع هذا الجهاز الرهيب . تطلع صوبي مفكرا ،وكأنه كان يتذكر شيئاً ما ، ثم قال دون رغبة :

— لقد فكرت انت هذه الامسية ، هكذا : « من حسن حظها انها لاتستطيع النفاذ خلف جمجمتيهما ! » ... من حسن حظها انها لاتستطيع ... هذا مافكرت به أنا ايضاً بالضبط، من حسن حظها انها لاتستطيع . هذه الفكرة ساقتني اليك الآن .

قلت له مهتاجا : — ولكن حدثني من البداية .

فغرق صاحبنا بتفكير عميق ، وغطت جبهته الملساء شبكة التجاعيد الدقيقة .

— ليس بودي أن احدثك شيئاً عن نفسي . — قال بشيء من السذاجة . — ليس بودي ، حتى ان اقول لك اسمي ... فلا ينبغي عليك ان تهتم بحيـــاتي او بمصيري ... ولا حتى بالتفاصيل حول الاختراع .

— اذا لماذا جئت الى هنا ؟ — سألته بشيء من العصبية .

فقال باعتدال :

— سوف تفهم . سأقول لك فقط ، انني عملت في سبيل هذا الاختراع قرابة عشرة اعوام . وقد احرزت النجاح الجدي الاول قبيل عامين ... لكن النجاح لم يكن كاملا ... اذ كان على الشخص الحامل لهذا الجهاز ان يضع على رأسه اداة ثقيلة ومزعجة ... فكان يجب أن اغير

عامان آخران ، لكي أصل بهذا الجهاز الى هذا الكمال ، وبما كنت لاتؤمن بالعجائب التكنيكية ، لكن ما توصلت اليه يعتبر عجيبة تكنيكية حقة .

واضفت مذهولا : — وللاسف ليست تكنيكية وحسب .

فصاح بحرارة : ـ انت على حق .. ولكن في البداية لم اكن انا شخصياً ادرك ان القضية ليست تكنيكية وحسب . فما فكرت بناحيتها الاخلاقية .. ومع ذلك سمعت من الساعة الفكرة البشرية الاولى وقد حولها الجهاز الى صوت ، اعترف لك بانني شعرت بهزة اخلاقية حقيقية . وعندئذ تساءلت لاول مرة : ايحق لي ان افعل ذلك ؟ أَلدي حق انساني يخولني النفاذ الى افكار الناس دون اجازة منهم ؟ انني ادرك كم هو بربري ان يستشر الانسان عمل الآخرين ... فماذا يعني ان تستشر افكارهم ؟

تأثأ ضيفي وتوقف لحظة عن الكلام . وقد اكفهر وجهه ، وظهر ألم مر في نظرته .

ـ ان القضية تكمن في ان الشخص الذي اجريت معه تجاربي كان هرما جدا ومريضا ، ولم تكن تدور في ذهنه سوى بضع افكار ما كانت تكشف لي شيئا من العالم . وكان اختراعي يخيل الي امرأ عظيما حتى انه كبت جميع الاصوات الاخرى . ومن اجل راحتي النفسية اسرعت لاختلاق نظرية تبرر عملي .

هززت رأسي قائلا :

ـ هكذا الحال دوما . فان نصف النظريات في العالم مختلفة من اجل ان تبرر شيئاما.

اومأ الضيف برأسه وقال :

ـ يبدو انك على حق . فلقد ادركت بنفسي اية لوحة رقيقة اطأ ، بعد ان اتقنت الجهاز. وينبغي ان اقول لك مسبقا ، انني احيط الاختراع بسرية تامة . وانت الشخص الاول الذي يحاط علما به . وقد تصنعت الطرش من اجل ان استعمله ، لكن هذه اللعبة لم ترق لي البتة . ومع ذلك كان لامحال من استخدامها . وفي احــد الايام اخبرت اقربائي بانني طلبت جهازا للسمع من الخــارج ، وبذلك تغلبت على جميع العقبات من هذه الناحية . على ان المرارة بدأت منذ القيام بالتجارب .

اشعل الضيف سيجارة ، وغطت جبهته شبكة من التجاعيد المستطيلة .

ـ في هذه الاثناء كنت اقوم بتجاربي على خادمتي . وكانت هذه فتاة صغيرة في الخامسة او السادسة عشرة من العمر ، كسولة جامدة ، ما كنت اعيرها اي انتباه تقريبا . كانت ترتدي ثيابا قروية ، وكانت نحيلة جدا ، تسير في مختبري وكأنها نائمة . وكانت هذه اول فكرة التقطها منها : « نعسانة » ! ومضت مدة طويلة وانا التقط بجهازي ، وما كنت اسمع سوى « نعسانة »! حتى

انني غضبت : الا يمكن ان تظهر خلف هذه الجمجمة القاسية الصغيرة فكرة بشرية اخرى ؟ . .
ام ان جهازي معطل ، لايستطيع التقاط كل شيء ؟

كلا ، لم يكن الجهاز معطلا . . اذ سرعان ماظهرت فكرة جديدة : « انني جائعة » . . وفجأة سالت الافكار سريعة ، وكأنها اصيبت بالحمى . . — عمتي من جديد خبأت الطعام — هكذا كانت تفكر — فاذا آكل مساء ؟ اذا كانت ابقت قليلا من الخبز ، فحسن ، واذا لم تبق؟ عندي ثلاث قطع سكر ، مخبأة تحت الفراش ، لعلها لم تجدها !...وربما وجدتها ، فهي غالباًماتفتش تحت الفراش . انها تفتش في كل مكان خوفاً من ان اكون سرقت شيئا . . وسبق انوجدت كل رسائلي وقرأتها . انني جائعة . اوه ، كم انا جائعة ونعسانة . . أأقول لعمي ان يتركني اليوم؟ كرماً فهو طيب جدا ، سأقول له :

وتابع الضيف حديثه بمرارة :

— هل بوسعك ان تتصور دهشتي ؟ انت لاتعرف زوجتي ، ويصعب على ان اصفها لك . . انها لازالت صبية ، في الخامسة والثلاثين من العمر ، انيقة ، وتعتبر نفسها مثقفة . . ترتاد نواديكم وتتحدث عن الفن ، ويحييها الناس باحترام . . وبعد كل ذلك تخبىء الطعام عن الخادمة ؟ كلا ، هذا مستحيل !.. ولكن كيف . . مستحيل . ان الانسان يمكن ان يكذب على الآخرين ، غيرانه لايكذب على نفسه .

نزعت الساعة وتطلعت نحو الفتاة ، التي كانت تكبو على الكرسي ، حيث تركتها ، وسألتها بغتة :

— هل انت جائعة ياماريكا ؟

ارتعشت الفتاة ونظرت الي وجلة :

— لست جائعة . .

— لاتكذبي علي ؟

— لااكذب ! — وارتعشت — ولماذا اكذب عليك !

— لعل عمتك تقفل على الطعام ؟

— كلا ، ولماذا تقفل عليه ، فهي لم تقفله ابدا . .

وضعت الساعة من جديد . وقلت بهدوء :

— قولي الحقيقة ، هيا ، قولي !

— قلت ! اجابت الفتاة بلهجة الرجاء ، ولكنني كنت اسمع افكارها مذهولا : «اخشى ان اقول له، اخشى كثيراً ».

نزعت الساعة مجــدداً وغرقت في بحر افكاري . لم يكن ثمة مجال لادنى شك في ان

ما كانت تفكر به الفتاة ، هو الحقيقة عينها . ناولتهـــا بعض النقود واوصيتها بالذهاب الى محل الحلويات والا تقول شيئا لزوجتي . تناولت ماريكا النقود وجلة ، وظهر في عينيهـا شيء يشبه الضباب من الدموع . ولما داعبتها برأسها عند خروجها كادت تنفجر باكية .

كنت مضطربا بحيث انني نسيت فورا اي يوم هام كان بالنسبة الي هذا اليوم . فبعد هـذا القدر من السنين في العمل احرزت نجاحاً تامـاً ، فـكان ينبغي ان ابتهج بذلك ، ولكنني كنت احس بان قلبي يتقطع . ولم اعد ادرى اي الامرين هيمن علي ، اهو مصير الفتاة التعيسة ، التي كانت تحيا امامي ، ام هو الاكتشاف الرهيب حول زوجتي ، التي كنت اعرفها منذ اربعة عشر عاماً.

تنهد ضيفي بثقل وكأنه نسي ، لحظة ، انـــه ليس وحيدا في الغرفة . رفع رأسه فجأة وتطلع الي وتابع :

— بوسعك ان تتصور باي شعور آويت الى البيت . هيهات ان تتصور هذا الشعور . كنت قد عشت مع زوجتي عقدا ونصف من الزمن ، وكان علي الان لاول مرة ان انظر في باطنها بام عيني . فما عساني كنت سأجد هناك ؟ اما كان عليه ان يهدم حياتنا ؟ وعلى وجه العموم ـ هل كان يحق لي ان افعل ذلك ؟... من الجريمة ان تفتح رسالة الغير ، فكيف بنا بنفس الآخرين!.. مشيت طويلا ، وحيدا في الشارع البارد الرطب قبل ان ادخل البيت . ولما فتحت الباب كان قلبي ينبض بقوة وكأن امراً عظيما سوف يحدث .. كانت زوجتي مضطجعة على الاريكة ، تقرأ كتابا ما. حييت بنصف صوت وسألتها عما اذا كان هنالك شيء جديد .

— لا جديد ! اجابت دون ان ترفع عينيها عن كتابها .

فسألتها مجدداً :

— ماذا تقولين ؟

اجابت بلهجة الضيق :

— لاجديد .

— لقد طرشت تماما . — قلت متنهدا . — ولكنني حصلت على هذا من الخارج . اخرجت الجهاز ووضعت السماعة باصابع مرتجفة قليلا . فنظرت الي بشيء من الدهشة وتمتمت:

— هذا ما كان ينقصك .

على انني سمعت بوضوح تتمة فكرتها : « ستشبه المتقاعد تماما » . وقلت مهادنا :

— ليس بشعا الى هذه الدرجة . وحتى انه يلائمني ...

— بقي ان تمشي على عكازتين ! — هكذا كان الجواب في السماعة ، رغم انها اكتفت برفع منكبيها .

جلست امام المكتب وتناولت كتابا . وكانت زوجتي لازالت تقرأ . وكان نص الكتاب

يرن في اذني بوضوح ، ثم اخذ الصوت يصبح مترددا . وفجأة ظهرت فكرة لها : « أأطلب منه نقودا الان ؟ .. كلا الافضل بعد العشاء ، عندئذ لا يكون عصبيا .» وبعد ذلك من جديد نص من الكتاب ، ومن جديد فكرة لها : « منذ ان انشغل بهذه التجارب الحمقاء غدا بخيلا تماما ... عليه الا يعتقد بانه يجب ان انتزع منه كل ليفا كما لو كنت قرينة فقيرة ؟ ان هذه السدادة لأذنـه كلفت بالتأكيد راتبا شهريا كاملا ، ولكن ما دام من اجل راحته فهو ليس بخيلا ابداً .

ثم وصلني صوتها :

ـــ أحقا لاتسمع الى هذه الدرجة ؟

اجبت : ـــ لا اسمع خاصة في الاونة الاخيرة .

« يامسكين ، حقا لقد هرم فجأة » ـــ فكرت واغلقت الكتاب .

قاطعت ضيفي قائلا :

ـــ انت تبدو حسن المظهر .

ابتسم ، لكن ابتسامته لم تكن مرحة قط :

ــ بنظرك لعله كذلك ، ولكن ليس بنظر امرأة صبية . وبالمناسبة اذكر انني ذهبت واياها مرة ، الى احد الاندية ، ورغم انها رجتني الا اضع الجهاز ، لم استطع ان اتمالك نفسي فوضعته. وادركت انها تخجل من رفقتي لها . لم اكن محدثاً كأصدقائها ولا خفيف الروح حتى ولا شابا مثلهم ... وبما اني كنت منهمكا في التقاط الافكار ، كنت ابدو شارد الفكر ، وقد التقطت لهـا الفكر التالية : «انه يخجلني ... لاينبغي ان اصطحبه الى هنا بعد اليوم ، انه ليس لمثل هذا المجتمع» .

قلت لمحدثي :

ـــ والخادمة ؟

هز الضيف رأسه وقال :

ــ منذ الامسية الاولى فاتحتها بهذه المسألة . قلت لها ، ان ماريكا تبدو لي ، في الآونة الاخيرة باهتة ونحيلة ، لعلها لاتشبع ؟ فتطلعت الي غاضبة ، لكنهـــا اجابت دون اكتراث : أهذا هو عملي ان ارى ماتأكل ومالا تأكل ؟ «غيران افكارها كانت مختلفة تماماً : لعلك تريد براتب البروفيسور اقامة المآدب للخدام» ؟

فبادرته بالسؤال :

ــ يعني أنت بروفيسور ؟

ـــ نعم .

فبادرت الى القول عابساً :

ــ من الواضح يا ايها البروفيسور انك لم تقع على امرأة تليق بك .

الفى علي ضيفي نظرة طويلة وقال دونما رغبة :

– انها في الواقع ليست سيئة الى هذه الدرجة ، فان أي مراقب خارجي يمكن ان يقول لك ، انها زوجة طيبة جداً ، انها حاذقة في ترتيب المنزل بحيث انه يبدو جميلا ومريحاً للنفس تطبخ جيداً ، وتعتني بملابسي عناية كبيرة ... لاتزعجني ، لاتفتعل الشجار ، لاترهبني ولا تؤنبني عندما اتأخر ، وحتى انها مخلصة لي ... وقد علمت انها عشقت بضع مرات خلال السنين الاخيرة ، ولم تبق في نفسها سوى ذكريات انسانية طيبة على انها لم تخني جسديا ... فعلى الرغم من ضآلتها الروحية ، وعلى الرغم من برودتها ، وبالتالي على الرغم من انانيتها ، لاتزال في نفسها شعور الاحترام والوقار ... لقد اصغيت الى افكارها مدة طويلة ، وبلغت اعماق نفسها ... ماكانت تحبني ... بل كانت احيانا تشفق لحالي ، واحياناً تنظر اليّ بطيبة ، على انني كنت اثير لديها ، عادة ، الضيق الممزوج حتى بالقرف الجسدي ، الذي ظهر ، كما يبدو ، في السنوات الاخيرة ... فكنت غريباً بالنسبة اليها ... فادركت كم كنت مخدوعاً بشكل رهيب ، كم كنت وحيداً في هذا العالم ، كم اشعر بالبرودة والفراغ من حولي .. ادركت ان الذنب ليس ذنبها وحدها ، بل ذنبي ايضاً ، بماي وطرشي الرهيبين ، اللذين يميزان ، على مايظهر ، جميع الازواج تقريباً .

قلت بجفاف :

– عبثاً تعذرها . يخيل الي انها انسان فارغ وسيء . ومااعتبرته انت احتراماً ، ماهو في الواقع الا تظاهر مبتذل .

تنهد وقال :

– لاادري . اسمع ، مع ذلك ، لأن اكون موضوعيا ... لأن اكون عادلا ... فلو كان بوسعك ان تسمع مثلي لأدركت ان العالم ليس هذا الذي تتصوره . ان النفس البشرية تتبدل ببطء اكبر بكثير من الظروف الخارجية ... لو كان بوسعك ان تسمع مثلي لكونت صورة تختلف قليلا ، عن الخير والسوء ... لكانت تبخرت لديك اوهام عديدة هي في الواقع ، مفيدة ، خاصة للكاتب ... فالانسان لايستطيع تعليم الناس على الخير ان لم يكن هو نفسه مؤمناً بها ايمانا راسخاً ، ان لم يكن على يقين بان الخير قوي وانه يحيا في كل مكان من حولنا .

قاطعته على حين غرة قائلا :

– هل لديك اصدقاء ؟

اجاب :

– توقعت ان تسألني عن ذلك ! أجل لدي اصدقاء ... لدي صديق طبيب منذ سنوات الشباب المبكرة . وغالباً ماالتقي به ونتحدث بصراحة . ولكن بعد ان وضعت هذا الجهاز في

اذني ، ادركت اننا ماكنا نتحدث صراحة ، ولا كنا نعرف وجوهنا الحقيقيـــة .. وكان الوحيد الذي حدثته عن طابع دراستي ، دون ان اقول له ، انني احرزت نجاحات حاسمة . في الآونة الاخـــيرة المح له انني حققت تقدماً كبيرا في عملي . فنظر اليَّ بطرف عينه وتمتم بحــركة مصطنعة .

– آه ؟ برافو .

لكن افكاره كانت مختلفة تماماً : « هذا الرجل المجنون يؤمن حقاً بانه يعمل شيئاً » .

وتابعت أقول :

– اعتقد انني سأبلغ شيئاً عما قريب .

« اعتقد ، اعتقد ! – كان يفكر . – لن تذهب بعيـــداً ... من الافضل لك ، يا عزيزي ان تدبر شؤون زوجتك ، إني ارثي لحالك وانا ارى هذه القرون على رأسك » .

اعترف بان افكاره هذه اغضبتني ، وعزمت على معاقبته . فقلت بهدوء :

– آنا لا تخونني .

تطلع الي مذهولاً ، مشدوهاً ، لدرجة انني ما تمالكت نفسي من الضحك .

– ومن قال لك انها تخونك ؟

– انت الذي قلت ...

– لم اقل شيئاً ! – تمتم والذعر بارز في عينيه .

سألته باهتمام :

– وهل انت مريض ؟ فلقدقلت لي توا ، انك ترثي لحالي وانت ترى القرون على رأسي ...

فأخذ يفكر وهو في غاية الاضطراب : « يا للمصيبة » ! وكيف استطعت ان اقول ذلك ؟ يظهر انني جهرت بافكاري . يا للشيطان ، ماذا جرى لي ؟ »

تابعت قائلا :

– اسمع يا اخي . لا تظن في نهاية المطاف انني غبي الى الدرجة التي ابدو بهـــا . انني متأكد من ان آنا لا تخونني ، مثلما انا متأكد من انك تعتبر ان في مــا من الجنون .

– من ؟ انا ؟ سخافة . وكيف كان ذلك ؟

وتابعت انا دونما رحمة :

ينبغي على الاصدقاء ان يكونوا شرفاء حيال بعضهم البعض . ينبغي ان يكونوا اكثر صراحة واخلاصاً ... والا ليس هم اصدقاء ؟

– هكذا ، بالطبع . ولكنني كنت دوماً مخلصاً معك .

أمعن ضيفي بالتفكير لحظة ، ثم تابع قائلا :

— على انه لم يكن مخلصاً .. يبدو انه ما كان يدرك كم هو بعيد عن الاخلاص الانساني الحق ... وكان ذلــك يذهلني لدى اناس آخرين عديدين ، اذ كانوا يكذبون ، دون ان يدركوا انهم يكذبون .. وكانوا على استعداد لابداء استيائهم لدى كل كذب يبدر عن الغير ، وما كانوا يدركون انهم يستعملون الكذب في حياتهم اليومية بكثرة يعادل مقدارها ما يتناولون من الطعام والشراب مثلا ... كانوا يكذبون بخفة ، تجعلني احياناً اغرق في ابعد درجات التشاؤم .. كانوا يكذبون في حياتهم العادية — بصفاقة وبرود ، وحتى دون وعي ، — كانوا يكذبون على اصدقائهم ونسائهم واولادهم — وغالباً دونما حاجة ، ولأتفه الامور ... لكن الاصعب من ذلك هو عندما يكذبون بصدد عملهم ، ومشاريعهم ومثلهم العليا ... ولقد ادركت ان الكذب بالنسبة لبعض الناس اسلوب في الحياة — فلا يمكن تصور حياتهم ونشاطهم دون الكذب ..

فقلت متنهداً :

— هذه حقائق قديمة !

أجاب بحيوية :

— صحيح ! ولكن الامر يختلف بين ان تعيه كحكمة للحيــاة ، وبين ان تستطيع رؤيته ومراقبته بصورة مباشرة ... وكان أشد مايذهلني بعد الكذب ، الغباء ... ومن الفن بمكان ان تخفي غباءك في حياتنا اليوم ... ولقد الفن هذا الفن الى درجة انك تحتاج احيـاناً ان تجالس مع شخص لكي تستطيع ان تدرك انه غاية في الغباء ... لقد كان جهازي ينزع في لحظة واحدة ، ودون شفقة ابدع الاقنعة ، فكان يبرز امامي ، في الحال ، الوجه الحقيقي للانسان — عقله الحقيقي ، طابعه الحقيقي ، مشاعره الحقيقية .. ولقد ذهلت من مقــدار التصورات الخاطئة في مخيلتي عن الناس ... فرأيت أشد المشاعر بدائية ، واشد المفاهيم اقطاعية وابشع الانانية لدى الناس ، الذين كنت اعتقداتهم يخبؤون جوهراً انسانياً رفيعاً .. وبالعكس رأيت النفس الانسانية الحقة حيث لم يكن المرء يتوقع ... وكان ذلك يذهلني في بداية الامر. لكنني اعتدت فيما بعد .

فأضفت :

— لكنك كنت تغدو يوما عن يوم أشد حزناً وغيظاً .

فهتف بحرارة :

— كلا ، كلا ! لاتفكر اني غدوت اكره الناس ... لقد ادركت الحقيقة جيداً .. أن النفس البشرية المطورة في الشر تنكمش ، تختنق ، تغدو فظة ، أو انها تأخذ بالانحــلال

بسرعة .. وهذا ليس وسطها الطبيعي ... لكن النفس البشرية المطمورة في الخير ، تزدهر ، تتجمل ، وتأخذ بالتخلص مما علق بها من الادران ، هذه الادران التي تخيل اليك وكأنهـا جوهرها . انني أؤمن ايماناً عميقاً بأننا عندما نبني المجتمع الجديد ، سيكون فيه الناس مختلفين تماماً - سيكونون اناسا جددا حقا .

قلت متأثراً :

- انني سعيد جدا ! سعيد لكونك انت بالذات تفكر هكذا .

- قلت انني اؤمن بالخير .. وان تعرف الشر ليس معناه ان تصبح شريراً . هـذا معناه ان ترى بوضوح اكبر الطريق الحقيقي للخير .

هتفت متأثرا :

- لقد قمت باختراع عجيب .

ابتسم بحزن وقال :

- كلا ، هكذا يخيل اليك فقط . لقد قررت تحطيم اختراعي . وانني عاقد العزم على ذلك ولا يستطيع احد ثنيي عن قراري .

قلت مذهولا :

- ستحطمه ؟

- اجل ... وربما هذه الآلة ؟

فصحت بحرارة :

- لاينبغي ان تفعل ذلك . الا تدرك انك تحطم سلاحاً هائلا ...

- بالضبط ! سلاح رهيب حقا .

فقلت بحماس :

- ولكنه سلاح في النضال من أجل الحقيقة . فاذا مـا انكشف الكذب ، وازيح القناع عن الغباء ، فمن ذا الذي سيربح من ذلك ؟ اما فكرت بذلك ؟

قال باعتدال :

- الأصح انك انت لم تفكر . اما أنا فقد فكرت بصورة جيدة جدا ، انت تعلم انه قبيل بضعة اعوام تمت السيطرة على واحد من اعظم اسرار الطبيعة - الطاقة الذرية .. ولماذا ؟ فهل اصبحت الانسانية اسعد ، نتيجة ذلك ؟ لو ان هذا الاكتشاف حصل في عصر غيرهذاالعصر لكان عاد على البشرية بالرخاء الحقيقي ... اما الآن ... لا ادري - ربما اودى بها ... وهل بامكاني ان اعلم بأية ايد يمكن ان يقع اختراعي ؟ ...

... لقد قلت انت ان هذا الجهاز البريء سلاح رهيب ضد الكذب والغباء . ولكنه ربما وقع في ايدي الكذب والغباء ... الن تصبح هذه الايدي من جراء ذلك أقوى بعشرات المرات ؟

صحت مرتبكا وقلت يائسا :

— اذن لماذا جئت الي ؟ طلبا للنصح ام لأي شيء ؟

اومأ برأسه وقال :

— لاطلباً للنصيحة ! لاحاجة لي الى النصائح ، فلقد فكرت بنفسي جيداً . ربما قدرت الامور تقديراً سيئاً ، هذه مسألة أخرى ... ولكنني اتساءل : هل قدر علماء الذرة الامور تقديراً حسنا ؟ ربما ان كل شيء سيلقى على ضميري فقط،فأنا وحدي املك حق اتخاذ القرار... واقد اتخذته ... ولكن برز لدي في الايام الأخيرة شك رهيب ... أجل ، رهيب فعلاً ...

وصمت ضيفي ، ولمعت نار غريبة في عينيه القاتمتين .

فتمتمت : — شك ؟

— أجل ، شك . فكرت في نفسي — الست مجنوناً ؟ لعل كل ذلك خيال مريض لشخص مجنون ؟

وفجأة شعرت بتيار بارد يعبر الغرفة . ولماذا كانت عينا صاحبنا تلمع بهذه الغرابة ؟ أجل ، لعله مجنون حقا ؟ وقد خيل الي الليل وانا انظر من زجاج النافذة اشد سواداً وسكونا . سألته منكمش الحنجرة :

— وكيف استطيع مساعدتك ؟

— المسألة بسيطة جداً — سأعطيك الجهاز لاختباره ... وستكون الشخص الوحيد ، فيما عداي ، الذي سيستعمله ... فاذا كان الجهاز حقيقياً ، فينبغي عليك ان تصغي الى افكاري .

حل صمت قصير خانق ، شعرت اثناءه كيف ان قلبي ينبض في حنجرتي .

قلت بصوت منخفض :

— حسنا !

دس يده في جيب معطفه الاسود وأخرج الجهاز . شعرت بان اصابع يديه الدقيقتين ترتجف !

قال بانفعال غير خاف :

— هذا كل شيء ! لقد كتبت هنا بضعة اسطر ... سأقرؤها لك — فكرياً بالطبع — وبعد ذلك ستتمكن من مقارنة ما اذا كنت التقط بصورة صحيحة .

اومأت قائلا :

— حسناً .

— هاك ! اليك السماعة .

تناولت الجهاز الصغير ووضعت الزر الصغير الاسود في أذني . في بداية الأمر كنت اسمع وشوشة ناعمة ملحنة ، وبعد ذلك رن صوت واضح الى درجة انني ارتعشت .

— اتسمعني ؟ اجبني شفهياً — اتسمعني ؟

اجبت مذهولاً :

— اسمعك .

انحنى ضيفي فوق الورقة البيضاء التي فتحها للتو .

وتابع الصوت :

— اسمع مايلي : جئتك كانسان شريف الى انسان شريف . ان عليك ان تأخذ على نفسك عهداً بألا تحدث احداً عن لقائنا . اليوم هو الثاني والعشرون من آذار (مارس) سنة ١٩٤٧ . وبعد عشرة اعوام يفقد التزامك مفعوله . وعندها سيكون بامكانك ان تتحدث عن اختراعي بحرية . وسأعتمد عليك . اذ ينبغي ان يعلم الناس ماتوصلت اليه ولماذا لم اهبه لهم .

هذا كل شيء .

كان الصوت يرن رخيماً وعذباً بصورة غير عادية .

— وأنت ؟ اين ستكون عندئذ ؟

فقال الصوت :

— انزع السماعة . ارجوك انزع السماعة فوراً .

خضعت للأمر اوتوماتيكيا ، وتطلعت الى ضيفي مذهولا . وكان متكئاً على الكنبة ، ووجهه مشرقاً ، ونظره مفعماً بفرح الظفر الصامت .

قال بصوت متبدل :

— لقد سمعت . اليك الورقة — هل كان نفس الشيء ؟

كانت تكفيني نظرة واحدة لكي افهم .

قال الضيف : — سأنام هذه الليلة مطمئناً تماماً . مطمئناً مرتاح الضمير .

— واذا ماأفشيت سرك ؟

قال والابتسامة الخفيفة على وجهه :

— لن تفعل ذلك . أنا اعرفك ، ولكن لو حدث وفعلت ذلك ، فان الأمر سواء بسواء . فهذه الليلة سيختفي الاختراع ولن يستطيع احد استعادته .

— ولكنه سيبقى لديك ، في عقلك ... وبعـــد عشرة أعوام ، ستقدمـه للبشرية من جديد ، اليس كذلك ؟

قال مازحاً :

— ربما . وربما لا اكون على قيد الحياة ... والسنون ستبين ذلك .

تعجبت للتبدل الذي طرأ عـــلى ضيفي ، للحيوية والنشاط اللذين تملكاه ، وكأن عبئاً سيئاً سقط عن ظهره . وقد تسرب مزاجه ، بطرق غير مرئية ، الي انا الآخر ، فنسيت كل افكاري السيئة .

قال — ينبغي ان نكون بشراً . ينبغي ان نؤمن بالمستقبل .

قلت — يجب .

نهض وتنفس الصعداء . فسألته مضطرباً :

— اتتأهب للانصراف؟

قال باسماً :

— لقد حان الوقت لان تنام .

فاجبت — اذا استطعت .

قال — ان الامر ليس رهيباً الى هذه الدرجة . فلقـــد قضيت انا نفسي ليالي ساهرة كثيرة . ليس الامر رهيباً الى هذه الدرجة .

— ربما كان مفيداً .

ابتسم وقال : — اجل ، بالتأكيد .

بعد ذلك انصرف ضيفي . وعند الباب مد الي يداً دقيقة طرية ، وشد عـــلى يدي بقوة . وقال :

— كنت انا اول من سمع هذه الاصوات العجيبة . وانت آخر من سمعها . ليلا هادئاً .

لما عدت الى غرفتي نظرت ، دون ارادتي ، من النافذة . وكان هو يجتاز الشارع ، نحيل القامة ، اسود ، عالي الرأس ، وكأن الامل ينبعث من خطواته .

★ ★ ★

لقد مضت عشرة أعوام تماما على ذلك اللقاء . ومارأيت ضيفي الغريب قط ، وماسمعت شيئاً عنه ابدا . وهذه الليلة ، بعد ان كتبت آخر صفحة من هذه الذكرى العجيبة ، نظرت مجدداً من النافذة الكبيرة ، وخيل الي ، لحظة ، انني ارى قامته الطويلة النحيلة الملفعة بالسواد ، وهل عساني اراه مجدداً ؟ وهل عساه يقرع بابي من جديد ؟ أم انه في عالم الاموات ؟ ان احداً لايستطيع الاجابة على هذا السؤال . ولعله يرقد في مكان ما تحت التربة السوداء ، أم لعله يجلس في قاعة الانتظار في احدى محطات القطار مع جهازه الاسود ، وهو يصغي شارداً الى افكار الناس السوداء والبهيجة .

ان احداً لا يستطيع تأكيد ذلك .

عدد « المعرفة » الممتاز

عن المسرح

يسر تحرير المعرفة ان يعلم اصدقاء المجلة وقراءها انها استعدت لاصدار عدد ممتاز عن المسرح ، على النطاق السوري ، والعربي ، والعالمي ، ومن جميع جوانب الموضوع تأليفاً واخراجا وتمثيلا وتزيينا .

يشترك في تحرير هذا الجزء الخاص من (المعرفة) بالتأليف والترجمة ، وباستفتاء الآراء ، فريق من الادباء والفنانين والنقاد والباحثين . يقدر عدد صفحات العدد الخاص باكثر من ٣٥٠ صفحة ، ويباع بنفس الثمن المعتاد في جميع الاسواق العربية .

يرجى من المكتبات العربية ومراكز التوزيع ان تراسل الادارة لحجز نسخها سلفاً .

الكتاب والموضوعات

- مذاهب فنية جديدة

أدولف آبيا .. والاخراج المسرحي
محمد الطيب الحسني

- المنطقية الوضعية والفن

سامي خوطبيل

الفنون

مذاهب فنية جديدة

أدولف آبيا والإخراج المسرحي

الممثل أولاً.. والممثل ثانياً وثالثاً.. وأخيراً بقية العناصر

بقلم محمد الطيب الحسني

ان اخراجنا المسرحي الحديث يستعبده فن الرسم — رسم الديكور — الذي يهدف الى ايهامنا بالواقع . ولكن هذا الايهام هو نفسه ايهام، لان الوجود المادي للممثل يناقضه ، فوهم الديكور المرسوم على قطع قماش افقية يتعارض مع الوهم الذي يحدثه وجود الجسم المادي للممثل لذاته وحيويته .

« ادولف آبيا »

لو اننا نظرنا الى أي مشهد من المشاهد في اية مسرحية من المسرحيات، لوجدنا المشهد يتكون من حقيقتين ـ الحقيقة الاولى : هي الممثل الذي يتحرك ويتنفس وينفعل ويذهب ويجيء ويركض ويتوقف ويصمت ويتكلم ويصرخ هذا الممثل شعلة من الحيوية ، وهو حقيقة مادية .. ولكنها حقيقة تنقلنا الى عالم متوهم ، او حقيقة تصنع خيالا او وهما .

والحقيقة الثانية : هي الديكور الذي يقف امامه الممثل ، فهذا الديكور هو حقيقة فنية مادية اخرى تنقلنا الى هذا العالم المتوهم، ولكنها حقيقة تتعارض مع الحقيقة الاولى ، فالحقيقة الاولى متحركة وهذه ساكنة ، والحقيقة الاولى حيه وهذه جامدة ساكنة .

وقد يمكننا ان ننقل الى المسرح اشجاراً حقيقية ، ونقيم بيوتاً حقيقية، ولكن ما من احد يريد فعلا ان يرى بيوتاً او اشجاراً حقيقية على المسرح .. ومن ثم فاننا نقلد الحقيقة ، وتقليد الحقيقة يقتضي ان تكون الحقيقة المقلدة قريبة بقدر المستطاع من الحقيقة الطبيعية ، ولما كان هذا النوع من التقليد يكلف كثيرا ، فان مخرجينا يحاولون الاستعاضة عن ذلك بالرسم ، بأن لا ينقلوا الحقيقة الطبيعية ، وان يقلدوها كما هي في الحياة ، ولكن بان يرسموها ، وكان لا كتشافهم هذا اثر كبير على فن الاخراج المسرحي ، لان المخرجين المحدثين اسرفوا في رسم الحقيقة ، واستسهلوها .. ولكن .. فن الرسوم يقوم على القماش المسطح .. وليس المسرح قماشا مسطحاً ، ولكنه حجرة رباعية الجدران ، وجدارها الرابع مفتوح على الجمهور ، فكأن للمسرح ثلاثة ابعاد وليس بعداً واحدا كقماش الرسم ، فكيف يمكن ان يملأ الفن الذي ليس له الا بعد واحد ـ ان يملأ الثلاثة ابعاد التي للمسرح ؟

هنا وجد المخرجون المحدثون الحل في تقطيع القماش المسطح ووضع القطع الى جوار بعضها البعض بزوايا بحيث تصنع الديكور ذا الابعاد المتخيلة ، فلو كان المشهد مشهداً طبيعياً مثلا، فلا بأس من ان يكون اعلى الديكور او القبة قمة غابة ، وعلى اليمين والشمال بضعة اشجار ، وفي الخلف الأفق والسماء ، ثم نترك ارضية المسرح كما هي ارضية مسرح !! وكان من المستحيل رسم الارضية لان المقصود بالايهام هو صورة المسرح من امام ، او الصورة الرأسيـــة ، فكأن فن الرسم الذي كان من المفروض ان يصور كل شيء قد فشل في تصوير الارضية من اول الامر ، لانه فشل في اقامة علاقة بين المسرح وارضيته ، او بين رأسية المسرح وافقيته .

واذن فستحيل طلاء الارضية ورسمها . ولكن الارضية هي المساحة التي يتحرك عليها الممثل ! ولقد تناسى المخرجون المحدثون الممثل ! ارادوا ان يخرجوا (هاملت) بدون(هاملت) او انهم تخيلوا المسرحيـة اولا كديكور ، ولكنهم لم يتخيلوها كممثلين يتحركون ويروحون ويجيئون . ولما كان لابد لهم ان يفسحوا مجالا للممثل ، فان عليهم ان يقللوا من الديكور بمعنى ان عليهم ان يختاروا بين الممثـل وبين الديكور ، او ان يصالحوا الاثنين ، ويستخدموهما في نوع من الموافقة ، ومع ذلك ظل العداء التقليدي بين الاتجاهين ، بين الممثل والديكور على المسرح .

الممثل

ولقد بدأنا بمناقشة امكانيات الديكور على المسرح ، فلو اننا ناقشنا امكانيات الممثل فما الذي سنراه فيه ـ او ما الذي سيراه فيه (أدولف آبيا) هذا المخرج العظيم ؟

ان اي جسم مادي لايكتسب صفة اللدانة الا لو نظرنا اليه ورأيناه في الضوء ، فالضوء عندما يسقط على جسم ما فانه يسقط عليه بزوايا وضغوط تختلف مع حجم الجسم والالوان التي فيه. وهذا التنويع في الضوء المنعكس منه هو الذي يجمل الجسم المادي كما لوكان يتحرك . وهذه الحركة او اللدانة لايمكن الحصول عليها على اكمل وجه الا لو استخدمنـا الضوء على اكمل وجه كذلك .

ولكي يتحرك الجسم تلزمه اشياء تعترض طريقه ، او تحدد مكانه ، فالجسم يتحرك لابالنسبة لفراغ ، ولكنه يتحرك لاننا نراه يبتعد او يقترب من اشياء تعترض طريقه ، فالحركة حركة بالنسبة لشيء ما ، ومجال الحركة يتوقف على تنوع زوايا الجسم المتحرك بالنسبـة للاشياء الاخرى ، وبالنسبة للارضية التي يتحرك عليها . ولا يمكن تحسين حركة الممثل فنياً مالم تربطهـا بالاشياء الاخرى الموجودة على المسرح ، وبالارضية .

واذن فلا بد من اساسين جوهريين للعرض الفني على المسرح بالنسبة للجسم الانساني ، اولا الضوء الذي يصور اللدانة او الحركة ، والحركة التي تناسق بين الديكور وبين جسم الممثل.

وهكذا نجد اننا قد ابتعدنا كثيراً عن فن الرسم الذي يضحي بالممثل وبحركته كي يتكامل هو نفسه ، بل والذي يجد نفسه وقد قل وتقص بتقطيعه الى قطع توضع الى جوار بعضها البعض لتصنع الديكور ، بدلا من ان تكون في شـكل عام مسطحاً ، فالتقطيع ضد مبدأ فن الرسم .. والحركة فوق القماش ضد فن الرسم كذلك .. ويزداد الطين بلة بالنسبة لفن الرسم بعد امـكان رسم الارضية .

لكن ماذا يحدث لو اننا وضعنا فن الرسم في مركز ثانوي بالنسبة للممثل على المسرح ؟

اولا نستطيع أن نحرر الاضاءة ، أو فن الاضاءة ، لأن العناية بالديكور لابد انتستتبع قلة العناية بالاضاءة .. بمعنى أن الديكورالمعنى به يبتلع الاضاءة . ولكن مايوضع على المسرح من: اكسسوار: لابد ان يظهر ، وظهوره متوقف على الاضاءة ، فلا بد من أن نسقط اضاءة على هذه الاشياء ، من كراسي الى مناضد ، الى خلاف ذلك من اشياء ، والاضاءة تستتبع ظهور ظلال ، والظلال والاضاءة المتعمدة تخفي الرسم .

ولا حد لاستخدامات الاضاءة ، وهي للمخرج كألوان للرسام ، يستطيع بها أن يصور مايشاء من تعقيدات او تبسيطات او رجوع للوراء او حركة او سكون او جو نفسي، وبالاضاءة يستطيع المخرج ان يحرك كل الانفعالات التي جمدها الرسام على القماش ، ويوزعها ديناميا على كل المساحة . ولا يعود الممثل يتحرك بمجرد حركة « امام » اضواء مرسومة وظلال ، ولكنه يحاط تماما بجو (خلق له) . وهنا تبرز اهم نقاط الاخراج ، وهي لدانة او طواعية الديكور على تنسيق اتجاهات المخرج وحركاته . واذا لم يكن الديكور طيعاً على هذا التنسيق فلا لزوم له اطلاقا ، ولا توجد مسرحية لايمكن ان لاتستغني عن الديكور ، فالديكور او صوره ليست اجساما حية ، وانما هي نقوش هيروغليفية تحتاج الى تفكير وتمحيص لفهمها ، وانما المفهوم هو المسرحية ذاتها ، والممثل في حركته فيها ، وصور الديكور تشير ولكنها لاتعني ، بمعنى انها توحي فقط ولا يمكن ان تعيش مستقلة بمعان مستقلة على خشبة المسرح .

ولدانة حركة الممثل ، او طواعية جسمه على الحركة لاتهدف الى الايهام بالحقيقة ، لأنها هي نفسها حقيقة . وحركة الممثل لاتطلب من الديكور الا ان يخرج هذه الحركة من جسم الممثل ، أن يبرزها او ينفثها عنه . ولما كان الديكور نفسه يبحث عن ابراز نفسه بنفسه ، فان هدف ابرازه لحركة الممثل تتعارض مع غايته الاولى ، وذلك هو التناقض في وظيفة الديكور على المسرح : هل هي مجرد تراكم الصور على المسرح بحيث تعطي حسا جماليا عاليا ، ام هي المساعدة على اضفاء المعنى الموحي الى حركة الممثل بحيث تصبح الحركة هي كل شيء ، وما عداها ثانويا لها . ومن ثم فان دعوى المسرح الجمالي ، او المسرح المسرف في استخدامات الديكور والتابلوهات هو مسرح يقوم على اساس خاطيء من الفن . ونحن نتأمل الطبيعة نفسها عندما نريد ان نمتع حسنا بها ، ونتأمل روائع التصوير والفوتوغرافية لنمتع احساسنا الجمالي بالفن ، ونقرأ الادب لنعيش في رحابة الخيال وسحره ، ولكننا نذهب الى المسرح لنشهد تمثيلا دراميا . ووجود الممثلين فوق خشبة المسرح هو الذي يحرك الحدث ويسببه .. وبدون الممثلين او الشخصيات لن تكون هناك حركة ، ولذلك كان الممثل هو العنصر الرئيسي في المسرح ، فهو الذي قدمنا لنراه وهو الذي ننتظر ان نعيش مع عواطفه ، ومن اجل هذه العواطف قدمنا الى المسرح ، وتكلفنا لذلك تكلفاً كثيرا . ومن ثم

يجب ان تخلي الممثل من كل قيود تعوق تمثيله وحركته وعواطفه ، ويجب ان يقوم اخراجنا المسرحية على هذا الاساس ابتداء .

وقد شهدت مسرحيات كثيرة قامت على اساس الديكور ، وضحى فيها المخرج بالممثل لقاء ان يبرز الديكور ويجعل من الخلفية روعة فنية ويلقي عليها من الالوان والاشكال مايبهر النفس ويلفت الحس: مثال ذلك مسرحية « لعبة النهاية » « لصموئيل بكيت » ثم « الكراسي » من بعدها .

ولقد تخلصت المسرحية من روعة الديكور الذي تعاني منه الاوبريت والاوبرا . واتخذت لها شكلاً مختلفاً . فالممثل في المسرحية هو الاساس ، مادام انه بدونه لن تكون هناك مسرحية ، واذا بدا للمخرج أن يستعين ويقتبس بعض مايعجب به في الاوبرا من زخارف ونقوش فلن يكون ذلك على حساب الممثل ، ومع ذلك يتبقى المبدأ العام خلف كل اوبرا وكل مسرحية ، انها دراما ، فالمسرحية دراما خالصة ، والاوبرا والاوبريت دراما بالاضافة الى بقية الفنون الاخرى مثل : فن الموسيقى وفن الغناء . ولا تكتمل روعة الاوبرا الا اذا جرت كل تلك الفنون على ارضية فنية تسير على الاقل نفس المستوى في الموسيقى والغناء والدراما .

لذلك فان الديكور في الاوبرا والاوبريت اكثر ثراء منه في المسرحية ، مثلما ان الموسيقى ونطق الممثل في الاوبرا اكثر ثراء منها في المسرحية .

الاوبرا المسرحية

ولقد كانت الاوبرا بعيدة بعداً كاملاً عن فن المسرحية حتى جاء « فاجنر » فقرب المسافة بين الاثنين ، وطور الاوبرا بحيث جعلها كالمسرحية ، وكذلك تطورت المسرحية واقتربت اكثر من الاوبرا وصارت دراما موسيقية . ثم حدث الشيء الغريب بعد ذلك ، ان جنحت الاوبرا فلم تعد اوبرا ، وكذلك جنحت المسرحية فلم تعد مسرحية . ولم يعد الديكور او الرسم في الاوبرا له علاقة بالموسيقى والغناء ، ولم تعد ديكورات المسرحية تساير النص او الدراما التمثيلية . ونحن وكل المهتمين بالمسرح يحسون الحاجة للاصلاح . وفي موقف كهذا لابد ان تظهر نظريات ولابد ان يكون هناك صراع فكري ويجب ان تعمل التفكير في الوضع الدرامي حالياً .

وان مايقوله «أدولف آبيا» لينطبق كثيراً على مسرحنا اليوم ، فنحن في حاجة الى نظريات ، تقيل مسرحنا من عثرته ، وترفع مستواه ، وتنقذه من اللادراما التي يهوي فيها ، ومن العبث الذي اغرقه حتى اذنيه .

وينصح «أدولف آبيا » في حالة كهذه بان نتبع ابسط الوسائل . وابسط الوسائل في الاخراج هو ان نأخذ المسرحية كما هي ، ولابد ان تكون المسرحية حديثة كي تتلاءم مع فنون الديكور والاضاءة والحركة والميكانيكية الحديثة ، اما ديكورات المسرح القديم فلا تناسبنا ،

بل على العكس انها تحدث اضطرابا فكرياً في ذهن المتفرج ، وبلبلة تدفعه الى تأمل الملابس او تبين حقيقتها من زيفها ، او الضحك منهـا والاستهزاء بما كانت عليه . ولابد ان نختار مسرحية تستوعب كل مابلغناه من رقي فني .. ولو حدث وكانت المسرحية التي تناولناها او الاوبرا التي نريد اخراجهـا من النوع الذي تجري احداثه في اماكن تستوجب ديكورات ملفتة ، كأن تكون في غابة مثلا كالفصل الثاني من اوبرا « **سيجفريد** » فانا يجب ان نسأل انفسنا هـذا السؤال : هل هذه الغابة باشخاص ام من غير اشخاص ؟ اننا في المسرح كي نشهد تمثيلا درامياً ، وهناك شيء مايحدث في هذه الغابة لاعلاقة له بالرسم ، ومن ثم فلا معنى ان نصور غابة حقيقية ، ولكننا يجب ان نصور كل ماسيحدث ، ومن سيتحدث ماسيحدث ــ في هذه الغابة .. بمعنى ان نصور الشخصيات والفعل الدرامي ، ثم نضعهما الاثنين في الغابة ، فالغابة لاتهم بقدر ما هي غابة ، ولكن بقدر ما ستلعب من دور في الدراما ، وبقدر ماتخدم الحدث ورسم الشخصيات ، فلاوجود للغابة في حد ذاتها ، ولو حاولنا ان نصورها في حد ذاتها فهنا يأتي الخطأ في الاخراج .

الواقعية

وهذا الذي يدعو اليه « **ادولف آبيا** » يختلف مع الواقعية ، فالواقعية مثلا كما كان يطلبها « **اندريه انطوان** » تستعين بكل التفاصيل حتى تقنع المتفرج كما يقول اندريـه انطوان ، ومن هنا كان اسرافها في استخدام كافة الوسائل المكانية والادوات البيئية ، واغراقها في طلبها ، حتى كان المتفرجون يجلسون ويتأملون روعة الاعداد المكاني ـ اما الممثل فلايهم ، والموضوع نفسه لايهم . المهم هو التابلوه . تفاصيل التابلوه الكلامية والشيئية ، بان تقتبس من البيئة كل الفاظها وجملها وتعبيراتها وأحداثها واشيائها ، وتقدم هذا كله في اطار من الواقعية ، هـذه الواقعية التي تحاول ان تقدم بها « **زولا** » الكاتب الفرنسي في « **نانا** » و « **صفحة حب** » أو « **نجيب محفوظ** » في « **زقاق المدق** » و « **السكرية** » و « **قصر الشوق** » و « **بداية ونهاية** » .

ولكن « **آبيا** » يكره هذه الواقعية ، ان آبيا يسعى وراء « **الحي** » على المسرح لاوراء « **الشيء** » الميت . وهو يطلب الممثل الحي ، ويريد ان يشكل جسمه وحركته . ويطلب النص الحي الذي يثير النواحي الثلاث في الانسان — **الذهن والوجدان والجسد** — .

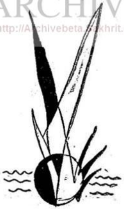
ولو امتصت ناحية من هذه النواحي بقية النواحي او احداها يرفضها آبيا ، لانها تكون ناحية سرطانية شرهة ، وتقيم مسرحية مريضة ، وهو لايطلب المرض في المسرح ، ولكنه ينشـد الصحة ، ولن تتيسر الصحة الا اذا اكتملت عناصرها واسبابها بأكتال العناصر الثلاثة السابقة .

وشعار آبيا : « لاتجسد الواقع على المسرح ولكن أوح به فقــط »

واذن فنحن عندما نصور الغابة او نفكر فيها فانما نصورها كجو خاص يغلف الممثلين. جو نستطيع الاحساس به في علاقته بالممثلين الاحياء المتحركين الذين لايجب ان تبتعد عنهم عيوننا او تسقطهم آذاننا وتفكيرنا . وينصب اهتمامنا اذن لاعلى غابة سيجفريد ، او البيت في سيجفريد او الطريق الى سيجفريد ، وانما ينصب على الاشخاص انفسهم . ونحن نكرر لانريدهم شخصيــات وغابة ولكن نريد ان نوحي بالغابة ونوقع الشخصيات اي نجعلها حقيقة واقعة ، من الحياة وللحياة . ان الحقيقة هنا هي الانسان ولايهم الى جوارها اي شيء آخر . .

ان وهم المشاهد هو الوجود الحي للممثل ، لا الواقع الحي للمشاهد ، وهــذا هو العمود الفقري للاخراج الحديث .. الممثل اولا والممثل ثانياً والممثل ثالثا ورابعا ..

واخيرا بقية عناصر الاخراج ـ من اضاءة الى ديكور الى اكســوار الى ميكانيكية.



المنطقية الوضعية والفن

بقلم سامي خرطبيل

— ١ —

شغل كرسي الفلسفة في جامعة فيينا سنة ١٩٢٢ موريس شليك احد العلماء المهتمين بالفلسفة . والتف حوله عدد من رجال العلم والرياضة ، وكونوا حركة فكرية اطلق عليها اسم جماعة فيينا . وكان شليك محوراً لها . ولقد دعيت ايضاً بالمنطقية الوضعية ولكنها لم تكن مدرسة واضحة الاتجاه كباقي المدارس(١)

(١) نحو فلسفة علمية : زكي نجيب محمود .

اصدرت عام ١٩٣٠ مجلة اشرف عليها كل من كرناب ورايشنباخ ، وعقدوا اول مؤتمر لهم في ايلول من نفس العام ، وكان الموضوع « نظرية المعرفة منظوراً اليها من زاوية علمية» وكان مؤتمرهم الثاني عام ١٩٣٥ في باريس وافتتحه «رسل »على الرغم من كونه ليس منطقياً وضعياً بل من فلاسفة الواقعية الجديدة . وفي سنة ١٩٣٦ اغتيل شليك برصاصة من طالب نازي داخل الجامعة ، وتشتت الجماعة في بدء الحرب العالمية الثانية بين بريطانيا واميركا .

. . .

اذا حاولنا تتبع الوضعية كنهج فكري وفلسفة تحليل وجدنا لها جذوراً بعيدة تعود الى سقراط الذي كان يحلل كلام خصومه . وتمتد بعده عند **افلاطون فارسطو** الذي عمد المنطق ، **فبيكون** الذي شكل الاستقراء لخدمة العلم . فتحليل **كنت** ونقده العقلي ، فالفلسفة التجريبية الانكليزية ، الا ان فكرة الوضعية تبرز واضحة عند اوغست كومت الذي استعملها بمعنى علم ايجابي ، حاذفاً كل المسائل الميتافيزيائية ، وقد اعتبر الرياضيات مفتاح العلوم في تصنيفه يليها الفلك فالفيزياء .. الخ .. وقد اراد ان يضع فلسفة شاملة للكون فتخيل قانون الحالات الثلاث: اللاهوتية ، فالميتافيزيائية ، فالوضعية التي هي آخر المراحل في تطور البشرية . ثم تمذهبت الفكرة لدى جماعة فيينا ، حيث اعلنوا عن موت جميع القضايا الميتافيزيائية ، مبقين على العلم فقط . وبالتالي دقوا آخر مسمار في نعش المنطق الارسطي ، وتبنوا المنطق الرمزي الذي وضعه مورغان وبيرس ورسل وكرناب وغيرهم هذا المنطق الذي يذكرنا بحلم ليبنتز عن اللغة الكونية . وهذا المنطق يتتبع خطى الرياضيات بالاستغناء عن الكلمات واللجوء الى الرموز المحددة . فلا نعجب اذا رأينا في منطقهم معادلات منطقية على النسق الرياضي ، وعمليات حسابية كالجمع والطرح .. الخ .. وبالطبع ان لقوانين الاحتمال حظاً وافراً عندهم . يقول اير :

« لاضرورة لافتراض وجود شيء نعلل به عملية الفكر سوى العبارات اللفظية ،فالفكر ماهو الا عملية ترتيب الكلمات أو الرموز » اي : « ان الفكر هو الالفاظ نفسها وطريقة تركيبها » (١) .

فاذا كان هذا ، اصبحت مهمة الفيلسوف هي توضيح وتفسير الكلمات ، اي يصبح قاموساً علمياً ، تاركا وراءه جميع مشاكل الفلسفة وقضاياها التي لم يتعب الفكر خلال القرون الطويلة من النظر اليها لأنها مجرد دعاوي واقاويل نضيع وقتنا في بحثها . انما المهم الكلمات العلمية وما يقدمه العقل العلمي . فاذا كان هذا نشيطاً ، ففسر الكلمات التي استعملها بطل عمل الفيلسوف وانتهت مهمته (٢) . وبذلك يستريح العالم من كلامه الفارغ .

---

(١) المنطق الوضعي . لنلاحظ ايضا ان هذه فكرة المدرسة السلوكية وخاصة واطسن عن التفكير ايضا .

(٢) برتراند رسل : زكي نجيب محمود . المقدمة .

يقسم المنطق الوضعي القضايا الى نوعين : تركيبية وهي موضوع العلم الطبيعي وصدقها يكون بانطباقها على الواقع ولذلك كانت هذه القضية احتمالية . ثانيا : القضايا التحليلية وموضوعها الرياضيات وصدقها يكون بعدم التناقض بين اجزاء القضية الواحدة ، وهي يقينيـة . وبذلك نقدوا ديكارت الذي وضع العالم كله داخل اقواس من القضايا التحليلية ، ولكنهم ايضا يقعون في نفس المنزلق . فما ان يقيموا هذا الفصل مبعدين القضايا الرياضية حتى يدخلوا العالم كله ضمن القضايا الطبيعية الخاضعة للعلم التجريبي .

وعلى الرغم من اطلاقهم لكلمة « الفئة الفارغة » على بعض الكلمات التي لايصح وصفها صدقا او كذبا كقولنا : العنقاء ، وملوك فرنسا في القرن العشرين ، والكائنات التي لاتقع تحت الحس فانهم يجهلون القول ، فيقولون ان هذه الكلمات لامعنى لها ويجب حذفها (١) لان كل معرفة مصدرها الحس وما عدا ذلك مثل الحدس والحاضرات العقلية غير المستمدة من الخبرة الحسية لاقيمة له (٢) وبذلك تصبح الميتافيزياء خرافة ، والقيم غير خاضعة للحكم . وكأن هذه اصبحت تخص موضوع الطبيعة لذلك فهم يطلقون عليها حكمهم .

يقول زكي نجيب محمود :

« انني حين انظر الى وردة واقول عنها انها جميلة ، فالذي اراه هو بقعة من اللون ذات شكل معين ولها ابعاد معينة يمكن قياسها ويمكن رسمها على الورقة ، وكذلك ارى في الوردة تركيباً كيماوياً معيناً اذا حللتها . ولكني لا ارى في الوردة عنصراً اسمه الجمال ، اذا هذه الكلمة وصف لشعوري وهي عبارة ميتافيزيائية تخلو من المعنى » (٣)

هناك فرق بين هيكل الادراك ومضمونه ، قوام الاول العلاقات المكانية الزمانية بين اجزاء الشيء المدرك وهي علاقات موضوعية كمية غير ذاتية .

اما المضمون فهو ما تنطبع به حاسة الشخص المدرك والذي يستحيل نقله الى احساس رجل آخر فهو لا تملك معنى العلم . اي انه خارج عن البحث العلمي . اي انه لامعرفة لان المعرفة » هي الهياكل الفارغة التي تصور علاقات الظواهر بعد اسقاط فحواها الحسي ، (٤)

والجمال كقيمة تعبير عن شعور الفرد تقع داخله ولا وجود خارجي لها ملموس يمكن ان نعاينه . لا كما يعتبر البعض : الجمال واقعة خارجية. لذلك فهو كلام يقال تضيع فيه اعمار الناس

---

(١) و (٢) المنطق الوضعي ص٣ ، و ص ٤٢٨ . الطبعة الثانية .

(٣) خرافة الميتافيزياء زكي نجيب محمود ص ١١١

(٤) المنطق الوضعي زكي نجيب محمود ص ٤٣٥ الطبعة الثانية

سدى (١) هذا من جانب ، ومن جانب آخر الجمال مقدار كيفي - معنوي - والعلم او المنطق الوضعي او الفلسفة الوضعية لا تعنى الا بالمقادير الكمية وحدها ، فهي ثابتة يمكن قياسها والتأكد منها . وما عداها اي ما يتعذر قياسه لا معنى له خرافة كما جاء في عنوان احد كتبه .

لنفترض ان الجمال لرمز (س) ، هل تستطيع ان تدلني على هذا المجهول ؟ اين هو ؟ ما ابعاده ؟ ثم اذا اختلف شخصان حوله فكيف نعرف الصواب ؟.

ولكن الجمال ماهو الا حلم ذاتي ، لذلك فكل هذه الاسئلة وغيرها كثير لامعنى من طرحها لاننا لايمكن ان نطلق كلمة حق أو خطأ على الآراء المطروحة بصددها . لان مايحدد هذه الاراء هو الذوق الفردي . وكل مايقوله الانسان معبراً عن ذاته كلام فارغ (٢) . ليس هذا فحسب بل الكلام الكلي فيه ماينقد فقولنا « انسان » كلام فارغ . من هو ؟ ان مانعرفه هو زيد وعلي ... اما الانسان فهو تعبير غير مكتمل الاجزاء ، ولكن ، يجب ان يملأ باسماء جزئية والا ظل اجوف (٣) .

اذن كيف تعالج المنطقية الوضعية الموضوع المطروح امامها ؟ وكيف تمنطق هذا المجهود الانساني الضخم الذي يملأ الحياة ؟ ما الفن عندها ؟.

تلجأ الى الحلول التي وضعتها الفلسفة البراجماتية . فقولنا ان الكلمات الجماليـــة ، والفن لا معنى له يقصد منه القضايا الحملية لا الشرطية . اي ان المنطقية الوضعية توافق على وجود معنى للالفاظ الدالة على القيم اذا استعملت على انها وسائل لغايات كما يقول **هل** في فلسفته الاخلاقية . وعند ذلك تصبح تقديراً خارجاً عن الميل الشخصي .. وبمعنى آخر . ان الجملة الجمالية تصبح ذات معنى اذا امكن تحويلها الى عمل كما يقول **بيرس**.

وخلاصة الامر : الجمال ماهو الا حالة انفعالية تصاحب الانسان . والانفعال لايمكن وصفه صدقاً او كذباً ، واذا كانت الحال هذه فالاعمال الفنية - علمياً ومنطقياً - لاقيمة لها . والفنانون سحرة يسخرون من البشر .

• • •

كل مافعلته المنطقيـــة الوضعية هو ان اثارت قضية الفروق الفردية في تذوق الفن من داخل الموضوع اما الاحكام الاخرى التي اطلقتها لتشد هذا الموضوع الى نطاقها ومجالها ومن ثم اتهمه وترفضه ، لو كانت هذه المنطقية منسجمة مع نفسها لما نظرت فيه .

---

(١) المنطق الوضعي زكي نجيب محمود ص ٤٣٩ الطبعة الثانية

(٢) خرافة الميتافيزياء زكي نجيب محمود ص ١٠٨

(٣) نحو فلسفة علمية زكي نجيب محمود ص ٢٣١

المنطق الوضعي منهج علمي ولو ظل كذلك لما كان هناك اي اعتراض . مجاله الطبيعي العلوم ، وهذا ايضاً ماتسير عليه العلوم . وبتعرضها للقيم من خير وحق وجمال منكرة اياها فقد خرجت على اسسها اذ انها كما حددت نفسها ابعدت القيم عن موضوعها ، فكيف تطلق حكماً عليها ؟! ثم انه من ناحية اخرى لا احسب أحـداً ادعى ان القيم علم تجريبي ولا احسب ان أحداً سيدعي .

حتى وان ناقشنا زعمهم ، لوجدنا علم النفس ينظر الى مشكلة الفروق الفردية من حيث الكم – الدرجة والشدة – لا كفرق في النوع (١) ، مثل الفروق المتوهمة في التقدير حيث تحددها الفردية من خلال حياتها في المجتمع . واعتبر **واطسن** احد اعـلام المدرسة السلوكية مشكلة الفروق الفردية ثانوية .

هذا في علم النفس ، فاذا انتقلنا الى الفلسفة طالعنا **كنت** برأيه الذي يميز فيه بين اللذيذ والجميل ، فالذوق مثلاً يختلف من شخص الى آخر الا انه يفترض نوعاً من الكلية بالنسبة للجمال دون ان يشتمل على معنى عام ، فكأن الجمال كائن في الشيء نفسه لا اضافة ملصقة به .

ولعل الخلط عند المنطقية راجع الى انهم ينظرون الى الفن نظرة ميتافيزيائية اطلاقية ، فكأنهم يطلبون المطلق في نظرة الانسان الى الفن . اي ان يكون الاتفاق تاماً حول الموضوع الفني حتى يكون هناك فن وحكم فني . في تخفي وراء تقدهما للفن من حيث النسبية نظرة مثالية تؤمن بالواحدية المثلية المادية ، وتنفي ماعداها . انهم يكررون مـع الطبيعيين قضية الاستغناء عن الجمال بالاحساس بالواقع . ويرددون قول **رينان** : « سيتبدد الجمال تقريباً بسيادة العلم » ولكن رينان نفسه كان فناناً مجيداً .

وواقع الامر هو ان النسبية في الفن عامل مساعد لا مثبط . فالفن يرتبط بالانسان وبالمجتمع والحضارة . ثم أن النسبية تعبر عن الاصالة الذاتية . والا لما كان هناك فن ولما تنوعت الفنون ولا تقدمت .

ولعله من المنـاسب ان نذكر اهم النتائج التي تكشفت عنها الميكروفيزيائية الحديثة ونظرية النسبية : فمن نتائج النسبية : « زوال التجرد والموضوعية التامين اللذين كان العلم يتصف بها ، فقد جعلت النسبية للمراقب أهمية كبيرة لان سرعته أو سكونه يغيران في نتائج القياس ، مع العلم ان نتائج القياس كانت في الفيزياء الاتباعية مستقلة عن سرعة المراقب » (٢) .

فمن هذا تبين ان كلمة التجرد النزيه واللاذاتية والموضوعية قد فقدت صبغتها المقدسة في الفيزياء فكيف في الفن وهو الذات نفسها وهي تبدع .

---

(١) ميادين علم النفس . الجزء الاول ص ٤٧٩ .
(٢) الفيزياء الحديثة والفلسفة . عبد الكريم اليافي ص ٣٥

وكذلك وجد ان القياسات لاتجري بمنتهى الدقة والقول بان تحسن الآلات سيؤدي تماما الى ذلك لايصح بالفيزياء اليكرونية اذ لابد من ارتكاب خطأ تقريبي في قياس المواقع وارتكاب خطأ في كمية الحركة . فاذا كان الحال هذا في العلوم ، فما بالنا في الفن .

ولكن يمكن ان تناقش القضية من جانب مرادف فنتساءل عن علاقة الفن بالعلم والمنطق والرياضيات ، وعند ذلك سنجد ان الفن ليس بهذه السطحية والضحالة العلمية . فالفن له ارتباطات واسعة بالعلوم . وقد كانوا منذ القديم يبحثون عن افضل النسب الرياضية ليكون الشيء اجمل فتوصلوا الى القطاع الذهبي الذي يساوي النسبة $\frac{8}{5}$ ، واعتبرها **ليوناردي فينشي** اعلى النسب الجمالية (١) . ويرى الناقد **تين** : « ان علم الجمال يشاهد قوانين . علم يلاحظ ويفسر مثل علم النبات . الخ (٢) ثم ان الكثير من الفنون تعتمد على اتساق رياضية ، فالنحت والعمارة مؤسسان على الهندسة ، والموسيقى تعتمد على حسابات دقيقة . بل ان الرقص ما هو الا ايقاعات تخضع لقانون الانسجام والاتساق . ناهيك عن ان هناك فنونا عديدة لها طرقها المختلفة واساليبها التي يقل نعتها بالذاتية قليلا او كثيراً .

فنظرة المنطقية الوضعية نظرة ضيقة للفن . ذلك انها تمدد مسؤوليتها وبحث في غير اختصاصها .

ولعله يجب ان نعترف بأن تلقي الفنية حاسة اخرى هي تلك التي ندعوها : الحدس . فالفن حدس كما يقول **كروتشه** (٣) وهذا الحدس نقيض الروح العلمية وألد اعدائه بل ان العصور التي تسود فيها العلوم الطبيعية والرياضية عصور فقيرة بالتصوير والشعر . ولقد مرت على الانسانية عهود من الدهور سيطرت فيها بصدد الفن آراء شوهاء . لقد الحق بالدين وبالاخلاق وبالعلم . ولكن مع ذلك سيظل هناك الى الأبد موضوع يطرح نفسه ..

. . .

-٢-

منذ ثلاثة اعوام ، أتى الدكتور زكي نجيب محمود يحاضر في دمشق عن الغزالي ، وهو

---

(١) يراجع مبادىء علم الجمال : لا لو ص ٣١ وما بعدها .

(٢) مبادىء علم الجمال ص ٣٨ لا لو

(٣) المجمل في فلسفة الفن : كروتشه . ترجمة سامي الدروبي . الفصل الاول .

يعتبر نفسه ممثلا للمنطقية الوضعية في مصر . فتساءلت وأنا اراه هرماً ، رقيقاً وقوراً ، قد تناثر الوبر الابيض في قمة رأسه :

احقاً مازال هذا الوضعي على رأيه في الجمال والخير والحق ؟

وعندما صعد المنصة وبدأ يتكلم بصوت خافت قلت :

— لابد ان الوقت قد حان ليكفر عن هرطقته في الفن !

وبعد اسابيع قليلة صدر له كتيب صغير احمر اللون هو الشرق الفنان ، ما ان خطوت فيه خطوات قليلة حتى نظرت الى كتبه الضخمة وابتسمت وشعرت بأهمية العلم .

ولعله من المناسب ان اعرض بعض المفارقات بين ماجاء في هذا الكتيب وتلك الكتب:

فبينا كان يرى الفن مضيعة للوقت اصبح يرى ان الانسان ينبغي له ان اراد تكامل المعرفة ان يجمع بين النظرتين : النظرة الفنية والعلمية ، نظرة الفنان الذي يمس الكائنات بروحه ونظرة العالم النظري الذي يقيم بينه وبين الكائنات حاجزاً من قوانينه .

وبينا كان يرى ان يسود العلم وان يحذف الفن نسمعه يقول هنا : « لقـــد اراد الله للانسان ان تكون له النظرتان معا ، بالنظرة العلمية الى الاشياء يقتنع ، وبالنظرة الفنيـــة يتمتع وينعم » .

واتساءل كيف يمكننا ذلك ؟ فيجيب :

« نستطيع ان ندرك روح الكون اذا وهبنا الله روح الفنان الاصيل » (١)

ثم يتابع : « والنظرة الفنية من شأنها ان توحد العالم وذلك لانها نظرة الحدس »وابتسم وانا اتذكر رفضـــه للحدس وانكاره لكل ماهو خارج عن الحس . واتساءل في خبث : ما الحدس ؟ ماهي الروح الفنية ؟ فاذا به يجيب « انه شيء فوق العقل وخارج عن المنطق ، انه الحدس ، النظرة المباشرة للاشياء » !!

وشتان بين قوله هنا « ان صاحب النظرة الحدسية يضيف الى علمه بان لون الزهرة شيء غير شكلها علماً اوفى واعلى وهي ان الزهرة على اختلاف صفاتهـا حقيقة واحدة » وبين قوله هناك « اننا لانرى من جمال الوردة الا لونها وتركيبها الكيماوي .. الخ .. »

وشتان بين قوله : التحليل هو الطريقة الناجعة . وبين قوله هنـا « ان التحليل يفتت الموضوع يفتت التكامل ، وان العقل ليس اداة معرفة وحدها » (٢)

ثم بين قوله : المنطق هو اللغة ، واللغة هي الفكر . وبين قوله هنـا « اللغة عاجزة عن

(١) الشرق الفنان ص ٦٢

(٢) الشرق الفنان ص ١٦١

التعبير عن صوفية الفنان ، فالفنان ليس آلة تصوير ينقل عن الطبيعة كما هي ، بل هو انسان خلاق بيديه في ذلك ذوقه وفطرته » .

ولعله من المفيد ان اوجز بعضاً مما جاء في هذا الكتيب الصغير من هذه المقارنات :

هناك فارق بين النظرة العلمية والنظرة الفنية : الاولى مختصة بالغرب والثانية بالشرق ولقد جمع الشرق الاوسط بين النظرتين .

فالشرقي في نظرته للاشياء فنان يمس الاشياء مساً مباشراً ، حدسياً ، يهز الوجدان . وهي نظرة ترى الكائن الواحد في مجموعه كأنه حقيقة واحـدة تضم نفس الكائنات في كائن واحد يطويها في ذاته . فاذا هي جزء منه . ويتمثل ذلك في الاسفار الدينية ، ومن هـذه الاسفار انبعثت نظرة الشرقي الى الحياة والى الفن والدنيا والاخرة ، فيمزجها بنفسه .. ولنسأل الدكتور: ما الآخرة ؟ نسأله جادين هذه المرة دون اي خبث !

لقد حبا الله الشرق بالنظرة الفنية ، وطابعه ان ينظر الى الوجود نظرة الفنان الذي يتجاوز السطوح الظاهرة الى الكوامن الخفية ، والتي يدركها الحدس ولا ترى بالاعين الظاهرة، وما الشرق الا معرضاً كبيراً من معارض الفن .

بينا الغرب لايعرف سوى التحليل العلمي والانتاج المادي ووسيلته الى ذلك العقل. ولا يعني هذا بالطبـع ان الشرق خال من العقليين ، وان الغرب خال من الروحيين . انما هو تقسيم عام .

وفي الشرق الاوسط التقى الحدس والعقل ، وهذا ماهو واضح عند العرب على درجات متفاوته في القرون المتتالية .

واخيرا : « العقل لايستطيع ان يدرك الا المادة الجامدة ، وبذلك تتحدد مهمة الفلسفة وواجبها وهي ان تبحث في الكائن الحي دون ان تبتغي لنفسها غاية عملية ، وان يكون الحدس وسيلتها الى الادراك (١) وبذلك يعود الاعتبار للفنان والفيلسوف . هناك في النفس جانب سلوكي لتحقيق الرغبات وجانب السكون والتأمل ولو استطاع الانسان الاخلاد الى ذلك لحقق حريته بمعناها القويم (٢) .

وبذلك يعود الوضعي ويركع امام تمثال فينوس الذي لايستطيع احد ان ينكر جماله مهما كان ذوقه . وبالتالي ادرك تلك الوحدانية الصوفية الفنية .

ولنقرأ معه بعد ان استغفر من الذي « يكمن في كل الخفايا (٣) .

« المغرور من الناس هو الذي ينظر الى صنوف الحيوان والطير فلا يلمس فيـــا رابطة الحياة التي تؤاخي بينه وبينها » .

وهذا أعلى صور الفن . وآخر مايبتغيه حدس الفنان ، وما يطمح اليه ..

---

(١) الشرق الفنان ص ١٢٣
(٢) الشرق الفنان ص ٧٠
(٣) الشرق الفنان ص ٨٧

مجلة المعرفة

مع التيارات الفكرية

العربية والعالمية

- كتاب الشهر ـ الفكر العربي في عصر التحرر
- مقابلات المعرفة ـ مع الاستاذ وديع فلسطين
- رسائل المعرفة ـ رسالتين من تونس وباريس للخنيسي وقطاية
- النقد والرد ـ السيدة وداد سكاكيني
- في المكتبة العربية ـ حول السائح والترجمان بين نعيمة وعواد
- القصة العربية ـ المنوليا في دمشق ـ الانتظار والمطر
- كتب جديدة
- المكتبة العالمية ـ جان بلوك ميشل ، ألان روب غرييه
- الصحافة الادبية العربية
- السينما
- المسرح مع (لو رآنا الناس معاً)
- منجزات العلم
- مهرجان تأبين العقاد على مدرج الجامعة
- جولة الشهر ـ مع التيارات الفكرية العالمية

الفكر العربي في عصر التحرر

١٩٣٩ - ١٧٩٨



By:
ALBERT
HAURANI

منشورات
Oxford University Press
1962

تأليف آلبرت حوراني

عرض وتلخيص : حسام الخطيب

في اربع مئات من الصفحــات المكتظة لاتتخللها صورة ولا فراغ حاول الكاتب أن يلم بالتيارات المهمة للفكر السياسي والاجتماعي في الوطن العربي منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى بداءة الحرب العالمية الثانية أي خلال فترة تقارب مئة وخمسين عاماً كانت مسرحاً لتضارب فكري زاخر وصدام حضاري بين مجتمعين مختلفين كل الاختلاف وطرازين من الحياة والتفكير يمثل احدهما الذهن المستنير والحيوية الدافقة والمرونة والتطور وينطوي الآخر على ذاته في محاولة يائسة للاحتفاظ بمؤسساته الخاوية وتقاليده الاثرية وانظمته المتحجرة .

أي كتاب ترى يستطيع أن يستوعب ذلك الجدال المحتد الذي كان له الف الف شعب فوق الارض العربية التي نامت عن المجد والحياة مئات من السنين نومة رجل واحد فلما قدر لها أن تفتح نوافذها على الفجر المطل لم تقم

قومية رجل واحد لأن عقدها كان قد انفرط في أيدي الأعاجم الجاهلة فقام كل فرد فيها يخبط في النور الجديد على ما خيلت وتبعثرت العيون المتفتحة ذات اليمين وذات الشمال وتشتت الخطا غير المتمكنة بين إقبال وإدبار …

ماذا عسى مؤرخ الفكر أن يفعل إزاء عصر لم يعرف بنوه هويته؟ ما عليه إلا أن يختار وهكذا كان . لقد اختـــار الاستاذ ألبرت حوراني من أصوات المفكرين العرب أجهرها وأقواها واختار من بين مراكز الثقافة العربيـــة اولاها اتصالا بالغرب : القـــاهرة وبيروت ، وآثر أن يفصل الـكلام على اتجاهات فكرية بارزة بدلاً من أن يبعثره حول مختلف التيارات المتضاربة في عصر النهضة الذي أسماه الـكاتب عصر التحرر .

يبدأ الكتاب بلمحة موجزة تتناول الخطوط العريضة للفكر الاسلامي المتعلق بتنظـيم المجتمع وتكوين الدولة ، ثم ينتقل الى دراسة التغيرات التي اخذت تطرأ على المجتمع العربي إثر اتصاله بالغرب في اواخر القرن الثـــامن عشر واوائل القرن التاسع عشر ، والمحاولات الاصلاحية التي شرعت الحكومـة العثمانية بتنفيذها بغية مواجهة الخطر الجديد الوافد من أوروبا . ثم يفصل الـكلام عن إقبـال المفكرين العرب على دراسة الاسس التي قامت عليها الحضارة الاوروبية رغبة منهم في أن يستطيعوا وضع القواعد والاسس اللازمة لبناء المجتمع العربي الاسلامي الحديث ، وهنـــا يميز الـكاتب تيارين رئيسيين الاول يرتبط باسم جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ورشيد رضا ويهدف الى إعادة دراسة المبادىء الاجتماعية في الاسلام وبناء الحياة الجديدة على هديها ، والثاني يقول بفصل الدين عن السياسة وبناء مجتمع علماني يتخذ القومية مبدأ له على اختلاف في فهم مضمونها وحدودها . ويشعر القـــارىء من خلال قراءة الكتاب أن المؤلف يريد أن يثبت أن هذين التيارين الرئيسيين اللذين يسيران في اتجاهين متناقضين ظاهراً يصب كل منهما في الآخر فعلا . ويخصص الـكاتب الفصل الاخير لدراسة الاتجاهات الرئيسية للفكر السياسي والاجتماعي في الوطن العربي بعد الحرب العالمية الثانية مع اهتمام خاص بدراسة آراء عدد من المفكرين السياسيين البارزين في المغرب العربي دون أن يتوسع في عرض آرائهم مثلما فعل في الفصل الذي خص به طه حسين وبسط فيه آراءه في السياسة والاسلام والمجتمع والتعليم وذلك لأن تأثير المفكرين في المغرب العربي ظل محصوراً في حدود اقطارهم ولم يتجاوزها الى الاقطار العربية الاخرى كما هو الشأن عند مفكري المشرق العربي .

ولعل اهم ما في الكتاب دراسته للتباين في اراء الجيل الاول من النابهين وحرصه على دراسة تطور مفهوم الاسلام عندهم وهذا هو القسم الذي سنعنى بعرض خلاصته ، اما القسم الثـاني المتعلق بدراسة تطور المفهوم القومي والاجتماعي في القرن العشرين فسوف نلم به إلمامة سريعـــة لان الـكاتب آثر الاعتماد على الشمول في العرض مما يجعل تلخيصه صعباً محدود الفائدة .

الجيل الاول :

الطهطاوي ، خير الدين ، البستاني

وفي حدود سنة ١٨٦٠ ظهرت طائفة من الموظفين والضباط والمعلمين في القسطنطينية وغيرها من الحواضر العثمانية تؤمن بضرورة اجراء اصلاح عام في الدولة العثمانية والاستفادة من اساليب الحياة الاوروبية لتمدين المجتمع العربي وتطويره وكان معظم هؤلاء من الاتراك اولا ثم نشت الدعوة في اجزاء الدولة العثمانية ولا سيا في مصر حيث تبناها افراد البعثات العلمية التي درست في الغرب ، وفي تونس حيث اخذ المصلحون يرفعون اصواتهم جهاراً وعلى رأسهم خير الدين ، وفي سورية ولبنان حيث اخذ المتخرجون من المدارس التبشيرية يحاولون أن يؤثروا في مجرى الحياة آنذاك وقد ساعد على ذلك اسهام عدد كبير منهم في الحقـــل الصحفي ... ومع نمو الدعوة الاجتماعية برزت مشكلات عديدة واسئلة لها علاقة كبرى بالنظرية السياسية : اي الانظمـــة الاجتماعية والسياسية أصلح للشرق ؟ هل يمكن لهذا النظام أن يعتمد على مبادىء الشرع الاسلامي؟ أم عليه ان يستقي من تعاليم أوروبا الحديثـــة وتجاربها ؟ وهـــل من تناقض حقيقي بين الامرين ؟

اما في القسطنطينية فقد بحثت هذه الموضوعات منذ النصف الاول من القرن التاسع عشر على يد صديق رفعت باشا ولكنها مالبثت ان قلبت على وجوهها وشغل بها الجيل التالي من الكتاب ابتداء من سنة ١٨٦٠ ومنهم شينازي وزياباشا ونامق كال . ورغم انهم كانوا ملمين بالادب والفكر الغربيين لايصح اعتبارهم انصاراً للحضارة الغربيـــة دون تحفظ ، فقد ظلوا شاعرين بانهم ينتمون الى بلد شرقي مسلم ، وحاولوا التوفيق بـــين طرز التفكير والحياة في الغرب وبين المعتقدات والاخلاق الاسلاميـــة ، فربطوا مثلا بين النظام النيابي الاوروبي وبـــين الشورى الاسلامية ووقعوا في صراع مع أنظمة الحـــكم الاستبدادية ، ولكنهم كانوا يؤيدون ماقد تقوم به من اصلاح وظلت رغبتهم في التطوير مصحوبة بعاطفة وطنية تركية .

وفي القاهرة لم يختلف الموقف الاصلاحي كثيرا ولكنه كان مصحوبا بعاطفة وطنية مصرية وانبرى رفاعـــة بدوي رافـــع الطهطاوي (١٨٠١ – ١٨٧٣) يوضح فكرة (الامة المصرية) ويلبسها ثوبا من الافكار الاسلامية .

وفي مجال الفكر السياسي كان الطهطاوي وفياً للنظرة الاسلامية في الحـــكم والرعية ورأى في فكرة روسو عن المشرع شبهـــاً بفكرة النبوة الاسلامية ، على انه أكد أن الشعب ينبغي أن يشترك في عملية الحـــكم اشتراكا فعالا وان ابناءه ينبغي ان يتزودوا بالعلم، ورأى ان القوانين يجب ان تتغير بتغير الظروف وما صلح منها لزمان قد لايصلح لآخر وعلم ان نشوء الامم وسقوطها خاضع لقانون او اسباب تكمن في روح الامة وان حب الوطن اساس الفضائل السياسية، ولعله تأثر بمونتسكيو في أغلب هذه الاراء ، وكذلك

قابل الطهطاوي المستشرقين ومنهم سلفستردوساس ومنهم استقى معلوماته عن المكتشفات الجديدة في تاريخ مصر وآثارهـا وقد ظهر اثر ذلك في كتاباته الكثيرة .

ورغم ان محمد علي لم يكن يرغب في ان يطلع طلاب البعثات المصرية على كل شيء فقد عمـل الطهطاوي على فهم الحيـاة الاوروبية وكتب « تخليص الابريز الى تلخيص باريز » يصف فيها حياة باريز وصف معجب لايخلو من روح نقدية.

وحين عاد الطهطاوي الى مصر عمل في الترجمة ثم مديراً لمعهد الالسن وترجم كثيرا من الكتب في العلوم الاجتماعية والعسكرية واسهم في طبع الروائع العربية القديمة في مطبعة بولاق واهتم بابن خلدون بوجه خاص .

ومن اهم مؤلفاته « المرشد الامين للبنـات والبنين » الذي ألفه بناء على رغبة وزارة المعارف ليكون كتابا مشتركا لتعليم البنين والبنات وقد اظهر الطهطاوي حماسة لتعليم البنات وقدم حججاً كثيرة لهذه الفكرة، وألف كذلك كتاب « مناهج الالباب المصرية في مباهج الآداب العصرية » وهو يحوي أهم آرائه حول طراز الحياة الذي يجدر بمصر أن تسلكه .

وهذه الآراء تمثل الاتجاه الفكري الجديد في عصر اسماعيل وتوضحه . وهي ليست اعادة مقلدة للافكار القديمة حول الدولة والمجتمع ولا ترديداً ساذجاً للأفكار التي تلقنها في باريس . انها تتخذ بوجه عام طابعاً تقليدياً ونراه يحاول في كل مناسبة أن يستشهد بمواقف الرسول والصحابة، كما ينضوي مفهومه للسلطة السياسية تحت تيـار الفكر الاسلامي، على انه في كثير من المواضع يطور هذه الافكار تطويراً له شأنه.

والحديث عن الطهطاوي طويل متشعب ولعله يحسن بنا أن نجمل آراءه في النقاط التالية :

١ ـ نظريته في الحكم اسلامية تقليدية : للحاكم الطاعة وعليه واجبات تمليها الشريعة وهو مسؤول امام الله وامام ضميره قبـل ان يكون مسؤولا امام الشعب .

٢ ـ المعرفة ضرورية لابناء الشعب والعلم واجب عليهم بنين وبنات ، وما الثروة القومية إلا نتاج الفضيلة التي تخلقها المعرفة في النفوس وقد أثبتت مصر انها تكون قوية كلما كانت الفضائل الاجتماعية فيها قوية .

٣ ـ من اهداف التعليم الاولى زرع مبدأ حب الوطن في النفوس ، والوطن عند الطهطاوي له اساس اجتماعي واساس جغرافي وهو اقرب الى المفهوم الحديث منه الى المفهوم القديم غير المحدد .

٤ ـ والوطن الذي يشير اليـه هو مصر بحاضرها وماضيها ، ويتجه بولائه نحو الفراعنة ويظهر اعتدادا بهم ، ولاينسى ان يشيد بالعرب ويذكر عطفه عليهم واعجابه بهم من خلال التاريخ الاسلامي وقد الف في التاريخ رغبة في توضيح معنى الوطن وافهام المصريين حقيقتهم وماضيهم وهو يعتبر ظهور الاسلام أهم حدث في

التاريخ ويعتبره الفاصل بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث . وتكتسي نظرية الوطنية طابعاً عاطفياً حماسياً وله اشعار في تمجيد الوطن ومدح الاسرة المالكة في مصر حينذاك ، ولا تخلو وطنيته من نزوع انساني لعله استقاه من المفهوم الفرنسي للوطن بعد الثورة الفرنسية ويقال انه ترجم (المارسييز) الى العربية .

٥ ـ وظهرت اوروبا في كتابات الطهطاوي موئل العلم والحضارة لابلد الاستعمار والعدوان وقد ألح على ضرورة الاستفادة من علومها التي هي اصلا علوم العرب وطالب بمخالطة الاجانب والتفاهم معهم والاقتباس منهم والتلطف بهم .

غير ان الخطر الحقيقي الذي ينبغي ان نحتاطه في اتصالنا مع اوروبا هو الخطر الاخلاقي لان اوروبا تخلت عن مسيحيتها وآمنت بالعقل الانساني وحده .

٦ ـ ولعل اكثر آراء الطهطاوي أصبح مألوفا في الجيل الذي تلا جيله وما كان جديداً على لسانه اصبح يتردد على كل لسان في اول عصر النهضة منها ان هناك اوطانا تدين لها بالولاء وأن هدف الحكومة الصحيحة توفير مصلحة الانسان في الدنيا وفي الآخرة ، وان مصلحة الانسان هي خلق الحضارة ، وهذه الحضارة مزدهرة في اوروبا ولاسيما فرنسا ، وان قوة اوروبا ترجع الى تحصيلها للعلوم العقلية وان المسلمين كانوا اقوياء حين اعتنوا بهذه العلوم ثم ضعفوا حين انصرفوا عنها تحت تأثير الاتراك والمماليك .

وهناك مفكر آخر شارك الطهطاوي في مشكلة التوفيق بين الاسلام ومعتقداته واخلاقيته وبين الحضارة الاورية ومنطلقاتها الفكرية وواقعها الاجتماعي وهو خير الدين باشا (١٨١٠ ـ ١٨٨٩) الشركسي الذي تقلب في ارفع المناصب في تونس اولا ثم في القسطنطينية ، وقد زار باريز كالطهطاوي وقضى فيها اربع سنوات واعجب بالحضارة الاوروبية ودعا الى الاستفادة منها . وحين كان رئيساً للوزراء في تونس استعمل نفوذه لاجراء كثير من الاصلاحات منها : تحسين الاجراءات الادارية واعادة تنظيم الاوقاف واصلاح التعليم في جامع الزيتونة وتوسيع المطبعة الرسمية وانشاء مكتبة عامة ومدرسة حديثة لتعليم العلوم الحديثة والاسلام واللغة العربية للاجانب وحاول حفظ تونس من فرنسا عن طريق الاستفادة من التوازن بين اطماع الدول الكبرى .

وبالاضافة الى نشاطه السياسي والاجتماعي ألف كتابه المهم : « **اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك** » تونس ١٨٦٧ ، وفيه يقتفي أثر ابن خلدون ومقدمته بغية دراسة الاسباب التي تؤدي الى انهاض الامة وتطوير حياتها ، ومن اهدافه في الكتاب تحذير الخاملين والمتعصبين من الاشاحة عن الحياة الحديثة وطرزها . وهو يتبنى النظرية التقليدية في مفهوم الامة وخلافا للطهطاوي يتجه الى الامة الاسلامية عامة لاالى مفهوم الوطن المحدد ، ولا يعترض على الحكم الاتوقراطي وان كان يطالب بتحديد سلطان الحاكم عن القانون والمشورة مشورة العلماء والاعيان ويرى ان نهوض الامة متوقف على قوتها الحربية وقوتها الاقتصادية ووراء هاتين القوتين قاعدتان اساسيتان هما العلم والنظام السياسي السليم والعلم عنده هو

كما عند الطهطاوي العلم التجريبي الاوروبي المتطور، وليس يضير المسلمين في رأيه ان يقتبسوا هذا العلم من اوروبا لان حضارة اوروبا لم تقم على الدين فاذا هم اقتبسوا منها فانهم لايقتبسون ماقد يؤثر في الاسلام ، وقد تبنى خير الدين نظرية ابن قيم الجوزية في التشريع وألح على أهمية المصلحة وتغير الاحكام بتغير الازمان شريطة ان يتم ذلك باتفاق الساسة والعلماء الذين ينبغي ان ينهلوا من ينابيع الحياة الحديثة (كما هو الشأن عند الطهطاوي) وقام بمحاولة لتوحيد الشرع الاسلامي وتكييفه مع ظروف الحياة الحديثة كما حاول التوفيق بين المذهبين الحنفي والمالكي في تونس ولكنه رفض ان يقر دستوراً لتونس حين تولى رئاسة الوزراء واعتبره (كلمة لامعنى لها) لان الدستور يقوم اصلا على ركيزتين الحاكم والشعب وما كان ليفيد تونس في حالتها تلك .

واذا كان المفكرون المسلمون اصطدموا بعقبة التوفيق بين الاسلام والحضارة الغربية فان المفكرين العرب المسيحيين لم يعانوا من هذه المشكلة فقد كانوا في صف الحضارة الاوروبية ولم تكن الدولة العثمانية محط ولائهم ، وفي خلال القرن التاسع عشر انصرفوا الى دراسة اللغة العربية واحيائها وعلى رأسهم الشيخ ناصيف اليازجي صاحب(المقامات)ومن بعده عني الكتاب بجعل اللغة العربية ملائمة للتعبير عن مرافق الحياة الحديثة وتياراتها الفكرية . وقد عمل المسيحيون اللبنانيون في الصحافة وظلوا اصحاب الكلمة الاولى فيها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر في كل من القاهرة وبيروت والآستانة وبرع منهم احمد فارس الشدياق صاحب (الجوائب) التي كانت تقرأ في كل ارجاء الوطن العربي بشهادة الرحالة (دوش) وقد لمع اسم بطرس البستاني من خلال نشاطه اللغوي الادبي (المحيط ، دائرة المعارف) ، وكان شديد الحماسة للحضارة الاوروبية والفكر الاوروبي ورأى ان اهم ماينبغي أخذه من حضارة اوروبا هو ان نتعلم اهمية الوحدة الوطنية والاخاء بين الديانات والناس ومحبة الوطن ؛ والوطن عنده سورية (الطبيعية) وهو فخور بالدم العربي ولعل هذا الفخر كان بادرة جديدة في هذه الفترة ، وكذلك طالب البستاني بتبني قوانين جديدة تؤمن بالمساواة وتناسب روح العصر وطالب باحياء العربية وجعلها لغة التعليم وتكييفها وفق متطلبات الحياة الحديثة .

جمال الدين الافغاني

تدل كتابات جمال الدين على انه نظر الى الاسلام باعتباره حضارة وتأثر كثيرا بجيزو Guizo وآرائه في نهوض الامم وتقدمها وترجم ما قاله عن الحضارة الاوروبية الى واقع الحضارة الاسلامية ثم انه ألح على الوحدة الاسلامية التي كانت تعني عنده تعاون الحكام المسلمين لحفظ مصالح الاسلام لا الوحدة السياسية او الدولة الموحدة ، وقد صب هجومه على الحكام المتقاعسين والمستبدين ولكن تصوره للحكم لم يكن دستوريا بل كان يؤمن بالحاكم الفرد العادل الذي تمارس عليه الامة رقابة قوية وقد حاول معظم الحكام المسلمين استخدامه لصالحهم واكتشفوا انه يحاول استخدامهم لتحقيق افكاره فنفروا منه وتعرضوا لهجماته .

وشدد جمال الدين على اهمية العصبية الدينية والرابطة اللغوية وتصور امكان وجود دولة تقوم على العقل الانساني والقانون الالهي وكان مؤمنا بالتقاء الاسلام مع العقل وأراد فهم النصوص الدينية في ضوء العقل والفلسفة حتى اتهم بتضحية الاسلام في سبيل العقل وكانت نظرته الى الاسلام اقرب الى نظرة الفلاسفة منها الى نظرة السنة وهي لاتخلو من اتجاه صوفي ، وقد اضطر محمد عبده الى الدفاع عن اسلام الافغاني ، على ان الافغاني لم يصل بحق الى مثل اراء احمد خان الذي جعل العقل سيد الاحكام وأراد فهم النصوص والتعاليم في ضوئه فتعرض لهجوم المفكرين المسلمين وعد الافغاني افكاره مؤامرة انكليزية .

وكان الدين الصحيح عند الافغاني يرتكز الى الايمان المطلق بالله خالق خارق المقدرة وبأن الانسان سيد الارض وارفع المخلوقات وان وجوده في الارض سبيل الى الانتقال لعالم آخر وان الركائز الاخلاقية للمجتمع المتدين هي الحياء والامانة والصدق وبدونها ينحدر الانسان الى الدرك الاسفل من الحيوانية ... على ان الاسلام يؤمن بالغيب كما يؤمن بالعقل القادر على تحقيق ذاته ضمن النظام الاسلامي بل ان رسالة النبوة هي نفسها رسالة العقل والطبيعة ووظيفتها مساعدة الطبيعة البشرية على فهم القواعد التي يعلمها العقل ، والعلماء والمصلحون مسؤولون عن نشر التعاليم .

ويصر الافغاني على ان باب الاجتهاد مفتوح وان القرآن بشر بالمخترعات والعلوم الحديثة ويدعو الى الثورة على طوقي الجمود والتقليد في فهم نصوصه لأن الاسلام يعني بالدرجة الاولى الفعالية والحركة.

أما الحضارة الاوروبية فلها اصل وتقاليد ومن الصعب ان تجتزأ لأنها متكاملة وينبغي ان يكون للمسلمين موقف خاص محدد منها مبني على فهم جوهرها ، وتاريخ الاسلام يثبت ان الفضيلة والحضارة والقوة صفات متلازمة وضرورية للحياة .

والخلاصة ان المسلمين ضعفوا بسبب موجات التزوير التي اجتاحت الاسلام فأصبح يحتاج اليوم الى (لوثر) يكشف عنه الزيف وبذلك يصبح فلسفة دينية خلقية حياتية . (هل كان جمال الدين يعتبر نفسه لوثر الاسلام ؟) .

محمد عبده

اتيح لجمال الدين الافغاني من يحمل الشعلة بعده فكان تلميذه محمد عبده مفكراً أوضح منهجاً من استاذه وكان تأثيره أشد في العقل الاسلامي في مصر وما جاوزها من الامصار . وقد جوبهت اراؤه بالرفض ولكنها تسربت الى عقول الناس من حيث لايدرون حتى سارت القاعدة الاساسية للتفكير الديني عند المثقفين المسلمين العاديين .

ولد محمد عبده في الريف المصري وتلقى الدراسات اللغوية والدينية على الطريقة التقليدية وكاد ينحرف تفكيره لولا توجيهات خاله الشيخ الذي اعاده الى الايمان ثم تابع تعليمه في الازهر والتقى مع الافغاني واعجب به وأخذ عنه وتأثر بصوفيته ، وبعدها اشتغل بالتعليم وظل وفياً له بالرغم من تقلبه في مناصب عديدة اذ عمل رئيس تحرير (للوقائع المصرية) ومفتياً للديار المصرية ...

كان عصر محمد عبده أوضح وعياً من عصر جمال الدين وتبلورت فيه اتجاهات فكرية ثلاثة اولها الرغبة في مقاومة النفوذ الاوروبي الذي اخذ يتزايد ويدهم خطره والثاني الاحساس المبهم بضرورة الحكم الدستوري والثالث شعور المصريين بضرورة الخلاص من الضباط الاتراك والشراكسة الذين كانوا يسيطرون على الجيش وعلى هذه المبادىء قامت ثورة عرابي واسهم فيها محمد عبده رغم عدم رضاه عن عرابي وانتقاده له بل اتهامه بالعمل لنفسه لا لبلاده .. وبعد ثورة عرابي نفي محمد عبده الى باريس حيث التقى ثانية بالافغاني وتنقل بين باريس وبيروت حتى عين مفتياً لمصر بوساطة كرومر وهناك اخذ يحاول تطبيق منهجه الاصلاحي بالتدريج .

كانت نقطة البدء في تفكير محمد عبده الخلاص من الانهيار الداخلي للأمة الاسلامية عن طريق بعث داخلي ، وظل دائماً مع التقدم والتطور على ان يكون الدين بعقيدته وتشريعه حاديا للتطور وقد لاحظ الانقسام الداخلي الذي يعاني منه المجتمع الشرقي بين الولاء للقديم وبين تقليد الجديد الذي لايستساغ وهاجم التقليد السطحي وطلب ، كما طلب الافغاني ، أن تفهم اصول الحضارة الاوروبية ومصادرها والا ظل تقليد اوروبا هشاً لايصمد ، وأصر على تقوية القواعد الاخلاقية التي ينبغي ان تكون اساساً للتطور وقبل تغيير الحياة على ان يربطه بالاسلام وكان سؤاله عكس سؤال خير الدين الذي تساءل عن امكان قبول المسلم المخلص لطرز الحياة الاوروبية اما هو فتساءل **هل يبقى المسلم الذي يعيش في العالم الحديث مسلماً صحيحاً ؟ وحرص على تغيير الفكر الاسلامي مع الحياة الحديثة التي رأى انها تبنى على ثلاثة عناصر هي الديانة المعتمدة على العقل ، والعلم الاجتماعي ، والتشريع الاخلاقي** ، ومن واجب (العلماء) ان يبشروا بهذه العناصر مستهدفين جلاء الصدأ الذي لحق بالاسلام من جراء التقليد الاعمى وفهم الاسلام فهماً متمشياً مع روح العصر ، مع الحرص على اصلاح اللغة العربية وتبصير الشعب بحقوقه من الحاكم .

وقد عمل محمد عبده على اختيار الافكار الاسلامية في ضوء مذهبين : حفظ وحدة الامة واستقرارها وسلامتها ، والاجابة على المشكلات التي يحتدم النقاش حولها في الحضارة الغربية كالعلاقة بين العلم والدين متأثراً بآراء بلنت ورينان وستراوس وتولستوي . وأتت اراؤه تكملة لاراء الطهطاوي وجمال الدين فيما يتعلق بالتقاء الاسلام مع الفكر الحديث ودخل في جدال مع المؤرخ الفرنسي (هانوتوه) ومع الكاتب فرح أنطون ، وكانت الحجة التي استند اليها مجادلوه هي ان عملية توفيق الاسلام مع الافكار الحديثة حورت مفهوم الاسلام ومسخت الصفات التي تميزه عن غيره من العقائد وبالتالي فتحت المجال للعلمانية بدلا من ان تسد الطريق في وجهها ، وقد ظهر اثر ذلك عند عدد من تلامذته .

ومن حيث التفكير الديني المحض قسم محمد عبده امور الدين الى امور لا يمكن ادراكهـا بالعقل وامور لا حاجة بنا لمعرفتها كالامور المتعلقة بالذات الالهية ، والعقل يدرك ضرورة وجود النبوة ويتعرف الى صحة نبوة محمد ، فاذا انتهى الى اثبات النبوة فعليه ان يؤمن بكل تعاليمها وكذلك الشأن بالنسبة لمعجزة القرآن . وعند محمد عبده كما عند جمال الدين الاجتهـاد ضروري واساسي وحق للراسخين في العلم إذ أن القرآن الكريم رسم العبادات كاملة ولكنه أعطى خطوطاً عامة للمعاملات وترك للاجتهاد أن يحدد تفصيلاتها في ضوء العقل ووقائع المجتمع السـاني المثالي الذي شجع الاتراك على تقليده تقليداً غير واع معطلا للعقل ممـا ادى الى فساد العلماء وفساد احكامهم .

أما الحل فهو في اقتباس العلوم من الغرب واعادة فهم الشرع وتطبيقه على الواقع في ضوء المصلحة وتركيب تشريع جديد من المذاهب الاربعة وغيرها من الآراء (التلفيق) ، والطريق الموصل الى ذلك وضع نظام جديد للتعليم الشرعي (تولى محمد عبده تنظيمه بنفسه) .

وفي السياسة كان محمد عبده اقرب الى تصور الافغاني للامة دون الوطن المحدد ولكنه ظل وطنياً مصرياً وعرف الوطن بأنه ارض وحقوق وواجبات وحب وكبرياء ، وآمن بالتدرج في الوصول الى الحكم النيابي على مراحل أولاها تدريب الشعب على الحكم الذاتي وانشاء مجالس محليـة ثم مجلس استشاري وبعدها يصار الى اقامة المجلس النيابي على أنه آمن بجدوى الحاكم العادل لأنه يختصر مدة التطور وأقر التعاون مع الانكليز على برنامج التعليم الوطني ومع كرومر (الذي وصفه واتباعه بأنهم خير عون للمصلح الاوروبي) بشرط الاسراع في وضع المصريين في المراكز المهمة ، وقد نتج ذلك عن ايمانه بالتطور التدرج ومن هنا كان هجومه على عرابي ومحمد علي ومصطفى كامل ، وقد اقترح انشاء خلافة دينيـة يتولاها المجتهد الاكبر يعاونه رئيس دنيوي يتمشى حكمه مع حكم الاسلام .

على أن محمد عبده كان عرضة للشك في صحة إسلامه وهاجمـه كثيرون في عقيدته وايد ذلك كرومر وولفر دبلنت الذي قال عنه : « أخشى أن يكون ايمانه بالاسلام ضئيلا كايماني بالكنيسة الكاثوليكية » . وأشار الى ان محمد عبده كان متهاوناً في أداء الفروض الدينية .

على أن تدين محمد عبده كان دوماً يمت بصلة وثيقة الى افكار الغزالي وابن سينا والمعتزلة .

أتباع محمد عبده

بين الاسلام والحضارة الحديثـة كان لمحمد عبده تأثير بعيد المدى في الفكر العربي الحديث قبل الحرب العالمية الثانيـة وبالرغم من أنه أثار خصومات شديدة ظلت القضية التي طرحها على بساط الفكر العربي هي النبع الاساسي للمجادلات وشغله الفكر السياسي العربي بمشكلة التوفيق بين الاسلام والحضارة وعلى رأسهم محمد فريد وجدي ومصطفى عبد الرازق وقاسم امين الذي حاول ان يحسم المشكلة عن طريق الفصل بـين الدين والحضارة والدولة ، وقويت هذه اللهجة عند احمد لطفي السيد الذي أتى مفهومه للوطن جغرافيـاً

مصرياً دون ان يخفي عطفه على العرب ، ووضع علي عبد الرزاق مشكلة الخلافة موضع البحث وأصر على ان مهمة النبي محمد كانت التبشير بالحقيقة لا ممارسة العمل السياسي وأثار مناقشات وخصومات عنيفة ومن ابرز من رد عليه الاستاذ بخيت الذي أكد ان الامــة لا يمكن أن تعيش بدون الشريعة واحكامها ... وقد شاركت العواصم العربية في مشكلة التوفيق بين الاسلام والحضارة ففي تونس أتى بعد خير الدين مفكرون مصلحون ابرزهم محمد بيرم وفي بغداد لمع اسم اسرة الالوسي وفي سورية كان الاستاذ طاهر الجزائري وعبد القادر المغربي ومحمد كرد علي وفي طرابلس الشيخ حسين الجسر والاستاذ محمد رشيد رضا الذي كان لمجلته المنار دور كبير في نشر الفكر الاسلامي الحديث.

الاتجاه القومي في الفكر العربي

وقدم الفكر العربي بمراحل عديدة حتى استطاع ان ينتقل من القوميات المحلية في لبنان ومصر خاصة الى القومية العربية التي اصبحت موضع اجماع الفكر السياسي العربي الحديث بعد ان اهتدت الامة الى ذاتها ، ويعتبر الكاتب القرن التاسع عشر البداءة الحقيقية لتحسس العربي بوجوده القومي في العصر الحديث ويتحدث عن الكواكبي والجمعيات العربية المختلفة والبستاني ونجيب عزوري والمؤتمر العربي لينتهي الى بحث العلاقة بين القومية العربية وبين الاسلام ثم يبحث في الاتجاه العلماني الحديث للفكر القومي ويلخص آراء محمد رشيد رضا وعبد الرحمن البزاز وشكيب ارسلان وقسطنطين زريق وإدمون رباط وساطع الحصري (وهو من بين المفكرين العرب القلائل الذين عرضوا مفهوم القومية العربية عرضاً قوياً منطقياً صافياً ...)

والخلاصة ان التفكير السياسي العربي الحديث مر بمراحل ثلاث متداخلة : أولاهــا مايسميه الكاتب **(القومية الدينية)** ـ وهنا يلاحظ ان معظم المفكرين الاسلاميين كانوا يصدرون عن شعور قومي ظاهر او خفي ، والمرحلة الثانية هي مرحلة **(الوطنية الاقليمية)**.

وقد أتى تفكير هذه المرحلة قلقاً غير مستقر نظراً لارتباطه بالحدود الجغرافية التي لم تكن مستقرة في القرن الاخير . اما المرحلة الثالثة فهي مرحلة **القومية العربية** المتمــدة على الأصل العرقي واللغة وقد استقت مضمونهــا الاجتماعي من جناحين همــا الفكر التحرري الاوروبي في القرن التاسع عشر والاتجاه الاسلامي الاصلاحي الذي بشر به عبده ورشيد رضا والذي لم يكن ـ في رأي الكاتب ـ بعيداً في جوهره عن الاتجاه العلماني الحديث للقومية العربية .

ويلاحظ الاستاذ حوراني اتجاه القومية العربية قبل الحرب العالمية الثانية الى تأكيد الحريــة الفردية وضآلة البرنامج الاجتماعي ويرجع السبب الى انتساب القادة الى اسر موسرة او استطاعتهم بذكائهم الوصول الى مستوى طبقي معين مما حال دون استيعابهم للمشكلات الاجتماعية ونحب ان نضيف الى ذلك انشغال معظم القادة بالكفاح السياسي في سبيل الاستقلال الذي كان هدفهم الاساسي .

وينتهي الكتاب بخاتمة تبين مواقــع الفكر السياسي والاجتماعي في الوطن العربي بعد الحرب الثانية وانصهار المغرب العربي في تيار الفكر العربي الحديث.

وفي رأينا ان الاستاذ البرت حوراني بذل مجهودا علميا رائعا حتى استطاع جمع مادة الكتاب المتشعبة ، وحرص على الامانة في النقل ولم يتوسع في الاستنتاج والتفسير ، وما نخشاه هو ان تعجز هذه العجالة عن اعطاء فكرة صحيحة عن هذا المجهود العلمي الرصين .

مع الاستاذ وديع فلسطين

١ ـ الادباء الأوائل الذين عرفتهم

٢ ـ بين الشكل والمضمون

٣ ـ الشعر الحر ونماذج منـــه

٤ ـ رأي في المرحوم العقـــاد

٥ ـ كلمة الى الادباء الطالعين

القاهـرة

رسالة من ابي طالب زيان

يعد الاستاذ وديع فلسطين ، من رواد الحركة الادبية في مصر .

وقد تفرد في انتاجه الغزير بأسلوب سلس ، وبيان مشرق ، وحقائق علمية ، تقوم على دعامات قوية من التحليل والتركيب والعمق ، مما جعل الكثيرين يحرصون على مواصلة السير على نهجه في البحث الموجه ، والنقد العفيف البناء .

و « المعرفة » يهمهـا ، أن يعرف القراء العرب كثيراً من مشكلات الادب ، التي يجيب عليها في صراحة وفيما يلي الاسئلة التي طرحتها عليه واجوبتها :

س — اعلم أنك عشت على صلة طيبة بكثيرين من الادباء المعاصرين الكبار، فمن عرفت من روادهم، وماهو اثرهم الباقي في حياتك ؟

ج — ألفيت نفسي منذ الشباب الباكر متصلا باعلام الفكر في عصري . وكان اول من عرفت منهم استاذي الدكتور فؤاد صروف ، ثم عرفت الدكتور فارس نمر وخليل ثابت وخليل مطران والامير مصطفى الشهابي ونقولا الحداد والياس انطون الياس واسماعيل مظهر وسلامة موسى والدكتور احمد زكي ابا شادي والدكتور يوسف نحاس والدكتور امير بقطر وعلي الغاياتي والشيخ عبد القادر المغربي وعبد الرحمن الرافعي والدكتور منصور فهمي ومن اليهم وجمعتني بهم مودة وثيقة الاواصر نعمت فيها بأبوتهم الحالية وغرفت من منابع علمهم الثرة . وعرفت في ما بعد معظم الادباء الكبار ، على تفاوت في المعرفة ، كالعقاد وطه حسين ومصطفى عبد الرازق واحمد حسن الزيات ومحمود تيمور وعزيز اباظة والدكتور محمد عوض محمد ورضا الشبيبي وابراهيم عبدالقادر المازني ومحمد عبد الله عنان والدكتور قسطنطين زريق وعادل زعيتر وخليل السكاكيني والدكتور احمد امين والدكتور جميل صليبا والدكتور ابراهيم ناجي وألبير اديب وغيرهم وغيرهم . كذلك اتصلت بطائفة من رجال الاستشراق كالدكتور فيليب حتي والدكتور تشارلس أدامز والدكتور جون بادو والدكتور ادوين كالفرلي والدكتور عبد الكريم جرمانوس والدكتور جورج رنس والسر هاملتن جيب والدكتور مارتينو موريني وهيوارث دن . وعرفت في الاوان الاخير اغلب المعاصرين من ادباء المهجر كجورج صيدح والياس فرحات والشاعر القروي رشيد سليم الخوري ونظير زيتون وشفيق معلوف وعبد المسيح حداد والدكتور جورج خير الله .

والذي اعرفه من امر نفسي انني تأثرت اكثر ماتأثرت بفؤاد صروف . ولولا خشية الادعاء لقلت انني صورة مجهرية (ميكرسكوبية) منه اونقطة من محيطه . وتأثرت كذلك باستاذي خليل ثابت وهو من اعاظم الصحفيين باي معيار دولي . ثم انني انتفعت بـكل هؤلاء في ناحية او اخرى من نواحي المعرفـــة ، وان عز التحديد والحصر . ولكن اكبر ما نفعني من هؤلاء جميعاً انهم شجعوني ، واحتملوا طراوة عودي ، وشرفوني بمودتهـــم ، ووالوني بعناية ابوية اذكرها لهم في عرفان وشكران .

ومازلت اراني غير غريب عن بيئتهم ،مؤتلفاًمعهم في تفكيرهم ومناحيهم، منتمياً ولو بالنسب والاعجاب الى جيلهم ، على ما كان بيني وبينهم من فراسخ وفراسخ في السن وفي المعرفة وفي مدارج الحياة .

وأولئك هم الذين حببوا الي دنيــا الفكر ، فكانت لي فيها محاولات في الصحافة وفي الترجمة وفي الكتابة الادبية ، وفي القصة والنقد ، وفي العلم والاقتصاد . ومازلت أعيش في كنف هؤلاء فهم أئمتي ، وهم اساتذتي ، وهم اصدقائي، وهم ذوو الفضل علي ، وهم الذين أسمعوني كلمات خير ما زال رنينها ملء اذني .

س ـ هل أنت من أنصار الشكل أو المضمون في الكتابات الأدبية ؟

ج ـ في ظني أن الكاتب أسلوب وفكرة . وهناك كتّاب تجاوز معهم اذا جاءونا بأسلوب مبدع وعز عليهم ان يأتونا بفكرة جديدة، وهناك كتاب تجلهم لأفكارهم الناضجة . وان قصرت ملكتهم البيانية . أما الكاتب العظيم فهو الذي لاينشيء فصلا الا اذا استدارت في ذهنه معالم فكرة جديدة يريد ان يبسطها . فاذا بسط فكرته اختار لها اجل الاساليب نصاعة وبيانا وجلاء . ومثل هذا الكاتب يشبعنا عقلا وذوقا ويقدم للعقل طعاما شهياً في وعاء بهي . وشأن هذا الكاتب شأن الفتاة الجميلة اذ ترتدي ثوباً جميلا فتجمع بين الحسنيين . وتصيب في النفس مهويين .

فلكل كاتب رسالة ينهض لأدائها بكل قوته وايمانــه واصراره ، ورسالته هي فكرته التي ملكت وجدانه واشربت في كيانه وصارت عنده في منزلة العقيدة والايمان .

ولابد لكل كاتب ان يتميز بأسلوب يؤكد شخصيته الادبية ، ويثبت في الاذهان مقامه بين الادباء ، فان استعار اسلوب العامة ، صــار كــكاتب العرائض ، لقلمــه صريف نسمعه طول اليوم . ولكن ما أهون نتاج قلمه .

واذا كانت الفكرة هي مضمون العمل الادبي والاسلوب شكله، فأنا من دعاة الشكل والمضمون في كل عمل أدبي ، ولابد من تلازمهما اذا اريد لأي عمل من أعمال الفكر أن يخلد مسطراً على الطرس .

وقد يقال هنا : لابد من استثناء رجال العلم من هذه القاعدة ، لانهم يفهمون في المضمون ، ولكن اداة الشكل تعوزهم لان امثالهم تضعف حياتهم تلقاء الاساليب . ولكنني اعتقد ان هذه القاعدة لاتحمل استثناء ، وحتم سريانها على كل مشتغل بالكتابة ولو كان مجاله الهندسة الفراغية . فالافكار العلمية تفقد وضوحها ومعناها ان لم يحسن صاحبها عرضها بأسلوب ينقاد للضاد انقياداً سلساً وينضبط بقواعدها انضباطاً صارما. وليس هذا بمطلب عسير ، وامامنا عشرات من الامثلة على العلماء الذين تفقهوا في اللغة وجددوا في اساليبها كيعقوب صروف والامير مصطفى الشهابي وامين معلوف وفؤاد صروف وأحمد زكي ونقولا الحداد وغيرهم وغيرهم.

فالفكرة الجميلة تزداد جمالا اذا احسن صاحبها عرضها في قالب جميل الرواء مسبوك التفصيل . ولن يكون كاتب باقي الاثر الا اذا البس افكاره أبهى الثياب وحصنها من العامية والسوقية ومن الرمزية وهي ثالثة الاثافي .

س ـ لعلك من اوائل الذين تناولوا بالدرس قضية مايسمى «بالشعر الحر» وكتابك « قضايا الفكر في الادب المعاصر » سبق معظم الكتب الــتي عالجت هذه القضية ، ككتاب « اللغة الشاعرة » للعقاد وكتاب «قضايا الشعر المعاصر» لنازك الملائكة ، كما سبق كتابات ادونيس (على احمد سعيد)

والدكتور زكي نجيب محمود والدكتور محمد النويهي وغيرهم وغيرهم . فماذا ترى في هذه القضية الادبية ؟

ج ـ اني داعية تجديد متصل في الشعر وفي غيره من ابواب الفكر جميعا . ولايقول عاقل بان الادب استنفد جميع اسباب التجديد ، وجمد على وضع من الاوضاع استقر عنده وامتنعت بعده جميع المحاولات . ولكن هناك فرقاً بين التجديد الذي له اصول ثابتة في التربة ، وبين البدع التي تجيء ارتجالا وتذهب هباء .

فالتجديد المقبول في الشعر هو الذي يعترف اولا بأصول الشعر وقواعده وخصائصه التي إن ضاعت ، لم يعد الكلام شعراً . فالشعر موسيقى ووزن وقافية ومعان والفاظ وصور . ومن طاب له التجديد في الشعر ، عليه الحفاظ في المقام الاول على موسيقاه واوزانه وقوافيه ومعانيه والفاظه وصوره، وعليه بعد ذلك أن يجيئنا بمايهز ويطرب. أما اذا جاء زيد من الناس وأهدر هذه الخصائص الشعرية ، وزف الينا كلاما سقيما مثل :

دبيب فخذ امرأة ما بين إليتي رجل سأم
واعتذر للقارىء تلقاه هـذا الهراء . او اذا

جاءنا زيد آخر بكلام جاء فيه :

يمشون على برك الدمع
ذلك أن قواربهم في جفني مشدودة

أو اذا قال قائلهم :

اضاجع سريري كل يوم
اضاجعه فلا يحبل
كل يوم اقبر فيه نفسي
ومرة اخرى اعتذر للقارىء ، واذا قال قائلهم:
وأحس ديداناً تموج بها الحياة على شفاهي .
وعلى عيوني اليوم ديدان تسابق
نحو جرح للعفونة في جبيني
وتريد أن تحياهنالك مولفات خلف ذاك الجرح
في الظلمات ، في مهوى نجومي

اذا قرأنا هذا الكلام ، لم نجد فيه شيئاً من خصائص الشعر : لاموسيقى ، ولا وزناً ، ولا قافية ، ولا معاني ولا ألفاظاً منتقاة ، ولاصوراً وانما هو هلوسات لاتمت الى الشعر ولا الى الأدب ولا الى الاخلاق بأوهى الصلات .

فكيف يكون شعراً ماينكر الشعر ويتنكر لأصوله ، ثم يجيء بعد ذلك سقيم المعاني ، لا تحسن التعبير عنه الا « الديدان » و «العفونة» و « المؤلفات » و« مضاجعة السرير » و«دبيب الفخذ بين الاليتين » ! انه شعر اللاشعر ، شعر العبث بالشعر وبالقيم الأدبية ،شعر الهلوسات الدنيا ، شعر لاتستطيبه الا الديدان التي يكثرون من منادمتها والتي يفرحون لأن « الحياة تموج بها على شفاههم وعلى عيونهم » كما قال واحدهم (فالح حسن عبد الرحمن في مجلة شعر عدد ٢٢ ص ٣٢) .

ان الكلام المنسوب الى الشعر ظلماً ، قد ينسب الى الأدب شرعاً اذا حسنت معانيه وتجملت ألفاظه واستقام مبناه مع أصول الضاد. وسأكون أول من يحتفي بهذا الكلام ، وأعده من صميم الأدب الجديد المعاصر ، اذا راقت معانيه للأذواق وخلصت ألفاظه من وحشية التعبير ، واستطلت صوره بهي الأوصاف .

اقرأ ديوان محمود أبي الوفا - مثلاً - تطر بك ألوان من آيات التجديد معنى ومبنى، وتحس أنك في حضرة شاعر تؤنسك رفقته وتلهمك عشرته وتستزيد منه صوراً جمالية وحكماً فلسفية وعواطف انفعالية في أعذب موسيقى وأشهر وزن وأخف قافية وأرق لفظ وأرهف معنى .

س - ماذا ترى في العقاد ؟

ج - عرفت العقاد العظيم عن قرب، وكان آخر لقاء لي معه في جلسة خاصة بمنزله يوم ٣١ دسمبر (كانون اول)١٩٦٣ فاستقبلني بالقبلات وودعني بالعناق . والعقاد كالاوقيانوس المحيط لا يعرف له اول ولا آخر، وعسير الزامه قواعد القياس بالمتر والشبر والفتروما اليها . رجل تحالفت عليه اسباب العوز وقلة التعليم والنفي في قرار الصعيد فلا تصل اليه في أسوان ذرة من أصداء العرفان في الغرب . ولكنه استطاع بجهد اسطوري وعناد صخري ومثابرة ومصابرة وتحد جبار ان يصبح الكاتب الكبير وان ينشر سلطانه الفكري نصف قرن او يزيد قليلا . ونلخص حياة العقاد في لفظة أو لفظتين، فنقول انها « عصامية موسوعية »، ولا خلاف على ذلك حتى بين خصومه الألداء .

ولكنني، وان كنت أجل العقاد واكبره وأعظمه حياً وميتاً، فلست من عبدة الاوثان فألقف آراءه جميعاً بغير مناقشة ولا تمحيص . فكثير من آراء العقاد، ولاسيما في الادب المعاصر توافق هواي وتلقى تأييدي المطلق . ولكنه في بعض آرائه ابعث عن دافع شخصي وأسلمه الاندفاع الى الشطط، كآرائه في الشاعر شوقي مثلا، واني في حل من قبولها وان يكن العقاد قد استطاع ببراعته في الدفاع ان يكسب بعض الناس الى جانبه .

وأعظم آراء العقاد ما تعلق منها بالقيم المجردة كالحرية والفكر والجمال والحكمة والعبقرية . فهنا تنتفي أسباب الخلاف معه لانه يتكلم بسلطان الحق كلاماً منزلاً .

ولست من المؤمنين بأن هناك مدارس للادب، لأن منابع المعرفة ترامت ابعادها وتكاثرت روافدها وأنهرها، وعسير اليوم ان نصنف الأدباء الى مدارس ينخرط فيها كل من يستوفي الشروط بصرامة واستقامة صراط . ولهذا لاأعتقد ان العقاد مدرسة، كل تلميذ فيها يشبه استاذه من ناحية ما . ولكن لانجافي الصواب اذا قلنا ان العقاد استاذ كبير، والمريدون له كثيرون، والمعجبون به موزعون في أركان العالم المحتفية بالضاد . وتأثيره في هؤلاء وغيرهم تأثير لاسبيل الى نكرانه، وان عز أن يشار اليه ببنان .

فالعقاد معلمة حية باقية، يرجع اليها الباحثون والمنقبون فيجدون فيها غايتهم ويشبعون . فأدبه علم، وعلمه ادب، وفلسفته منطق، ومنطقه فلسفة، وفنه اصولي وأصوله فن، ودينه عقل وعقله دين، وهو قبل ذلك وبعده انسان عظيم يكاد، لولا الضعف البشري، يكون « سوبرمان » قليل المثال في تاريخ الفكر العربي . ورجل هذه أطراف معالم شخصيته

لايتكرر ولا يجود الزمان بمثله في كل الف الف جيل .

س ـ ماهي امنياتك للادباء ونصائحك للطالعين منهم .

ج ـ أحب لكل امريء ان ينتصح بنفسه لابغيره ، وتجارب الحياة أكبر ناصح وابلغه . ولكن اذا كان لامناص من النصيحة فقوامها ثلاثة أمور :

اولاً ـ البدء بقراءة امهات الكتب لا كتب القشور والسطح . وقد امتلأت اسواق الكتب بسيل عرم من المؤلفات والمترجمات فيها مايغري بالقراءة العجلى ويصرف عن قراءة الاصول . فليعكف الطالعون على تأسيس ثقافتهم على أسس متينة منذ البدء ، والباقي يهون .

ثانياً ـ الاتصال بالاعلام المعاصرين من رجال الفكر ، لأن صحبتهم تتفتق الذهن وتقدح الزناد . فليس هناك « جيل بلا اساتذة » كما يزعم بعض الاغرار من الادباء . انما لكل جيل أساتذة ورواد ، ومن الواجب على الطالعين ان يقروا لهم بهذه المنزلة وأن يأخذوا عنهم مايسترفدون به في حياتهم الادبية المقبلة .

ثالثاً ـ الاجتهاد في التحصيل والتأليف ، والسعي دائماً الى القيم العليا لا الدنيا ، وليكن هذا الاجتهاد خالصاً لوجه الادب . حتى وان تأخر الجزاء ، فالملاحظ ان الشباب يتعجلون الشهرة ويتكالبون على ابواب الرزق بنهم شديد ، مع انهم لو تأنوا وصبروا لجاء عطاؤهم الفكري اعمق وادسم ، ولاكتسبوا مايزيد على الشهرة ، وهو ثقة القراء وتقديرهم المبني على الصدق لا الرياء .

وآفة الطالعين الغـــرور ، فالاديب الحق لايعرف ذروة معينة ينتهي عندها فيمتلكه غرورها وتأخذه جلالتها . وانما هو ينتقل من ذروة الى اخرى ومن قمة عالية الى اعلى منها . متسنما مدارج الفكر في تواضع الزاهد واجتهاد الطالب وآفاق الفكر كآفاق الفضاء ، لاتحصر في ذهن ولا تستوعب في عقل . وأعلم علماء عصره لايرود من تلك الآفاق الا أقل القليل ، فلم الغرور ولم الادعاء ؟

وعلى الطالعين أن يجتنبوا التعصب لانه دليل على ضيق العقل ، فليس في دنيا الفكر أحكام مطلقة ، فهذا حق مطلق وذاك باطل مطلق ، وانما هنـــاك درجات من الحق ودرجات من الباطل وقد يقتربان .

وعليهم أن يتذرعوا بالامانة في بدء حياتهم وفي جميع مراحلها . فلم يحدث أبداً ان عيبت الامانة في صاحب قلم ، أما لصوص الادب فانهم وان غافلوا النقاد يوماً ، فالزمن لهم بالمرصاد ولابد لجناياتهم من ان تنكشف فتقضي عـــلى ماضيهم وحاضرهم وتتركهم هشيا .

تونس

من عبد الرؤف الخنيسي

الحياة الثقافية في تونس

ذكرى الدكتور غازي

اقام الاتحاد التونسي للمؤلفين ذكرى فقيد الأدب والفكر الدكتور محمد فريد غازي الذي مات في اليوم التاسع عشر من شهر جانفي كانون الثاني اثنين وستين وتسعمائة والف وهو في ريعان العمر وفي ذروة الشوق للحياة والذي كانت ملء دنياه مشاريع وبرامج لاتهدف الا لبعث الأدب التونسي ولتحقيق نهضة ثقافية ولخلق أدب قومي يتمشى مع واقعنا وآمالنا الاشتراكية

فمن هو الدكتور محمد فريد غازي وما هو نشاطه في مجال الفكر ؟

ولد محمد فريد غازي في عام ١٩٢٩ بتونس العاصمة داخل اسرة متوسطة الحال والمنال محافظة على التقاليد والعادات شأن الاسرة التونسية العريقة وقد زاول دراسته الابتدائية بمدرسة خير الدين والثانويـــة بالصادقية والعليا بمعهد الدراسات العليا حيث تحصل على الديلوم ، ثم بجامعة السوربون حيث تحصل هناك على الاجازة والتبريز فى اللغة العربية وادبها وفي شهر ديسمبر ١٩٥٨ تحصل على درجة دكتوراه الدولة في اللغة والأداب العربية بتقديم رسالتين الاولى فيما يقرب من الالف صفحة عن ابن المقفع ومشكلة الانسانية في الأدب العربي . والثانية تسمى رسالة تكميلية عن الشعر في البصرة في القرن الثامن ، والدكتوراه التي تحصل عليهـــا خولت له حق التدريس في الجامعة التونسية الناشئة .

ومؤلفات الدكتور غازي كثيرة جدا ، فقد كان زاخر الانتاج في جميع فنون الادب ، كتب في الشعر والقصة والمسرحية والرواية التمثيلية والاقصوصة ، والف في كل هذه الفنون كتبا لها وزنها ولا تستغني عنها تونس وهي تتطلع لمستقبل ثقافي مرموق .

اول ما اصدر مجموعة شعرية بالفرنسية عنوانها «الليل» وهي صفحات باكية شاكية كتبها وهو شاب يتحرق شوقا الى الحيـــاة . ثم اصدرت له اليونسكو كتاباً هو مجموعة نصوص في القصـــة المعاصرة اما مترجماتـــه فكثيرة لاتحصى . ترجم كتاب «النهر الحر» لرابندرانات طاغور و «سكوت البحر» لفركورو « مسافر بلا حقائب » لجون نوي ونقل الى الفرنسية كتاب «السد» وسلسلة

خصول « مولد النسيـان » لمحمود المسعدي وزير التربية والتعليم اليوم ، وكتاب « السد » اقوى اثر فلسفي رمزي يعبر عن مشكلات وجودية كبرى لا اعرف ـ فيما اعرف ـ ان شرقيا كتب عنه الا عميد الادب العربي الدكتور طه حسين ؟ .

وألف كتاب « الشعراء الصغار » وفيه يتحدث غازي ـ يرحمه الله ـ عن الشعراء التونسيين الذين ماتوا في ريعان الشباب وقالوا الشعر وتتوقع منهم تونس مستقبلا ادبيا كبيرا ، وهو كتاب يعرف بالادب التونسي وشعرائه خير تعريف .

فوفاء لهذه العبقرية التي قبرت في متوع الضحى يقيم الاتحاد ذكرى محمد فريد غازي ومن يدري؟ فربما يسعى الاتحاد التونسي للمؤلفين لطبع كتب الفقيد .. تلك الكتب الكثيرة التي تركها الفقيد وهي تحمل من هوى قلبه وعمل تفكيره شيئاً عظيماً .

ان الادباء في تونس بعضهم اكبر الاتحاد وقدره في اقامته لهذه الذكرى المجيدة والبعض الاخر تمنى ان يخرج تراث الفقيد لنور الوجود .

واني على تمام يقين من ان وزارة الشؤون الثقافية والارشاد ستأخذ بعين الاعتبار مقترحات الادباء وهي مقترحات منطقية مفيدة تصل ماضينا بحاضرنا ، وتذكر الناس الاحياء بالادباء الاموات .

رسالة المثقف في المجتمع المتخلف

يكثر الحديث هذه الايام عن الثقافة والمثقفين عن الادب والادباء ، عن كل موضوع يتصل بحياتنا الحاضرة تلك الحياة التي هي في اشد الحاجة الى اسس حياتية فلسفية منظمة . ولكن لنترك كل موضوع مهتمين برسالة المثقف في المجتمع المتخلف .

يرى رجال الحكم في تونس انه لايمكن للمثقفين ان يعيشوا اليوم في ابراجهم العاجية وتونس تتطلع نحو مستقبل باسم مرموق خائضة معركة التخلف بجميع مالديها من قوى خلاقة بناءة . ان الثقافة اصبحت للشعب وحده وان الاقطاع الثقافي والبورجوازية الثقافية قد انتهى عهدهما ولم تعد الكلمة اليوم الا لهذا الشعب الوديع المناضل في سبيل وجود اخصب . ولئن نرى البلاد التونسية شعبا وحكومة افرادا ومنظمات تهتم بالتطورات الاجتماعية من صحة واقتصاد فاننا نرى عقلية مثقفينا لم تزل على حالها تنشد الكمال ولكنها تحبذ الانعزالية . لكن الساعة دقت وتفطن النادي الثقافي (ابو القاسم الشابي) لهذا الشلل فسارع اصحابه بوصف الداء وتقديم الدواء ودعوا لاقامة ندوة متواصلة لبحث الثقافة ورسالة المثقف في البلدان المتخلفة .

ومما زاد الندوة نجاحاً انها انعقدت تحت اشراف السيدين محمود المسعدي وزير التربية والتعليم والشاذلي القليبي وزير الثقافة والارشاد ومجموعة من المثقفين الاساتذة احمد بن صالح وزير الدولة المالية والتصميم واحمد عبد السلام نائب عميد الجامعة التونسية ومحمد مزالي مدير الشباب والرياضة وصاحب مجلة « الفكر » الشهرية وسواهم .

وهكذا يتضح لنا ان الاتجاه المنشود هو أن تكون الثقافة في سبيل الشعب وان يقوم المثقف برسالته احسن قيام فلا هروب ولا انزواء ولا انطواء ولا ابراج عاجية او كما يقول الاستاذ الشاذلي القليبي وزير الثقافة والارشاد في مقدمة

« الـد » ... من خصائص الادب الكبير أن يعبر لا عن مشاكل الفرد فحسب ، بل عن حقيقة مأساة جيل بأسره ، ومأساة غيلان في الحقيقة مأساة جيل كامل من شباب تونس في اعوام ماقبل الحرب الاخيرة، طفت عليه نزعة من نزعات الفكر الغربي ترد مشكلة المنزلة الانسانيـــة الى عناصر فردية ، وتحصرها فيها ولا تطلب لها حلا الا في نطاقهــا ، فتسربت اليه قيمها العاتية وصلفهـــا الرومنطيقي الوهاج ، فشوشت نفسه ، واشعلت في قلبه الحيرة فقطعته عن اهله واستأصلتـه من ارضه ، ثم اذا هو يتساءل عن قيمة سلوكه فيعود الى اهله كالمسافر الغريب يسألهم عن سر موقفهم من الوجود وفهمهم للكون ، ويحاسب نفسه .

فكيف سيكون موقف رجال الثقافة امام هذه الآراء والنظريات وما هو دورهم في الحلقة الثانية من الندوة وهل ان ادباء الشباب سيشاركون في ذلك وهل ستستمر الندوة فتفسح المجال لبعض الاساتذة الذين تحدثوا كثيرا عن مفهوم الثقافة وقصروا في تحديد رسالة المثقف .؟

مع شعراء تونس في امسياتهم الشعرية

سحر وعطر : لنور الدين صمود

زرعت على عتبات الشباب
حقـــولا من الفل والياسمين
ورويتهـــا بالأماني العذاب
وسيجتهـــا بالمـــنى والحنين

★

ووشحتهـــا بالشذى والظلال
وضخمتهـــا بالـنى والعطـور
وعلمت ثغـــر الزهور الدلال
وكم هـــام قلبي بتلك الثغور

★

ورحت أناجي الفراش الشرود
واسكب في اذنيـــه النغـــم
وعلمته كيف يغري الورود
لتمنحـــه ثغـــرها المبتسم

★

الى ان يقول :

سأبني على البدر بيتا جميـــلا
اسيجـــه بالضيا والزهـــر
وامزج بالصبح ظل الاصيل
فيرقص في الارجوان الشجر

★

واجعل كنه الظـــلال عطور
واسكب في النور اشهى اللحون
وامنـــح اجنحـــة للزهور
فتلهو وترقص فوق الغصون

★

الى ان يقول اخيرا :

خلقت من الوهم كوناً بديع
وطـــرزته بالشذى والقبل
فازهر في الروح احلى الربيع
كلحن الأماني وسحر الأمل

★

حول بحث « الثقافة الجزائرية » لمصطفى الاشرف

باريس

من الدكتور سلمان قطايه

تحية طيبة وبعد : فقد قرأت في عددكم الممتاز الصادر في شباط عام ١٩٦٤ ترجمة لحديث كان قد نشره الصحافي الجزائري مصطفى الاشرف في مجلة الازمنه الحديثة الفرنسية حول الثقافة الجزائرية، وقام بالترجمة الدكتور ابراهيم الكيلاني.

ثم نشر الحديث في مجلة « ثورة افريقية » الصادرة في الجزائر العاصمة فأثار ضجة كبرى وتصدى للرد على ماجاء من افكار واتهامات الاستاذ مراد بوربون المسؤول عن اللجنة الثقافية في المكتب السياسي لحزب الجبهة الوطنية، فأجاب الاستاذ الاشرف بمقال آخر كشف القناع عن افكاره التي استطاع ان يموهها ويخفيها في حديثه للازمنة الحديثة . وبدا واضحاً للعيان انه من جماعة الدعوة الى ان الجزائر جزائرية وليست عربية . بل زاد فقال بما معناه ان الاحصائيات اثبتت قصور اللغة العربية في ميدان التعليم وتفوق اللغة الفرنسية عليها . ثم اشترك في المناقشة عدد غفير من المفكرين والكتاب والفنانين في الجزائر حول مشكلة اللغة العربية وتعليمها في الجزائر . وكم كان من النافع أن تترجم «المعرفة» خلاصات لتلك المناقشات لما فيها من فائدة ثمينة وعملية تلقي ضوءاً ساطعاً على الافكار المتصارعة في الجزائر .

ولعل موقف الاستاذ الاشرف هذا هو الذي دعا الرئيس بن بلا لعدم اشراكه في الحكم فالمعروف ان ابن بلا يؤمن بأن الجزائر عربية وستظل عربية . والحقيقة ان الاشرف متأثر بأفكار اليسار الفرنسي الذي يعتقد باقليمية البلاد العربية وبوجود فوارق شاسعة بين بلد وآخر وان على كل بلد ان يجد حلوله الخاصة بعيداً عن الآخرين وهذا ماحدا بمجلة الازمنة الحديثة لاختيار الاستاذ الاشرف بالذات للتحدث عن الجزائر لأن افكاره تتجاوب مع معتقداتها.

والذي احب ان الفت النظر اليه بشكل خاص هو ادعاء الاشرف بأن المسرح القومي الجزائري خاضع لتوجيهات حزبية او كأنه أداة في يد الحزب يفعل به مايشاء . والواقع ان في هذا الرأي خطأ فادحاً واتهاماً غير صحيح اقول هذا لأنني عشت في الجزائر خلال الصيف الماضي اشهراً ثلاثة كنت فيها على اتصال دائم برجالات المسرح القومي الجزائري . واستطيع ان اؤكد بأن المسرح فيها يتمتع بحرية يحسده عليها الكثيرون من الفنانين في باقي البلدان العربية.

فقد قدم المسرح الجزائري مسرحية الحياة حلم لكالديرون ولم يكن ذلك الاختيار لأن المسرح الاسباني قريب من روح الادب العربي أو لأن الكاتب إستوحى محور القصة من احدى

أقاصيص الف ليلة وليلة فحسب بل لأن مغزى المسرحية يثير انتباه الجماهير الى نقطة حساسة في تاريخ الجزائر الحديث .

ففي سياق المسرحية نرى الشعب يستنكر على الملك سجنه لولده الامير سيجيسموند وهو الوريث الشرعي للملك بسبب تفاسير المنجمين وتنبوآتهم، ثم يثور الشعب وينقذ الامير من السجن لينصبه ملكا عليه .

وقد أكد لي مدير المسارح الاستاذ مصطفى كاتب انه بهذه المسرحية يريد ان يقول بان الشعب هو الذي انقذ ابن بلا من السجن بفضل كفاحه المستمر وتضحياته الكثيرة ، وليس ابن بلا الذي انقذ الشعب ؛

والملاحظ في حديث الاستاذ الاشرف اصراره وتكراره على أهمية الفن الشعبي واتهامه لفناني بلاده باهماله وعدم الاستحياء منه . ولكن هذا ان دل على شيء فهو يدل على جهل الاستاذ الاشرف بما يجري في بلاده من محاولات فنية قيمة فهو يعيش في باريس ويقضي وقته ، شأن مدعي الثورة من البورجوازيين ، في مقاهي حي سان جيرمان دي بريه ، بعيداً عن بلاده وعن المعركة الضارية التي يقودها الشعب الجزائري في سبيل توطيد دعائم استقلاله ، ولقد تحداه الاستاذ بوربون ودعاه الى النكوص عن هذا الطريق وشبهه بالشيوعيين الاجانب من بلاد اشتراكية يعيشون في نيويورك ! بل عرض عليه القاء سلسلة من المحاضرات ونشر روايته التي ينهيها الآن بطبع جيد واسعار بخسة . ولكن الأشرف رفض . وواضح من كلامه هجومه العنيف على مراد بوربون بالذات واتهامه له بالتقليد (تقليد كاتب ياسين) وضحالة الانتاج بسبب تسلمه منصب ربما كان الاشرف يريده لنفسه !

والواقع ان المحاولات التي تجري الآن في الجزائر سيكون لها شأن كبير في عالم المسرح ليس على الصعيد العربي فحسب بل على الصعيد العالمي . واترك الرد على كلام الأشرف للناقد المسرحي المعروف « جيل ساندييه » ناقد مجلة « آرت » الشهيرة الذي نشر مقالاً في العـــدد ذي الرقم ٩٥٧ وتاريخ ٨-١٤ نيسان ٦٤ وفيه يصف محاولات المخرج الجزائري شاب كآلي ، احد اعضاء المسرح القومي الجزائري ، وقد جاء فيه « لكي يكون المسرح قومياً يجب ان يكون شعبياً بالضرورة ، لا ان يعيش على مسرحيات مقتبسة اجنبية ولا حتى على المسرحيات المؤلفة حسب اشكال مستعارة من ثقافة اجنبية مهما كانت هذه خصبة . عليه ان يبتكر اشكاله الخاصة ، ويجد تقاليد اخرى . وهذا مافهمه مخرج وكاتب شاب لما يجاوز الثانية والثلاثين من عمره ... فهو يتـــابع من اثني عشرة سنة مع الفرقة نفسها عمـــل بحث عن التعبير الذي يصـــل به الى الابداع المسرحي الحقيقي : الاصيل والمتعلق بالتقاليد العربية في آن واحد من « حكواتيـــة » ، وفن القراقوز . هؤلاء الممثلون المأخوذون بعصور التوريق العربي والموسيقى العلمية العربية الاندلسية ، وجدوا على آلاف الاميال من الفولكلور الموجود

على الساحل الجزائري وهو خليط من البربرية والعربية والفرنسية والايطالية ثقافة حقة . لقد رأيتهم يعملون في مكانهم في اعماق منطقة موستغانم ولا زلت مبهوراً ... ها هو فن سليم وحر حيث لايقدس فيه الرؤساء ... وحيث تطرح اسئلة : ماهو الانسان ؟ ما هو السيد ؟ ماهي المدنية ؟ ماهي الامة ؟ كل ذلك يتكيء على وقائع الامس واليوم . فلا نجد فيه المستوطنين الجبناء والضباط ، والزعماء ، والرجال الذين يعملون لحساب السادة ، انما نجد مشاكل اليوم العسكريون الذين لايفتؤون يتكلمون عن معاشاتهم التقاعدية وترفيعاتهم ... والمهرجون باسم الله ، والرفض العنيد لكل ديكتاتور ممكن ... اما الحفلة التي سيقدمها كآلي في باريس فقد اسماها (ماقبل المسرح) وهي في الواقع مجموعة ابحاث اكثر مما هي مسرح بالمعنى العادي .

والنقد الذي وجهه الاشرف الى المسرح القومي الجزائري بأنه يقدم مسرحياته بالعربية القريبة من الفصحى ناجم عن اعتقاده بأن العامية الجزائرية (وهي خليط غريب من البربرية والفرنسية والعربية) هي اللغة التي يجب الاعتماد عليها ودعمها بكل الوسائل . وهو بهذا ينكر على المسرح اهميته في تعويد الاذن على اللغة الفصحى وتعليم الناس على اللغة العربية الحقة . لان الحوار المتبع في المسرحيات بعيد عن اللغة العربية الفصيحة بل بين بين . كما ان تعزيز العامية يزيد من صعوبة التفاهم بين البلاد العربية عن طريق المبادلات الثقافية الشفهية كالاذاعة والافلام السينمائية والتلفزيونية ، وجولات الفرق المسرحية .

في بريد المعرفة

حول مقال دستويفسكي

جاءتني رسالة للاستاذ م. كامل كرباج من حلب تنقد الترجمة مقال دوستويفسكي عن (هنري ترويا) بقلم جورجيت حنوش أنها ترجمت L ' éternel mari بـ (مريم الازلية) . والصحيح (الزوج الخالد) . وهي رواية لدوستويفسكي ترجمت الى العربية تحت عنوان (الزوج الخالد) . وهو خطأ كان يجب ألا تقع فيه المترجمة .

أما ماذكره السيد كامل كرباج عن ظهور اسم (بوخين) في الترجمة المذكورة بدلا عن (بوشكين) فهو خطأ طباعي ، شاكرين للسيد كرباج ملاحظاته .

تعقيب وتصويب

للسيدة وداد سكاكيني المحاسني

جاء ردي في « المعرفة » على ادعاء المقال المكرور للدكتور عبد الكريم الاشتر الذي سماه « وثائق جديدة في ادب المهجر » ، في كلمة صغيرة بحجمها ، كبيرة بصدقها وحجتها ، وكان رده طويلا ، بدأ كما انتهى دون تبرير لاعادة نشره في كتابين ومجلتين ، واستدراج الاديب الكبير الاستاذ ميخائيل نعيمة في حوار قصصي بينهما لاستلال رأيه في صديقه جبران خليل جبران وشاعرية ابي ماضي ، وكان قد أبداه النعيمة منذ ثلاثين عاما في كتابه « جبران في سيرته وادبه وفنه » ورد عليه الريحاني وفليكس فارس وغيرهما من الادباء والنقاد ، فهل كانت شطارة الدكتور الاشتر في ان يعيد الاستاذ نعيمة الى رأيه القديم سبقاً منه جديدا ، وهل يعد الحديث الخاص الذي قال فيه : « لو ملك نعيمة لاسترجع ما قال كما لاح لي » وثيقة علمية تعتمد في الدراسة والتأليف ، ويعول عليها في الحكم والتمحيص ؟

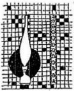
لقد بدأ الاخ الفاضل الدكتور عبد الكريم رده على تقدي بساءة وانهاه بساءة ، وهذا لا يعنيني في قليل او كثير ، لأن من شيمة الذين اخلصوا للأدب والنقد أن يقولوا الحق ويقدموا البرهان بموضوعية وانسانية ، ولا يعبؤوا بمغالطة ، وردي اليوم على المؤلف الفاضل ، أتت بسبيل العمل والكفاح للتخفف او الخلاص من طغيان الملق والتحريف والنزعة التجارية التي تغلغلت في حياتنا الادبية والعلمية ، رحمة بالقاريء الجديد ، وخدمة للجيل الادبي الناشيء ، الذي يخشى عليه من الحيرة في تمحيص الحقائق واستخلاصها ، والتفريق بين حديث مستدرج اليه مرصود وبين مطارحة فكرية حرة وسجلات وثبوت لابد منها ، فلماذا شق على الدكتور عبد الكريم تبيان الحقيقة في مقاله الذي عده وثيقة جديدة في ادب المهجر ، وقد كرر محتواه وأعاد نشره للفائدة المادية قبل أن يظهر في « المعرفة » هذا العام .

ومن عجب أن يقارن الدكتور عبد الكريم في رده بين طريقته في اخذ الحديث الخاص وزعمه بأنه وثيقة جديدة وبين دراسة الدكتور محمد مندور لأدب المهجر ، فأقحم هذا الاسم الكبير لينفذ نفسه في

التشبه به ، ولا وجه للمقارنة بين حديثه ، وبين أسلوب الدكتور مندور في بحثه وتحليله ، وهل كانت تسمية أستاذنا مندور لهذا الأدب مهموساً لأنه تلقاه عن ذويه وشوشة وهمساً من وراء البحار ، وهو لم يزايل مكانه على ضفاف النيل لاستلال اخبار تفيده في موضوعه ، ألم تكن آثار المهجريين أنفسهم والمؤلفات الموثوق بها لغيرهم ، مصادر دراسته القيمة ؟

وبعد فلو أجمع كل باطل بما لديه من براعة في تشويه الحقيقة على أن يزعم بأن الكلام الشفهي الذي يتبدل مرماه بتبدل ألفاظـــه وناقليه يعد وثيقة علمية فان ما اتفق عليه العقل والعرف أن الوثيقة لاتكون الا مكتوبة أو مسجلة ، أما قول الدكتور الأشتر بأن «البوح» وثيقة في الأدب كما يكون « الاقرار » وثيقة في القانون فهذا قياس مع الفارق ، على أن اقرار الجاني بذنبه لايكفي مالم يؤيده الشهود .

ولئن عوتبت فيما كتبت من نقد لهذا المقال دون حسبان لمكابرة صاحبــه ، فان القارىء الواعي لاتفوته هذه المغالطة ، وقد اضاف اليها اعترافه بتبرم الذي غير في حديثه ، فمرت بخاطري حكاية التشجيع الادبي قبل الاوان ، ومتاعب الادباء والنقـاد في نزق المتعجلين واصرار المكابرين على التزام الخطأ لضيق صدورهم وتورم نزاعهم ، فهل يبقى ادبنا الحديث في دراساته وآثاره منتفض الاعصاب تلقاء النقد السليم الذي لابد منه في تطور الادب وتحريره مما يعوق انطلاقه وإبداعه ؟ وان في التجافي عنه تهرب السقيم من أسباب الصحـــة ، وادبنا اليوم على اختلاف آفاقه يعاني محنة اخلاقيـــة الى جانب الاضطراب في نتاجه وحياته الموزعة .



حول السائح والترجمان[1]

من ميخائيل نعيمة الى توفيق يوسف عواد

اخي توفيق

عدت — وانت ، ال « عواد » — الى توفيق الذي عرفناه فأحببناه في « الصبي الاعرج » و « الرغيف » و « قميص الصوف » . وكانت الفترة التي انقضت مابين هجرتك وعودتك طويلة الى حد ان كدنا نيأس من عودتك . وكيف عدت؟

عدت وكأنك لم تبرح الحلبة ابدا . فها هو مولودك الجديد — « السائح والترجمان » — بين يدي . وهو يشهد بان الحرارة في قلمك هي هي . والنقمة على البطيء والفاسد والتـــافه في حياتنا هي هي . واللجاجة في طلب الاسرع والاصلح والاثمن هي هي . وما الفارق الا في انك نقلت همك بالانسان من المسرح اللبنـــاني الى المسرح العالمي حيث تحاول ان تجعله يعطي حسابا عن نفسه يبرر به وجوده كانسان .

شئت لمولودك الجديد ان يكون حواراً ، فاذا كان تمثيليـة فانها لتعتمد الكلمة والصورة اكثر من اعتمادها الحادث والحركة . وفي ذلك ما قد يقلل من قيمتها كتمثيلية ولكنك عوضت عن ذلك النقص الى حد بعيد باختيارك « الجو » الذي يجري فيه الحوار . ثم ينقلك السائح من حالة بشرية سوية الى حالة تتجاوز حدود الوعي السوي . وذلك بتنشيقه نوعاً من المخـــدرات . وهكذا استطعت ان تخلق « النحـــات » و « صوت الزمان » و « رجل المريخ » وان تجري بينهم وبـــين « السائح » حواراً تحمله ماشئت من الاحاسيس والافكار .

في خرائب بعلبك وحدها مايزود خيال الناظر اليها باجنحة تمضي به بعيدا جدا في متاهات الزمان والمكان . فكيف بذلك الخيـــال اذا اسعفته بنشقة من الكوكايين او الهيروين ؟ ثم كيف به اذا رحت تبدل في اوضاعـــه النفسانية بتبديل اوضاعه المادية ؟ وذلك ماتمكنت منه في الحوار بين السائح والنحات ، والسائح وصوت الزمان . والسائح ورجل المريخ .

كأني بك ما خلقت النحات الا لتمثل به الانسان في تفتيشه المحموم عن الاله الذي يستطيع ان يجد نفسه فيه فيطمئن اليه . فهو لاينفك يخلق الآلهة

(١) اثر صدور حوارية (السائح والترجمان) كتب الاستاذ نعيمة الى المؤلف هذه الرسالة .

ثم يحطمها لانه لم يهتد بعد الى نفسه في اى منها. ان في اعمق اعماقه ما هو اكبر بكثير ، وابعد بكثير من كل ما توصل اليه حتى اليوم يده وفكره . انه لم يبلغ بعد « نقطة الدائرة » — ذلك المحور العجيب الذي عليه يدور الزمان والمكان بكل ما فيهما من متناقضات . اما هو فثابت لايدور لانه خارج الزمان والمكان وفوق الخير والشر وجميع المتناقضات .

ثم كأني بك ما خلقت رجل المريخ الا لتجعل منه هاديا للسائح الى نقطة الدائرة . والسائح عندك يمثل كل انسان . اما رجل المريخ فيمثل الانسان المنفتح على الاله السرمدي في نفسه . وهذا الانسان يبني من نفسه هيكلا بديعا يتناسب وعظمة الاله في نفسه .

« في وحدة للوجود
لاتعرف السدود
ولا الحدود
موصولة الاجيال
مشدودة الآمال
مربوطة الآجال
بالخلود
ونعبد فيه الآله الجديد
منه انفطرنا
ومنا انفطر
عنه انشطرنا
وعنا انشطر »

في « السائح والترجمان » مقاطع لايمل القارىء ترديدها لما انطوت عليه من جمال السبك ووحدة الفكر والعاطفة . ولعل ابرزها ماجاء على لسان « صوت الزمان » في وصف تماثيل بعلبك المهشمة (ص ٤٩) ووصف « مخدع الحب » (ص ٦٠) ووصف العمال المسخرين الذين لولاهم لما قام حجر فوق حجر في هياكل بعلبك (ص ٧٤) . ثم في وصف الآلهة التي عبدها الانسان فلم ينله من عبادتها الا العبودية (ص ١١٣) وفي وصف الهيكل الجديد الذي سيبنيه الانسان المنعتق من ازدواجيته وما تخلفه من اوجاع واوهام (ص ١٤٤) .

وفي الكتاب لفتات تباغت القارىء بالسرعة التي بها تنقله من جو الى جو دون اقل تمهيد . مثلما فيها لفتات تضنيه بكثافة رمزيتها . الا انها لاتعوقه في السير معك الى النهاية التي ينشدها .

ان « ضربة المعلم » في « السائح والترجمان » هي ، من غير شك ، في انتقائك خرائب بعلبك مسرحا له . ثم هي في ذلك التشوق السحري الذي قدمته الى السائح بعيد دخوله الخرائب فاستطعت ان تنقله الى واقع غير الذي يواجه كل سائح عند دخوله « القلعة » وخروجه منها : باعة مزعجون بجلبتهم وبما يعرضون من تافه المتاع للتذكار . حتى اذا انتهى فعل التشوق عدت بالسائح الى الواقع البليد عينه الذي وجد نفسه فيه في بدء سياحته . وهذان الواقعان — واقع الوعي وواقع ماوراء الوعي — يلتقيان عندك على صعيد واحد من الزمان والمكان . فكأنك تسأل القارىء : اي الواقعين ياصاحبي هو الواقع ؟ وجوابك صريح لاشك فيه : ان الواقع الذي وراء مادرجنا على اعتباره واقعا .

لست اريد ان يفوتني التنويه بما في الكتاب من جميل « الاخراج » وعلى الاخص في نسخه الممتازة التي تكرمت علي بواحدة منها . انها نسخة مسرفة في الاناقة .

دعني ، في النهاية ، اجدد تهاني لك « بسلامة العودة » راجياً ان يكون فيها خير كبير لك وللادب الذي يعتز بك واحدا من ابنائه الاوفياء .

المنوليا في دمشق وأحاديث أخرى

تأليف : السيدة الفة الادلبي
مطابع ابن زيدون ــ دمشق

عرض وتحليل عيسى فتوح

الفة الادلبي قاصة سورية اصدرت حتى الآن مجموعتين اثنتين الاولى « قصص شامية » والثانية « وداعا يا دمشق » ، وهي اليوم تطل علينا بلون جديد من احاديثها التي القتها بمناسبـــات عديدة في كل من دمشق وحلب وبيروت ، واطلقت عليها اسم « المنوليا في دمشق » ، وهو عنوان المحاضرة الاولى التي افتتحت بها الكتاب.

والمنوليا – كما تعرفهـــا ــ « هو تعريب الكلمة Magnolia نوع جديد من الزهر الابيض الكبير ذي الرائحة العبقة » وما كانت المنوليا الا طريقاً للحديث عن سيدة اجنبية الاصل ، سيرتها اقرب الى الاسطورة منها الى الواقع ، لأنها جمعت كل الغرائب والمتناقضات والمفارقات في حياتها المديدة ... انها جين دكي الفاتنة المغامرة التي نشأت في مدينة (نورفوك) بانكلترا وانتهت في حي مسجد الاقصاب بدمشق ، بعد حياة حافلة بالعشق والتمرد والطموح ، مليئة بالنزوات والبدوات والمخاطرات ، هجرت قصر والدها المترف لتعيش على هواها ، تنتقل مـن مدينة الى مدينة ، ومن مخطبة امير الى مخطبة ملك ، وفي كل مرة كانت تنجب اولادا ! ... الا ان طبيعتها القلقة الملولة ، سرعان ما كانت تفرض عليها التبرم ، لتهرب مع من يصطفيه ضميرها ، وتختاره غريزتها الشهوانية ، مقتربة من الشرق الذي كان يتمثل لخاطرها صورة ملونة ولا ابدع ، فلم لاتنفـــذ السير الى ارض السحر والرؤى والاحلام والاساطير ، وترمي بنفسها في حضن سيد قبيلة من قبائل الصحراء ، حيث تتجلى البساطة بأوضح معالمها ... حيث الخيام والنوق والكلاب والرمـــل والقمر والسماء الصافية ؟

لقد سئمت اجواء لندن وباريس وبرلين الكئيبة المعتمة ، وعافت الوان المجاملات الزائفة في صالونها الادبي ، الذي كان يلتقي فيه نخبة من رجال الفكر والادب ، امثال : فيكتور هوغو ، والفرد دي موسيه ، وجورج صاند ، وشوبان ، وغوته ، وبلزاك .

ولم تغرها كل هاتيك الالقاب الفضفاضة التي كان يخلعها عليها الملوك والنبلاء ممن تزوجتهم ، كالليدي النبره زوجة اللورد النبره ، وزير العدل الانكليزي . والبارونة فينيجين زوجة الفارس البافاري فينيجين . والكونتيسه ثيوتوكي زوجة الامير اليوناني ثيوتوكي و ... بل فضلت على هؤلاء جميعاً عبد المتجول المراب شيخ قبيلة المراب ، وهو الرجل الذي احبته بصدق بالرغم من بدويته المغرقة ، ورضيت ان تعيش في كنفه زوجة بارة وفية مخلصة ، تغسل له قدميه وتحلب نوقه ... واستمرت على ذلك سنوات ، حتى انتقل بها الى دمشق واسكنها حي مسجد الاقصاب ، في دار عربية الطراز والبنيان ، يملأ الزهر جنباتها ، اذ كانت المنوليا احب تلك الزهرات اليها ، تعتني بها لا كما تعتني بباقي ورود الدار .

هذه هي جين دكبي التي عرضت قصتها علينا السيدة الفت في اولى محاضراتها التي القتها في دار الكتب الوطنية بحلب قبل بضع سنوات ، فجاءت امتع فصول الكتاب على الاطلاق ليس لغرابة القصة فحسب بل لتلك الطريقة البارعة في الوصف والدقة والتحليل والربط .

ان من يسمع السيدة الفة وهي تحاضر ، لابد ان يدرك مدى قدرتها على التكيف بالموضوع الذي تعالجه ، وحذاقتها في ادارة الحديث ، ويعجبني في اسلوب الفة جمال السرد ، ومرونة اللغة وطواعيتها ، فلا تقطع في التعبير ، ولا غرابة في الالفاظ ، ولا اعتباط في المعاني ...

كثيراً ما يجيد الناس نقد القصة لكثرة ما يمارسها قراءة وتأليفاً ، فيكتسب هذه الخبرة التي تعينه على فهم ابسط عيوب القصة سواء أكان في الاسلوب ، ام في الابتداء والعقدة والحل .. وهكذا يخلق عنده حس غريزي لتمييز القصة الرديئة ، ويتربى فيه ذوق نقدي شديد الحساسية . ففي محاضرة الفة الثانية عن « قصصنا القومي » استطعت ان اميز شيئاً من ملكة النقد المختبئة ، في الحكم على القصص التي استشهدت بها ، او اختارتها امثلة للقصة القومية الناجحة ... هذه المحاضرة ان دلت على شيء فانما تدل على الدقة ، والاستقصاء ، وعلى الجهد وسعة الاطلاع تناولت فيها تاريخ القصة العربية عامة ، وموقف النقاد منها ثم خلصت من ذلك الى رواد القصة القومية الاوائل في المهدين العثماني والفرنسي كجبران ، وتوفيق يوسف عواد ، وفرنسيس المراش ، صاحب (غابة الحق) . وقبل ان اغادر هذه النقطة احب ان اشير الى خطيئة ربما تكون بسيطة ، يقع فيها الكثير بسبب السرعة واللامبالاة غالباً . فيوم استمعت الى هذه المحاضرة في المركز الثقافي احببت ان الفت انتباهها اليها ، الا انه لسوء الحظ ، لم يتح لي ان اقابلها ، ولا هي فتحت باب المناقشة ... والواقع انني ما كنت ادري بانها ستطبعها في كتاب ، وبهذه السرعة .

في صفحة ٥٢ تقول : « يقول شاكر مصطفى في كتابه تاريخ القصة في سورية ان (اسكندر المراش) كتب عام ١٨٦٢ قصة بعنوان (غابة الحق) وتعتبر اقدم مشروع قصصي في الادب العربي الحديث ، وهي رمزية تتركز على مفهوم

الحرية، وتحرر الانسان من ربقة العبودية.

كتب عن هذه القصة اديب يسمى عبد المسيح الانطاكي يقول: ان اول من اقدم على تنبيه خواطر العرب على النهوض هو المرحوم (فرنسيس المراش) في قصته (غابة الحق)... وردت في الموضعين غابة الحق (بالياء).

والتناقض غير خاف، اذ ورد في المرة الاولى اسكندر المراش صاحب غابة الحق وفي المرة الثانية فرنسيس المراش صاحب غابة الحق، ولما كنت اعرف ان فرنسيس المراش هو فعلا مؤلف غابة الحق، وانه ليس في الاسرة المراشية كلها من اسمه اسكندر المراش، فقد عدت الى المصدر المذكور نفسه فوجدت ان الاستاذ شاكر مصطفى لم يذكر هذا الاسم مطلقاً، وانما نقلته هي خطأ، واستبدلت اسم فرنسيس باسم اسكندر سهواً، ذلك ان فتح الله المراش الحلبي انجب ثلاثة اولاد كلهم اشتغلوا في الادب، وهم فرنسيس وعبد الله ومريانا (١).

أما الاحاديث الاربعة الباقية فهي: رسالتان، المرأة العربية والعقيدة. من وحي اسبانيا (دمعة وابتسامة) المرأة في السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية... يدور الاول حول رسالة بعثها اليها شاب جامعي اسمه (مجيد) من دمشق، يدرس الفلسفة في القاهرة، وهو صديق ابنها (زياد) في المدرسة الثانوية، وارادت ان تخلص من الرسالة والجواب بالنتيجة التالية:

هي ان مجيد ليس الا واحداً من ملايين الشباب الضائعين الحائرين القلقين، الذين يتلمسون طريقهم الى شاطىء الامان وسط عتمة الآراء والمذاهب والنظريات، في بحور متلاطمة من التمرد والفوضى والبلبة وعدم الاستقرار... البدع الدخيلة المستوردة تغزو افكارهم، وتشل ادمغتهم عن التفكير السليم. فمجيد كان في دمشق بلباقي المذهب كأبي العلاء، فاصبح في القاهرة سارتريا وجوديا، ثم انه ينصرف عن السارترية الى الانسانية فيكره الحرب، وينادي بازالة الحدود والسدود بين الدول، فالعالم كله في نظره اسرة واحدة..

فلا قومية تفصل، ولا جنس او مذهب او لون.

وفي محاضرتها « المرأة العربية والعقيدة » اجهدت ان تشير الى ان المرأة اكثر ثباتا على العقيدة من الرجل، فلا تتلون، او تتقلب، او ترتد، ولو اوردها ذلك الهلاك... وتعرج على التاريخ العربي فتأخذ منه امثلة شاهدة على ما تقول. في: ام علقمة الخارجية التي وقفت في وجه الحجاج غير هيابة قسوته وجبروته.. وفي غزالة الحرورية التي اضطرت الحجاج ايضاً ان يختبىء في مسجد الكوفة خوفاً من سطوتها... وفي عمرة بنت النعمان، وسودة بنت عمارة، وهند بنت عتبة، والخنساء الشاعرة، واسماء بنت ابي بكر...

(١) راجع حديثنا عنها في مجلة « الثقافة » الدمشقية. السنة الخامسة - العدد الاول - حزيران ١٩٦٢ ص (٥٥).

الانتظار والمطر

مجموعة قصص : موفق خضر
الناشر مكتبة النهضة ـ بغداد

عرض وتحليل سعد الله ونوس

مشاكل حيوية للغاية تلك التي تبرق في تلافيف تلك الاثنتي عشرة لوحة التي ضمتها مجموعة الانتظار والمطر .

فمن جفاف العقم الى عذابات الجيل الذي يكتشف نفسه في غيبوبة الانسحاق والنفي ... الجيل الذي يحوك على الامل المقهور معنى وجوده، ويتابع بالتردد والتمزق مسألة مصيره . . ومن فجيعة الحلم بالواقع ، الى كآبة الحياة الراسية على حطام مواني بعيدة .. ومن السذاجات الطفولية (والمراهقية احيانا) الى ازمات الرجال في ذراهم الراجفة بالتوتر .

كل ذلك في غضون بحث ـ لاهف وصبياني ـ عن قيم جديدة يمكن ان تصنع حياة حقيقية أرحب مدى وانظف وجها . وفي الحقبة الزمنية الاخيرة كثر الذين ينهلون مادة ادبهم من مشاكلنا المعقدة المتشابكة حرصاً منهم على خلق واقعي مثمر . . ولكن في غمرة هذا الاهتمام بالواقع كانت تهدد الادباء باستمرار سقطة « الفجاجة » حين يتكفل التسرع بتشويه التجربة او تسطيحها فلا تؤدي مغزى ، ولاتنجز تأثيرا .

وقد اتخذت هذه « الفجاجة » مظاهر كثيرة

→

اما المحاضرة الخامسة فهي عبارة عن جولة في الربوع الاندلسية ، تسجل فيها انطباعاتها ومشاهداتها واعجابها لدى دخولها قصر الحمراء وقاعة السفراء ، ومسجد قرطبة ، وتبين مدى الرقي الفني الذي وصل اليه العرب في الاندلس والحضارة المادية والفكرية التي غدت اليوم موضع دهشة الزائرين على اختلاف اجناسهم واوطانهم وثقافاتهم . ولا تنسى ان تذرف دمعة حرى على المجد الذي ضاع ، وانطوى بعد ان بلغ اوجه.

وفي محاضرتها الاخيرة تتخذ شخصية المحامي للدفاع عن قضية المرأة من النواحي التشريعية ، والتنفيذية ، والقضائية ، وتطالب بجرأة ان تساوى بالرجل فتعطي حقوقها كاملة لتصبح قاضية او رئيسة وزارة . او نائبة في البرلمان ، او عضواً في المجالس البلدية ، او تعين في السلك الديبلوماسي ... هذه المحاضرة القتها في المؤتمر الخامس للاتحاد النسائي العربي الذي عقد في بيروت في ٢٦ / ١١/ ١٩٦٢ وكانت هي ممثلة سورية .. كما تناولت في المحاضرة ذاتها الوانا من نشاطات المرأة السورية في ميادين الكفاح الوطني والعمل الاجتماعي ، والثقافة ، والتعليم والصناعات المختلفة فرفعت بذلك اسم سورية عالياً .

والذي يلاحظ ان الفقة الادابي تلازم في كتاباتها خطأ واحداً ، الا وهو اظهار اللون العربي الشرقي عامة والدمشقي خاصة ، وحسبها ذلك خدمة للوطن والعروبة .

من السهل رصدها في تفكك النتاج الادبي ومعايبه وأولى هذه المظاهر هي « المباشرة » التي تعري العمل من مقوماته الفنية ، وتشابهه بالخطبـة مما يسيء الى التجربة ، ويبدد امكانيات التعبـير المخزونة فيها . والمباشرة مغرية بسبب يسرها ، وقدرتها على تفريغ الشحنات الانفعالية بأقنيـة مستقيمة وشديدة الانحدار . على عكس مايفعله التعبير الفني المتماسك اذ يسقط الانفعـالات على خفايا الاحداث يغمسها ، ويثريها بحركة داخلية تختلف جداً عما تتركه الخطبة من اهتزازات على جلد الاحساس فقط .

وبين المباشرة والتعبير الفني المتكامل تتدرج مستويات كثيرة تصنف ادبنا ، وتوقع بعض خصائصه . وموفق خضر يدرك هذه الحقيقة ، ويحاول من ثم الافلات من الشرك لكنه لاينجح غالباً ، بل يتعب سريعاً فيسقط على النغم الأخير صارخاً .. هادراً كما يفعل أي خطيب وكل خطيب . وقصص (ظل على المعبد ، والانتظار والمطر ، والآنسة الصغيرة) تجلو هذا المعنى ، وتوضحه جيداً . فالتجارب في هذه القصص غنية جداً ، ولكن عدم التريث والاجهاض الفني يضحان مضمون التجارب ، ويردمان اعماقها . ان التناقض بين وجهي الجيل (الذين يملكون قضية ، والذين لايملكون سوى تفاهتهم) وتغلغل « الحاجة الثورية » في أوصال كل الدقائق المعاشة ، وبهجة الميلاد تربط في الصمت بين الشباب ، كل هذه مشاكل جادة تدمها الصياغة ، وتفسدها .

ثم من مظاهر الفجاجة ــ وأنا لا أحاول ان اصنف هذه المظاهر ــ التهالك السريع ، الذي يتبدى في مس خارجي بـلا باطن لفكرة جيدة تكتنز بالامكانيات الواعدة . وقصة (الرجال العالقة) تمثيل طيب على هذه الظاهرة . فالفكرة هنا غنية تهيء فرصة وسيعة لابداع قصة ممتازة ، الا ان (السكب السريـع) ضيع غنى الفكرة ، واحرق السانحة مخلفاً بقايا تشير الى الاصل بإيماءة أسيفة .

أبوستار رجل عملاق . وعلى قمة جبروتـه الجسدي يتربع وحيــداً بلا رفيق .. حتى جاء الغريب .. عينان عميقتان ، وهدوء قاس ، وصمت كثيف كصمت الغابات المليء بالصخب ، بالاضافة الى تفوقه الساحق في احتساء كؤوس العرق دون تهاو او انهيـار . ويولد من احتكاك النظرات الصامت تحد أبـكم . هو ذا عمــلاق آخر .. ويتنامى التحدي حتى ينفجر نزالا غامضاً يهزم به الغريب .. ويخف أبوستار لمعاونته حين يترنـح من أبخرة الكحول . فلا تفسح له الفرصة ، قال له بصوت أجش :

ــ اذهب ..

ثم مضى يتلاشى في الليـــل . وبقي ابوستار وحيدا ، محطماً على قمته يصرخ : اني لاشيء .

وهذا الاحساس باللاشيئية المتولد من وحدة التفوق ، ثم هذا العجز عن العطاء يخططان لفكرتين رائعتين ، ومليئتين بالامكانيـات ، ولو تعمقهما الـكاتب لقرأنا قصة ناضجة حقاً .

ولكن ألم أقل : ان موفق خضر يدرك جيداً العيب الذي يهدد تعبيره . ومثل هــذا الادراك بداية طيبة للنجــاة . وثمة ثلاث قصص ترهص بالفعل لهذه النجاة . (الحيـاة تحت مظلة واحدة ــ القمة ــ الشارع وقصيدة المساء)

ففي الاولى يلتقط انسانا يسجنه المرض في غرفته الضيقة المطلة على الشارع ، فيلوك مزق احلام مضيئة تتسلق على الماضي حين كان في الجامعة ، يربطه بوفاء وثاق متين من الحب والامل، وتتفتح أمامه امداء لانهائية من البهجة والتوقع ... ثم باغته المرض ، فضحى بأنانيته .. وبطولة عبثية ودع «وفاء» ، وانسجن داخل جدران غرفته الصماء ينتظر . ماذا . ؟ الصباح الذي يحمل له مع بداية كل يوم وجه الغريبة التي تشبه وفاء بحللها المتعددة الألوان . ويوما بعد يوم تحس الغريبة بطيفه يطل عليها من الشرفة مهزولا ضعيفا ... بيد أن السماء المكفهرة ، تنهال امطارها غضبى ، والعاصفة تهز كيان المدينة ، والطيف الهزيل على الشرفة ... وينسكب المطر .. المطر الغزير مذوبا اطلالات الرجاء في العينين المحتقنتين بالوعد والانتظار .

وفي الثانية ، تتثال تجربة مؤثرة لطفل يبحث عن القمة المبهمة التي يلتقي فيها بأمه الراحلة .. سارية علم المستشفى قمة عالية .. وتتمازج القمتان . الوهمية والحقيقية ، في رغبة طفولية بتسلق سطح المستشفى تحت المطر المدرار ليساعد العم حسين في انزال العلم الابيض . البلل والريح والقمة العالية ، ثم المرض بحثاً عن الام الراحلة .. ويذرف العم حسين المحروم من الاطفال دمعة حنونة على الصغير المحموم ...

اما في الثالثة ، فيصور الكاتب تلك المهاوي التي يسقط فيها الانسان حين يصطدم الحلم بالواقع فينشقق ويتهشم . ألم يتخيل « الشاعر » ان بغداد تتهدج انفاسها ذلك المساء وهي تقرأ قصيدته ! ألم يظن أن (هيفاء) الساحرة سترتعش حناياها وهي تترنم بصور عبقريته ! ألم يحس للحظة أن قصيدته تشيله فوق العالم .. العالم بأسره سامقاً خلاقاً !

وا أسفاه ! لقد أسرف الشاعر في الحلم . ها ان بغداد لم تكترث بقصيدته ، وهيفاء لم تجشم نفسها عناء التعليق على صوره واخيلته ؟ بل هرعت الى خطيبها لامبالية به ، وبعظمته !

تلك تجارب ثلاث استطاع الكاتب أن يصورها بنجاح وبدون زلل او فجوات . وكم كنا نود لو استطاع ان يحقق نفس النجاح بالنسبة لباقي القصص .

.. ثمة ملاحظة اخيرة تتلخص في ان الكاتب يحاول اعطاء « المطر » و « القمم » مضمونا رمزيا شاملا ، يدلل على ذلك ترددهما في اغلب القصص .. واحيانا ينجح المؤلف في اغناء قصصه بهذا الترميز .. لكنه في احيان اخرى يخيب بسبب ما سميته في بداية هذا الحديث « الفجاجة » .

ولات متسعا للاستفاضة في بحث هذه النقطة .. ويكفي ان نقول : لعلنا في القريب سنقرأ قصصا أجود وأعمق للاستاذ موفق خضر ، فهو يعرف مشكلته .. وذلك نصف الطريق الى الجودة !

●

الامة — والعوامل المكونة لها

يعد هذا الكتاب الرقم الاول في سلسلة « المجتمع العربي » التي تصدرها دار الفكر بدمشق ، وهو للاستاذ محمد المبارك الاستاذ بكلية الشريعة في جامعة دمشق .

ويجث العوامل المكونة للامة وتحديد مفهوم الامة والقومية والشعب من الابحاث التي يعنى بها المهتمون بالدراسات الاجتماعية ومحل تفكير ابناء البلاد العربية لما ينتج عن الاخذ باحدى وجهات النظر المختلفة من نتائج هامة في مجال التربية والتعليم والثقافة والتفكير وفي ميادين السياسة والعمل الاجتماعي . ولذلك كان هذا البحث من الموضوعات التي تدرس في كثير من الكليات في الجامعات العربية .

وقد وضع هذا البحث في اطاره العام في منهاج علم الاجتماع في كلية الشريعة في جامعة دمشق منذ السنين الاولى من انشائها كما وضعت مادة المجتمع العربي بعد ذلك من منهاج السنة الاولى في الكلية .

وقد عرض الاستاذ المبارك هذا البحث القيم عرضاً مفصلا بعض التفصيل يستند الى مسلمات علم الاجتماع ومعالجته في ضوء نظرياته معالجة موضوعية بعيدة عن العواطف والرغبات مهما تكن تلك العواطف طيبة والرغبات صالحة .

وهذا البحث الذي يقدمه الاستاذ المبارك هو جزء من مجموع ابحاث تدور حول الامة والقومية والانسانية وما بينهما من علاقات وما يسير نحوه التطور البشري في هذا المجال من وجهة النظر الواقعية الموضوعية « التاريخية والاجتماعية » ومن وجهة النظر المثالية الخلقية من ناحية اخرى وتطبيق ذلك على الصعيد العربي مما يكشف العلاقة بين العروبة والانسانية والصلة بين العروبة والاسلام . تلك الصلة التي يحاول فصمها او تجاهلها او تشويهها بعض من كتبوا في هذا الموضوع لاسباب خارجة عن نطاق البحث العلمي في كثير من الاحيان سواء أكانت اهواء شخصية او افكارا سابقة او عصبيات خاصة او انسياقاً وراء التقليد للفكرة الرائجة او الدخيلة او المدسوسة .

رسوم دار الخلافة

الف هذا الكتاب أبي الحسين هلال بن المحسن الصابىء المولود عام ٣٥٩ والمتوفي عام ٤٤٨ هـ . وقد عني بتحقيقه والتعليق عليه ونشره الاستاذ ميخائيل عواد بمساعدة مالية من المجمع العلمي العراقي وطبع في مطبعة العاني ببغداد .

ومؤلف هذا الكتاب يعد اول من اسلم من بني زهرون ويرجع الفضل في تعلم هلال فنون

الكتابة واصول البـــلاغة الى جد ابي اسحاق ابراهيم الصابىء ، وكان ابو اسحاق يتولى ديوان الانشاء في بغداد . وله تآليف جليلة تناولت بحوثاً منوعة ضاع بعضها وسلم بعضها الآخر منها: اخبار بغداد، والاماثل والاعيان ومنتدى العواطف والاحسان ، وكتاب التاريخ ، وتحفة الامراء في تاريخ الوزراء ، والرسائل ، والسياسة ، وغرر البلاغة والكتاب، ومآثر اهله ، وهذا الكتاب: رسوم دار الخلافة . وقد الفه الصابىء في اثناء خلافة القائم بأمر الله العباسي الذي دامت خلافته من سنة ٤٢٢ الى ٤٦٧ هـ .

وللاستاذ عواد فضل مشهود في تحقيق التراث العربي ونشره ، ومنه هذا الكتاب النفيس .

القلائد ـ للشاعر محمد علي السنوسي

كتب الاستاذ عبد القدوس الانصاري في مقدمته لهـذا الديوان الانيق يقول : اعتقد ان ديوان «القلائد» سيثبت بصدوره ان الشعر العربي الاصيل الذي جمع بين الاصالة في المبنى والطرافة والتجديد في المعنى هو حي ولن يزال حياً ذا تأثير فعال في المجتمع والافراد . . يؤز النفس الظامئة الى الحياة الطامحة أزاً ويدفعهـا الى محيط العمل والنشاط دفعاً ، ويوقد فيها جذوة الحرية والحماسة ويخلق فيها الحركة والانطلاق الى الامام على الدوام.

وبعد ان يشير مقـدم الديوان الى محاولات العبث بالشعر الاصيل يقول : ولكن مايلبث ان يقف في الميــدان المجددون بحق . . الملتزمون لروح العروبة المتفتحة على الدوام ، والناسجون على منوال الاجداد في مواريث شعرهم والمجددون المبتكرون في اهداف شعرهم الحديث كصاحب ديوان «القلائد» فاذا بنغمة الشعر الجارفة تقتحم كل اذن واذا بموسيقاه الرائعة تسحر كل انسان ، واذا بروحه المتجددة العالية تخالج كل روح ذات احساس نبيل وذات تفكير اصيل .

وفي الواقع ان الشاعر العربي السعودي الاستاذ السنوسي من المؤمنين بعروبتهم ادبا ونسبا ويرى في قيمها الادبية ومثلها العليـــا ما يغني عن كل مستورد غث ومجتلب رث . والديوان مجموعة قصائد وطنية واجتماعية وقومية الى جانب قصائد اخرى وجدانية وطبيعية تلتقي كلها في فكرة واحدة ـ وان اختلفت مواضيعها ـ هي التشبث بالمثل العليا في الحياة والادب .

الوردة الحمراء ـــ تأليف اميـــل يوسف عواد

سبق ان صدر لأميل عواد مجموعتان قصصيتان الاولى عام ١٩٤٦ بعنوان « صديقة الاحراج» والثانية عام ١٩٥٢ بعنوان « رجل سياسة » اما مجموعته الاخيرة التي تحمل عنوان « الوردة الحمراء » فقد كتب مقدمتها المستشرق الفرنسي ميشال بربو الذي قال عن الكاتب :اميل يوسف عواد أنه يختلف كل الاختلاف عن كثير من الكتاب العرب الذين يعبرون عن افكارهم بجهد جهيد في عالم خيالي بعيد عن واقع الحياة . وانما هو قصاص بجوهره وهو يعي هذا الجوهر . وعلى غرار كوليت سهيـل خوري في سوريا وسميره عزام في فلسطين يعرف اميل يوسف عواد كيف يتوارى امام الاقصوصـة وكيف

(١) هو شقيق الكاتب المعروف توفيق يوسف عواد

يوحي الى القارىء الشعور بالمشاكل التي يعالجها متحاشيا العرض الثقيل وحريصا خصوصا على ان لايعلي على تلك المشاكل حلا من عنده .

ان فضيلة الحياء هذه التي يتمتع فيها الفنان . بل ان هذه الرجولة كما يدعوها مرسيل اشار لجديرة بالتنويه وهي ميزة نادرة تضاف الى مايتمتع به المؤلف من مزايا كثيرة. انها لمتعة من متع النفس ان يقرأ المرء ويعيد قراءة تلك الصفحات البسيطة المؤثرة الشعرية التي تلقي على وجه لبنان الخالد المتغير ابداً خيوطاً من هالة كلها حنان .

لامحل هنا لاقليمية ومن الصعب ان يخضع اميل يوسف عواد لتصنيف . واذا كان القارىء يتنشق من اقاصيصه شذى الجبل اللبناني الرطب المنعش حيث تجد ليا الفتاة الشاردة بيتاً مطهراً لجسدها وروحها عبر عادات وتقاليد ترجع الى الوف السنين واذا تراءى له فيها حب الشعب للخوارق البريئة والشعر الصافي ينبع من قلب الطبيعة فانه لواجد فيها كذلك وصفاً صادقاً لمساوىء مجتمع ينخره نظام مادي من اكثر الانظمة نهما وتهالكا على اللذة .

ديوانان لعبد الخالق فريد

١ - اغاني الحان القديم : قال المرحوم مارون عبود في مجموعة عبد الخالق فريد الاولى « نداء الاعماق » : عندما قرأت « عنوان نداء الاعماق » للشاعر عبد الخالق فريد تداعت الافكار ، وتذكرت المزمور المائة والثلاثين الذي لا أزال اعرفه . وكيف انساه واجراس الكنائس تقرع في السهرة بضع ضربات داعية الموارنة لتلاوة « من الاعماق صرخة اليك يارب » تخفيفاً لعذاب النفس المعذبة في المطهر وما أقرب الشبه بين المطهر الكائن في قلب كل شاب والمطهر الذي لانعلم اين هو كائن .

ولم يخب ظني حين تصفحت الديوان فقدرأيت بعض قصائده متوجه بآيات سليمانية فقلت : لقد جمع عبد الخالق فريد نزوات داوود وابنه سليمان ولكنه بكرفي التشاؤم .

وفي اغاني الحان القديم نفس اللهجة التي وجدها مارون عبود انه يقول في قصيدة « الغريب » :

واونو لعمري يمضي سدى
ويذوي سريعا كلمح البصر
أيفني الشباب الوريف الاهاب
وهاء الحياة بديع الصور ..؟

في « اغاني الحان القديم » يمكنك ان تقرأ المأساة .. مأساة الفراغ الهرم - كما يقول حارث الوفي - ومرارة الوجود بوهيمية الزمن، لعل عبد الخالق قد قذف به الى هذا الوجود رغماًعنه كما قال « سارتر » فعليه ان يتحمل ويجهد هذه الدراما. كي يقرأ بعض البشر انفسهم .

٢ - العطر الضائع

كل ما مر من حياتي وهم
وفراغ في ذمة النسيان
حسبي اليوم من زماني كأس
ونديم تضمه أحضاني

مرتفعات ويذرنغ ـ تعريب الدكتور ممدوح حقي

طبعت هـذه الرواية التي الفتها اميلي برونتي عدة طبعات في عدة ترجمات مختلفة ، والطبعة التي ترجمها الدكتور ممدوح حقي تعاد للمرة الثانية .

ومرتفعات ويذرنغ هي القصة الوحيدة التي انشأتها « اميلي » تصور الشر والخير باسلوب فريد ، خلقت فيـه شخصية البطل «هيثكاف » مثالا للشر الحاقد ، ورافقته منذ اللحظات التي التقطه فيها السيد آرنشو من الطريق طفلا غريزاً لم يعرف له اما ولا أباً ، وراقبته رفيقاً لولديه « هندلي وكاترين » حاسدا لها حاقداً عليها ، حتى قتل الاخ نهباً وصبراً ، والاخت تحايلا وحباً وعرج على ابن هندلي « آرانشو الصغير » فأفسده طفلا واستعبده شابا وثنى على كاترين الصغيرة ابنة كاترين الكبيرة فخدعها ليزوجها من ابنه « لنتون » فيستولي على اموالها وغش اخت زوج « كاترين الكبرى » فهرب بهـا ليلا ، وتزوجها مكراً وخبثاً واستولدها ابنة « لنتون الصغير » ليستولي بواسطته على اموالها واموال اخيها نكاية وحسداً ولؤما . ولا توقظ فيـه وجدانه حتى يموت حسرة والما .

وتدور حوادث القصة في الريف الانكليزي ، فترسم لنا الـكاتبة هذا الجو بعاداته وتقاليده ، مبسوطاً كالكف كأنك تعيش فيـه واحداً من شخصيات الرواية وتجري فيها مع ثلاثة اجيال : الجد والاب والحفيد ، فلا ترى فيه تطوراً قط ، كأنما جمدت التقاليد لاتتبدل ولا تتحور وهي طبيعة من طبائع الانكليز يبطئون في التطور بطئاً بليدا تخال معه انهم ثابتون لايتغيرون .

وكما تصور الكاتبة الشر في شخصيـة « هيثكاف » تصور السذاجـة في شخصية « لنتون الاب ولنتون الابن » والاندفاع الغريزي في الحب والعناد الأحمق في شخصية كاترين الام وكاترين الابنة وايزابيلا . فكأنها تشير الى اندفاع غريزة الامومـة لا شعوريا وتفجرها مبكرة في الاناث قبـل انبثاق عاطفة الابوة في الذكور وهي نظرية « بسيكو ـــ فسيولوجية » اثبتها الوقائع واكدتها الاحداث والاحصاءات .

اما اسلوب القصة فرائع جداً على تعقيده في بعض الاحيـان ولقد حاول المترجم جهده نقله بروعته في اسلوب عربي مشرق .

Le présent de L'indicatif : Essai sur le nouveau roman
Jean Bloch Michel

Pour un nouveau romam
Alain Robe Grillet

جان بلوك ميشيل :
الفعل المضارع ـ مقالة عن الرواية الحديثة

ألان روب غرييه :
من اجل رواية جديدة

كلا الكاتبين يحتل مكانة مرموقة في حقل الرواية الحديثة ، اذ ان جان بلوك ميشيل يعد كاهنها الاعلى كما ان غرييه من اكثر الناس عطفا عليها . على ان كتاب ألان غرييه ليس الامجموعة مقالات متفرقة وضعت في كتاب لذلك كانت تنقصها النظرة المتكاملة والتحليل المتزن لظاهرة الرواية الجديدة . اما جان بلوك ميشيل فلا يقف معها ولا يقف ضدها ، بل يقرر انه يصف هذه الظاهرة دون ان يصدر حكما لصالحها أوضدها وان كانت احكامه تظهر بين آونة وأخرى في ثنايا كتابه .

وكلا الكاتبين يجلو لنا ملامح الرواية الجديدة من حيث هي رفض للقصة التقليدية ولأبطالها التقليديين الذين أبلاهم طول الاستعمال . كما ان من خصائص الرواية الجديدة انها تفضل الفعل المضارع كطريقة غير الزامية لمعالجة الزمن بالاضافة الى انها تحبذ الوصف الموضوعي الذي يبتعد عن الاثارة العاطفية كي تمنع عن القارىء الاحساس بالبعد ، ذلك الاحساس الذي تثيره في نفسه المأساة ، وهي اخيراً تستبدل المونولوج الداخلي بانشاء مفكك رخو أو برؤى صلبة غير لغوية . وفي النهاية تسعى الرواية الحديثة الى دمج السينما والادب معاً .

ويميل جان بلوك ميشيل في النهاية الى اعتبار الرواية الحديثة انها « فشل ممتع » لكنه يرى ان رواية (لقاء في مارينباد) تتيح للسينما امكانيات جمالية جديدة . واعتراضه الرئيسي على الرواية التقليدية انها تعالج سأم العالم بطريقة تثير السأم . كما ان قوانينها المرعية صارمة الى حد أنها تقود الى التصنع والتكلف . ربما كان يرى أن الرواية الجديدة ـ على ضيقها ـ تستطيع ان تتطور في فرنسا فقط بعد خيبة الحرب الثانية والسنوات التي تلتها ، والتي أظهرت بشكل واضح فشل مذهب الالتزام في الادب . على أن ما يبقى للادب بعد ان تنحسر موجة الرواية الحديثة ، بعض أفكارها التي ستمنح الموجة التالية نكهتها .

إن القراء الذين تابعوا انتاج ألان روب غرييه منذ بدايته لايجدون في كتابه (من أجل رواية

جديدة) الا أشياء قليلة جديدة . غير أنه من المفيد أن تعاد قراءة المقالات المبعثرة في كتاب يضم شملها ؛ وخاصة القسم النظري منهـــا الذي تتضمنه مقالةعنوانها (الطبيعة ، الانسانية،المأساة)

ويبدو أن غرييه قد غير آراءه من بعض النواحي، فبينما كان في البداية يصر على (موضوعية الوصف الواقعي) اذا به يتجاوز هذه الناحية بدعوى ان عمل الفن لايحتاج الى اشارات واقعية مهما كانت فائدة الوصف الواقعي ، لأن هذا الوصف يمنح الرواية صبغة المواقعة ، مهما بدت هذه الصبغة وهمية زائفة ، إن عملية الفن هي مجرد البناء المحض في ذهن المبدع ، وبعد ذلك في ذهن القارىء أو الناقد . بل إن الان غرييه يذهب الى ابعد من ذلك حتى انه يرى أن جميع التأملات التي تدور حول معنى (لقاء في مارينباد) كانت دون جدوى فمن الخطأ ان نتساءل عما اذا التقت هذه الشخصيات قبلا بعضها ببعض أو أن المرأة كانت تعرف الرجل. في الفيلم نجد أنفسنا محصورين ضمن حدوده دون أن نستمد اي معلومات خارجية .

« يبدأ الرجل والمرأة في الفيلم وجودهما منذ اللحظة التي يظهران بها على الشاشة . قبل ذلك لايكونان شيئاً . وحين ينتهي الفيلم يعودان لاشيء مرة ثانية . فوجودهما رهن باستمرار الفيلم.

وهكذا فان استمرار العمل الفني الحديث لايعني ايجاز او تلخيص فترة طويلة من « الواقع » الذي جرت فيه حوادث القصة ، بل على العكس من ذلك نجد ان فترتي الزمان هاتين ـ الفني والواقعي ـ مختلفتان تماما ، ولكل منهما شخصية متميزة . فقصة مارينباد لاتجري حوادثها في عامين او ثلاثة ايام بل في ساعة ونصف فقط ... فالعمل الفني ليس تقريراً عن واقعة خارجية ، بل هو نفسه له واقعيته الخاصة به .

ويطمح ألان غرييه طموح الرسامين والنحاتين المعـــاصرين المحدثين في ابداع اعمال تكون « موضوعات بذاتها » . وربما كان هذا ممكنا في بعض حالات الرسم التجريدي او اشكال النحت غير المتميزة ولكن حتى في مثل هذه الحالات كيف يمكن لنا ان نتأكد من مضمون هذه الاعمال ؟ واذا وجدنا مصدرا نرجع اليه بشأنها ألا تكون هذه الاحالة غامضة ؟ ان مغزى « الشكل ذي المعنى » يعود في نهاية الامر الى التجربة . ولا تحيلنا التجربة الى شيء بعدها .

إن الفيلم المحشو بالألوان والديكورات والتفاصيل ، والمزوق بالموسيقى المثيرة والذي يعالج موضوعات الحب ، قلما يستطيع ان يكون موضوعاً في ذاته . إن العناصر التي يتألف منها غنية بنفسها وذات وجود ذاتي . ومن المؤكد أن العمل الفني هو موضوع مؤلف من نماذج منتقاة من عناصر التجربة . . وهذه النماذج قد تكون مكتفية بذاتها ونقية الى حد أنها لاتخدم هدفاً تعليمياً أو أخلاقياً ، لكنها لاتستطيع أن تكون شيئاً موجوداً بذاته ، في وقته الخاص ، ومستقلاً عن أجزائه التي يتألف منها . أما إذا حاولت أن تغلقه على نفسه لتجعل منه عالماً مستقلاً بنفسه فانك تكون قد استخدمت سلطة الفن من أجـــل الفن نفسه .

الفنان

ولد نذير نبعة في دمشق ويدرس حالياً التصوير وهو في السنة الخامسة النهائية في كلية الفنون الجميلة بالقاهرة ، حيث اوفد لحساب وزارة التربية والتعليم .

ولقد اشترك نذير في عدة معارض رسمية واقتنيت بعض اعماله الفنية .

اللوحة

اللوحة زيتية مرسومة على قماش وقد كانت من معروضات الخريف لعام ١٩٦٢ وتم اقتناؤهــا من قبل وزارة الثقافة (مديرية الفنون التشكيلية) وفي هذه اللوحة يبدو اسلوب نذير نبعة الواقعي والذي تأثر فيه باستاذه (عبد العزيز درويش).



محمد نذير نبعه　　طفل وجره　　

الصحافة الادبية العربية

- اضواء على الفكر الاشتراكي

المعرفة ـ الجزائر

- « اقلام » ... مجلة فكرية جديدة

المغرب

- منطلقنا الى الوحدة العربية الشاملة

الكتاب ـ بغداد

المعرفة — الجزائر

في العدد التاسع من مجلة « المعرفة » التي تصدر في الجزائر بحث للاستاذ جمال الدين بغدادي بعنـوان « اضواء على الفكر الاشتراكي » تحدث فيه عن المدارس الاشتراكية المختلفـة فيقول : ان الفلسفات النظرية كانت ولاتزال شديدة الارتباط ببيئتها وعصرها حتى ان بعض المؤرخين يتخذونها دليلا على وسط معين، ونحن لودرسنا ملابسات الاشتراكية الماركسية لوجدناها شديدة التأثر بالقرن التاسع عشر .

فاهي ملامح هذا القرن بايجاز .

أولا : سيطرت النزعة العلميـة Scientisme على الاذهان وتقديس العلم التجريبي المادي على نقيض القرن الثامن عشر الذي اتصف بالنزعة الفلسفية والدارسون لتاريخ المدارس الفلسفية يعجبون كيف ان الفلاسفة تأثروا بانتصارات العلوم الطبيعية وكادوا يحـدونها لأن العلوم حققت فوزاً ملموساً واضحـاً على عكس الفلسفة التي ظلت ارتجالية .

ويقول الكاتب : **فأغسط كونت** نفسه وهو أبو علم الاجتماع في الغرب ارتأى تقسيم هذا العلم الى قسمين : قسم التوازن الاجتماعي Statistique وقسم التحـريك الاجتماعي Dynamique وواضح ان هـذه الالفاظ مستمدة من علم الميكانيكا، و **كونت** أطلق مدلول الفيزياء الاجتماعية على علم الاجتماع قبل تسميته بالسو سيولوجيه وابرز ممثلي هـذا الاتجاه الفيزيائي

والميكانيكي في الدراسات الاجتماعية « سبير وهاريث وبارسيلو » .

ويقول الاستاذ البغدادي : ونقطة الضعف في كل هذه المذاهب الفلسفية السابقة اغفالها لاقوى عامل في الانسان وهي الارادة والملكات النفسية التي يتميز بها الانســـان دون غيره في الكائنات الحية أو الجامدة والقوانين المادية قاصرة في هذا الشأن لانها امام ظواهر مخالفة وأمام احداث تستعصي على التخريب ولايحدها مقياس ولايضمها مخبر . وعلم النفس الحـــديث نفسه رغم الانتصارات الهائلة التي اكتسبها يقف حائراً أمام شدة غموض جوانب عـــديدة في نفسية الانسان .

اما المجتمعات فارجاعها الى عوالم ثابتة تعود الى دنيا المادة وسن القوانين القارة لها والتنبؤ بصيروراتها فقد اصبحت من شيم عصر مضى حينما كان القانون العام هو التنبؤ . فمن الصعوبة اليوم أن نتنبأ بمستقبل التطور الاجتماعي بصفة يقينية مرسومة في قانون ، لأن احداث الصدفة والانحرافات التي تنشأ بالطفرة كثيرة ومألوفة في عالم المجتمع ، ومن خصائص عـــلم الاجتماع الحديث هو الاكتفاء بوصف الظواهر الاجتماعية لا وضع الدساتير والسنن .

ثانياً : ويلحق بهذا الاتجاه العلمي الفزيائي في صميم المدارس الاجتماعية ظاهرة أخرى كانت سمة جامعة وخاصة مـــألوفة ، وذلك حينما كان الرجوع « العلة الاولى » في شرح كافة سلوك الافراد والجماعات هو المرجع الحاسم في التعليل فكان العالم الفرنسي « **تارد** » مثـــلا يشرح النشاط الاجتماعي بالتقليد . فالتقليد هو القاعدة الاساسية لكل التصرفات الفردية والاجتماعية .

وبعده جاء « **فرويد** » فأعطى للغريزة الجنسية قوة سحرية خارقة تتقمص روح الافراد والجماعات وكذلك فعل تلميذه « يونغ » فأعطى لمفهوم عقدة النقص والتعويض شمولاً جامعـــاً ، وكان الدم هو روح الحضارات وخالقها عند فيلسوف النازية « **غوبينو** » . وآخر مايذكر في هذا الفيلسوف الفرنسي « **غاستون بوتول** » الذي فسر جميع الحروب بظاهرة الضغـــط الانفجاري لتزايد السكان وماركس تأثر بهذه النمطية في التفكير فشرح كل التاريخ البشري ماضيه وحاضره ومستقبله بتأثير ادوات الانتاج والعوامل الاقتصادية المحضة على التطور والثورات.

ولم يعد احد من المفكرين المعاصرين يستعمل هذه العلة المفردة التي لها أثر العصا السحرية واذا صح هذا في العلوم المادية فهيهات ان تدرك التعقيد الاجتماعي وتداخلاته وتغلغله في الماضي السحيق.

وخلاصة البحث ان الفلسفة الاشتراكيـــة الماركسية كانت بنت عصرها حينما تأثرت بالجو الفكري السائد، وهو يتلخص في هاتين السمتين:

١ - النزعة العلمية الفيزيائيـــة في المذاهب الاجتماعية .

٢ - الميل الى ارجـــاع مختلف الظواهر الاجتماعية الى علة واحدة دائمة اما حالياً فان الاتجاه في هذا الشأن هو مايلي :

١ - شرح الظواهر الاجتماعيـــة بقوانين اجتماعية مرنة فيهـــا التحفظ والتواضع وعدم البت والفصل .

٢ ـ عدم حصر العلة الاجتماعية في عنصر واحد او فكرة واحدة .

ولذلك اذا طبق الفكر الاشتراكي اليوم فلا بد من الانتباه الى هذا التطور الحاصل في التفكير الاجتماعي في القرن العشرين . فلا تؤخذ نظرياته اخـــذا بدون تبصر وبارتجالية قائمة على شروح مفكري المقاهي والحانات مابين احتساء كأس ونبز ناس .

اقلام — المغرب

« اقلام » مجلة فكرية جديدة صدرت في المغرب واشرف عليها عدد من الادباء العرب هناك ويرأس تحريرها الاستاذان احمد السطاتي ومحمد ابراهيم بوعلو ، وجاء في افتتاحية العدد الاول منها : تصدر هذه المجلة لتعبر عن احساس عميق يشعر به جل المثقفين وهـــو ان الفكر متخلف عن العمل ، وانه لا يتوغـــل في صميم المجتمع وفي أعماق الانسان المغربي . فالمثقف انما يعيش على الهامش مكتفياً بالتحليق في آفاق بعيدة هارباً من الواقع وملتمساً لنفسه العزاء في طرق مواضيع أبعـــد ما تكون عن اهتمام مواطنيه .

ان المثقف كمواطن يستطيـــع ان يدرك الامور بوضوح وان يتبين المزالق والعثرات التي يصطدم بها تيار التقدم ، مطالب بأن ينقل هذا الادراك الى غيره من المواطنين ، وان يشركهم فيه بامانة ، وان يبتدع الحلول الصادقة التي تضمن سلامة الجميع ، فأمام المثقف فرص كثيرة لاحداث تقدم في بلاده مالم ينفصل عن الجماهـــير من جهة ومالم ينفصل عن ذاته من جهة اخرى .

ان المثقف الذي يستطيع ان يؤثر في الناس هو المثقف الصادق الذي يضع نفسه في مستوى تفكيره ، **ولا يتنازل امام اي طمع او خوف** . فالصمت الذي يلوذ به المثقفون ، وجنوح بعضهم نحو طرق الانتهاز يكاد يحمل الجماهير على ان تنفض يدها منهم .

غير ان القيام بدور طليعي ليس امراً سهلاً ، اذ يقتضي جهوداً متواصلة يمكن ، مـــن الآن الشروع في بذلها .

فلا بدء اذن ، من ان يتفتح المثقفون على بعضهم البعض ، وان يدور بينهم حوار قوامه انشاء رابطة فكرية موحدة هادفة الى استجلاء الواقع وتحليله وتركيبه طبقاً لمقومات شخصيتنا ولقيم التطور الحديث .

وهذه المجلة دعوة لجميع الاقلام الصادقة لتسهم في بناء ثقافة اصيلة وهي تتعهد بأنها ستقدر كل محاولة فكرية جادة وتأمل ان تتيح الفرص لجميع المواهب الناشئة لتلتمس طريقها ولتقـــوم باداء رسالتها ولتفسح المجـــال الواسع للذين ضاقوا بصمتهم الطويل .

« المعرفة » : ترحب بزميلتهـــا « اقلام » وترجو لها الازدهار .

الكتاب ـ بغداد

تصدر هذه المجلة « جمعية المؤلفين والكتاب العراقيين » وفي زاوية « وحـــدة الفكر » كتب الدكتور عبد الرزاق محيي الدين مقالا بعنوان « منطلقنا الى الوحدة العربية الشاملة » قال فيـــه : رابطة الفكر اوثق الروابط بين

الافراد وبين الجماعات ، وهي ان لم تكن سبباً في قيام الروابط الاخرى في الاحايين فانها تعود نتيجة حتمية لها .

والادب – كفكرة في عداد الروابط – رحم بين المختلين نسباً ولساناً وزماناً ومكاناً ، فكيف به من المتفقين على كل ذلك .

والادباء العرب المعاصرون أكثر طبقات الشعب العربي التقاءاً وتفاهماً وتجاوباً واشتراكاً في المشاعر وفي الاحاسيس ، بل هم اعمق تفهماً لما بين اقطار الشعب العربي من وشائج وصلات ، وتبعاً لذلك فهم أكثر استنكاراً لفكرة التجزئة للشعب الواحد ، ذي الفكر الواحد وأبلغ استشعاراً لمخاطر التجزئة .

ولذلك فهم يؤمنون بوحدة هذا الشعب ايماناً موضوعياً لاتدفع به مؤثرات سياسية او دعوات خاصة .

وهم مسوقون الى الدعوة للوحدة بحكم كونهم ادوات تعبير صادق وبمجرد انهم مترجمون عن احاسيسهم الممثلة لأحاسيس الشعب العربي .

ولقد يبدو لبعض المفكرين من الساسة أو الحاكمين ان الوحدة بين اقطار الشعب العربي من بعد التجزئة التي مرت عليه شيء غير معقول او غير مأمول وهم بذلك يجدون مبرراً او عاذراً لقبول واقع التجزئة او الاصرار عليه .

والرد على هؤلاء واولئك ، ان هذه التجزئة الطويلة التي مرت على الشعب العربي لم تفقده شيئاً من مقومات وحدته الفكرية ولم تبلد أحاسيسه بها ، وكل ما في الأمر ان غمرة من التاريخ مرت عليه كما تمر على كثير من الشعوب افقدته القدرة على الاستجابة لمشاعره ، والانطلاق مع سجيته ولكنها لم تفقده مشاعره ، ولم تضعف احاسيسه . بل زادته شعورا بالحرمان ورهفا للوجدان ، وحنيناً للوحدة وتطلعا اليها ، ونزوعا قويا الى كشف الغمرة والخلاص منها والعودة الى سيرته ومسيرته .

وهذا الذي يبدو لبعضنا ليس الا بقايا السنة تغشى بعض العيون .

الكلمة التي تنطلق في أجواء المغرب يتردد صداها في أجواء المشرق العربي والفكرة الناضجة في بلاد المشرق العربي يجتنيها القارئون في بلاد المغرب العربي والشاعر المجيد ينظم قصيدته في أي قطر من اقطار العربية وتنشدها القلوب والالسنة في كل الاقطار العربية . والكتاب الذي يعالج مشكلة في قطر من اقطار العربية يجد طريقه الى القارىء العربي والمكتبة العربية حيث تكون .

ان وحدة الفكر ووحدة اللسان ووحدة المشاعر تلغي الابعاد والمسافات وهما حقيقتان واقعيتان فأنى لها ان تعترف بالحدود ودوائر الجوازات وهما مختلقتان مصطنعتان .

اننا لا نؤمن بالتجزئة لان أفكارنا لاتؤمن بها ، ونضيق بالتجزئة لان مشاعرنا تضيق بها ، ونقاوم فكرة التجزئة لانها فكرة لاواقع لها في نفوسنا وعقولنا ومشاعرنا ان فكرة التجزئة فيها تبدو لنا اسطورة متوهمة لاظل لها من واقع ولا مكان لها في عقل . بل هي اسطورة على وهميتها مرعبة مخيفة لنا ، لانها تعني الغاء عقولنا وتبليد مشاعرنا . بل تعني اعتلال وجودنا السوي وتنتهي بنا الى ظهورنا امام العالم في صورة هي مشوه منكوس تتحرك اجزاؤه اشلاءاً .

يقدمها
صلاح
الدهني

المهرجانات تقترب ..

أقبلت الهبات القائظة تنذر بقدم الصيف. وصيف الناس ، هو ربيع السينما .

فالصيف هو موسم مهرجانات السينما ، تلك الاعياد الكبيرة الدورية التي تزغرد فيها آلهة الفن أوتولول .

فمن برلين ، الى كارلسباد ، مدينة الحمامات المعدنية الشهيرة في تشيكوسلوفاكيا .. ومن كان الى لوكارنو الى البندقية ، حتى ماردل بلاتا في أقصى الجنوب من امريكا اللاتينية .. تنعقد رايات المهرجانات .

ويبدأ التنافس ، والعراك – السلمي – بين آخر ما انتجته عبقريات الفن السابع في العالم كله وتدور محاورات ومناقشات تضع النقاط على الحروف حول أهم موضوعات الساعة في مجالات السينما المختلفة : البديعية والتقنية والفكرية والاقتصادية .

ويلتقي القاصي بالداني من الفنيين والفنانين ، فيتدارسون قضاياهم ، ويتبادلون التجارب ، وينقدون وينقدون .

ويهجم جماعات المتفعين من نتاج الآخرين.. مستثمرو المواهب ، المتجرون بالفكر.. فينتقون الفرائس ، وينقضون على السمين على الطرائد.

وتبين آخر الوثائق الآتية من المهرجانات ان بعضها قد استحدث وسائل جديدة في اكتساب المشتركين من الدول الاجنبية .

وبالطبع ، لكل وسيلته ، التي تدل عليه .

فمهرجان برلين الغربية ، أوجد سوقاً للافلام لتسهيل المبادلة واسباب المتاجره .

في حين أوجد المهرجان التشيكي مادعي « بلقاء صناعات السينما الفتية في آسيا وافريقيا » ويجري هذا اللقاء ،حيث تعرض أفضل افلام صناعات السينما الناشئة في بلدان آسيا وافريقيا الى جانب مهرجان السينما الدولي في كارلوفي فاري.

وفي مهرجان البندقية ، استبعدت الافلام

القصيرة إطلاقاً ، من مزاوجة الافلام الطويلة في مهرجانها الكبير الشهير ، وبات للافلام القصيرة مهرجان ، اولأقل على الأصح مهرجانات، حسب صنوف الافلام القصيرة وانواعها :

فثمة مهرجان دولي لافلام الفن .

ومهرجان دولي للافلام التعليمية .

ومهرجان دولي للافلام الوثائقية .

ومهرجان دولي للافلام العلمية .

أفلا يؤكد هـذا كله ان عصرنا هو عصر الاختصاص .

أعياد الناس .. مآسي السينما

الفترة التي انقضت ، فترة احتفالات قوميـة وأعياد دينية .

وفي فترات الاعياد ، تعمل لجان الرقابة على الافلام على نحو مستمر .. انها لاتـكاد تجد وقتا للراحة . فهي مجندة للرقابة في الليل والنهار ، في ايام العمل وايام العطل . والافلام كثيرة ، والخير ـ ولله الحمد ـ وفير! ولكن ياله من محصول!

احكموا مع ذلك بأنفسكم : افلام هندية ، افلام ايطالية ، افلام عربية ..

والافلام عند مصلحة الجمارك تزان بالكيلو ، وتدفع الرسوم بالوزن .. على قدر الحمل ، تحصل المبالغ . واذا كانت الافلام الجيدة هي الاستثناء (على لغه بريخت ، وجماعتنـــا من البريختيين) فالافلام الرديئة هي القاعدة . لذا كانت مصلحة الجمـــارك على حق عندما صنفت الافلام في جملة البضائع . ولهافي العيد أن تهنأ وتفرعينا ، فالبضاعة وفيرة ، ووزنها بالقناطير ، لا بالكيلوات .

ولو ان المرء كان يحيا في كهف ، ومرت به تلك الافلام، بما تحويه من غث ، وما من سمين.. من ضحالة وما من عمق ، لو ان المرء كان يحيـا في كهف لعرف سبب تدني المستوى . فتلك فترة العيد ، ياسادة . وفي العيد يستوي الحلو والمر والحنظل. أليس الكبار في شغل عن دور السينما ، بالاحتفالات والزيارات والمعايدات والواجبات ؟ أليس زبائن السينما هم الصغار والاطفال ، ومن هم في حكمهم ممن استطالت سيقانهم وضمرت احلامهم؟ اذن ، فلتنتهز الصالات الفرصة ، فتقدم كل ماهو عاثر بائر من الافلام . فلتعكس الشاشات أدنى ماعندها ، هاتوا جميعا أردأ المناظر والمشاهد التي تفتقت عنها مصانعكم واذهانـكم المريضة . ان السينما عنـدنا في عيد والعقل في اجازة . فليلعلع الرصاص في القاعات المعتمة ، ولتقهقه الاشداق الخربة ، ولتحكوا لنا اسوأ القصص . فالجمهور جمهور اطفال .

ومن هم الاطفال ؟ أليسوا تلك الفئة التافهة ، السخيفة ، الضعيفة من الشعب ؟ أليسوا عاطلين من العقل والذوق والفهم والمقدرة على الفهم ؟ وما داموا كذلك ، فليزدادوا ضلالا على ضلال ، ولتفقأ الشاشات عيونهـم ، وتخرب ضمائرهم ، وليكن غذاؤهم كل سموم الارض . .

الفترة فترة اعياد .. والافلام كثيرة والخير وفير ، ولجان الرقابة تعمل ولاتفتر ، في الليل وفي النهار ، أيام العمل وايام العطل .

ويمر الكبار أمام دور السينما ، فيغشاهم العجب من المستوى المتدني . ان عيونهم لاتصافـح الا

أسوأ الصور والمشاهد على الاعلانات .فيشيحون بالوجوه ويمضون .

أما الصغار .. تلك الزهرات اليانعات ،ربيع كل عائلة ، آمال الوطن ، مستقبل الامة .. فانهم يمدون الايدي الطرية بالقروش الدسمة ،ويلجون الصالات ويسلمون انفسهم بريئة لحكمة الكبار وضمائرهم .

اخيراً .. ترن الاجراس ،وتنطفىء الانوار. ويدور الفيلم . .

وعلى الاطفال ـ اطفالنا جميعاً ـ تدور الدوائر!

السينما والتلفزيون .. ثانية

هنالك نقاش كبير قائم حول امكانيات التلفزيون وأثره في مستقبل السينما . والنقاش دائر منذ السنوات الاولى لما بعد الحرب ، وقد اشترك فيه عدد من المفكرين والنظريين والنقاد السينمائيين في اوربا وفي امريكا والعالم اجمع . فكانوا مابين متشائم فيما يخص مستقبل السينما ، ومابين متفائل . ففئة تقول ان التلفزيون بانتشاره المطرد سيقضي لامحالة على السينما ، وفئة تقول ان التلفزيون لايمكن ان يقضي على السينما .

ومؤدى هذا النقاش ، أن الناس من مقتني التلفزيون لن يكونوا في غنى عن السينما رغم ان في مكنتهم ان يروا على شاشة التلفزيون مختلف انواع الافلام دون ان يغادروا عتبة بيوتهم.

لنفرض اني اقتني جهاز تلفزيون واني اقطن مدينة او منطقة فيها محطة تلفزيون. يقول النظريون اني لن استغني عن السينما لان متعتي بالفيلم الذي اراه منفردا في بيتي ، تختلف عنها بالفيلم ذاته أراه صحبة جمع من الناس تضمهم دار سينما .فانا اذ احزم أمري على الذهاب الى السينما اتهيأ لتقبل متعة ارفه بها عن نفسي واتعلم فيها شيئا جديداً وانا اسير الى الصالة .. وادفع من جيبي .. ثم آخذ مقعدي وحولي نفر من الناس كبير جاءوا كلهم لتقبل المتعة ذاتها. انا الان في الصالة غيري في البيت او في الشارع. ثم ،هاهي الانوار تطفأ وهاهو الفيلم يبدأ ، وتبدأ معه مسيرتي الى دنيا اخرى وحياة أخرى، كما تبدأ ردود الفعل التي يثيرها الفيلم في مجموعة الناس.

إن هذه الامور كلها ، ليست تتهيأ على النحو ذاته في البيت امام شاشة التلفزيون . لذلك يعتقد النظريون ـ في خطوة تالية ـ ان السينما ستميل الى تحسين انتاجها من الافلام ورفع مستواه ، من جراء مزاحمة التلفزيون ، وانهما كلاهما سيميلان الى التخصص .

فالسينما بعد فترة من الزمن يعم فيها انتشار التلفزيون لن تقدم نشرات اخبارية لان التلفزيون يكون قد سبقها الى ذلك في اليوم الفائت ، او أنه في احيان ، يقدم الحادثة ساعة وقوعها ، على طريقة الريبورتاج الاذاعي (في حفلات الرياضة مثلا او الاستعراضات او المؤتمرات او الاجتماعات المهمة) .

كما ان التلفزيون لن يقدم افلاماً سينمائية طويلة بل سيقتصر على نقل التظاهرات الفنية والادبية والسياسية وما هو من هذا القبيل ، وانه سيقتصر على تقديم فصول تمثيلية قصيرة من نوع يحدده تطور فن التلفزيون نفسه في ميله نحو التخصص والتمايز ، فلا يكون عالة على فن السينما ولا عالة

على فن الاذاعة . وعلى هذا ، فان الفترة الحالية هي فترة قلق بالنسبة للسينما والتلفزيون معا. وهذا القلق هو الذي يؤدي الى هذا النوع من التداخل والحاك الذي ينساق اليه اصحاب هذه الصناعة او تلك للحفاظ على كيانها . اننـــا نعيش فترة تمخض صعبة نرجو ان تؤدي الى خير وبركة ، لان كل تمديد وتطاول يكونان حتما على حساب الجمهور نفسه .

أما أن يكون التلفزيون على وشك ان يقضي على السينما فذاك امر بعيد الاحتمال . وقد كان يسع الكثيرين ان يتصوروا ذلك في بلادنا قبل ان ندخل بدورنا عصر التلفزيون . الا اننا بعد خمس سنين من متابعة برامج التلفزيون اصبحنا نؤمن ايمانا جازماً بأن السينما باقية ، وان التلفزيون قد يكملها ولكنه لن يأخذ مكانها .

واما عن نقص رواد دور السينما مع انتشار التلفزيون ، فستخف وطأته في وقت قريب، لأننا يجب ان نحسب في ميدان الصورة الناطقة المتحركة حساب ماحدث في ميدان الراديو في ايامه الاولى فسيأتي على الناس حين يبلغون فيه درجة الاشباع من شلال الصور المتدفقة من شاشة التلفزيون ، واذ ذاك يعمد المشاهد التلفزيوني الى انتقاء البرامج وتخير ما يهمه منها ، مثلما بات يختار ما يهمه من برامج الاذاعة .

فاذا استطاعت صنـاعة السينما ، في الوقت المناسب ، أن تثبت بانتاجهـا قدرتها على ابداع افلام جديرة برفع اسمها ، فان عدد روادها سوف يزداد من جديد مافي ذلك ريب .



١ ـــ لو رآنا الناس معاً

تـــأليف كلودبال
ترجمة نجاة قصاب حسن
اخراج سليم قطاية

٢ ـــ ماكبث

تأليف شكسبير
اخراج رفيق الصبان

عرض وتقديم : عدنان بن ذريل

لو رآنا الناس معاً .. مسرحية اجتماعية ، انتقادية ، للكاتب المسرحي الفرنسي كلود بال ، عالج فيها مشكلة ، من مشاكل المجتمع الاميركي ، وهي العنصرية ، والتمييز العنصري ، فمزج فيها التقرير بالتحليل ، والوصف بالانتقاد ، والجد بالهزل ، وخاتمتها مفجعة ، تنتهي بانتحار البطل ، ومن هنا فهي ميلو درامة عنيفة ، مؤثرة ..

انها ، في أساسها ، سردية ، انتقادية ، تقوم على السرد ؛ والانتقاد ، وتقص علاقـــة حب نشأت بين فتاة عمياء ، سيسيـل ، من البيض ، وبين زنجي ، يعمل حطاباً ، هو دافيس ؛ اذ يضطر الزنجي ، دافيس ، ان يلجأ الى كوخ الفتاة ، اثر اصابته برصاص أحـــد رؤساء الشريرين ، فتنشأ بينه وبين الفتاة علاقة حب متبادل سرعان مايصطدم بالتقاليد ، والعادات ، وعلى الخصوص التمييز العنصري .

الا أن الحبيبين المتفاهمين ، يتحديان في سبيل حبهما كل تقليد ، ويصممان على الزواج ، رضي المجتمع ، أم رفض .. الا أن الرأي العام والصحافة يتدخلان في الموضوع وتستمر معاكسات المجتمع للخطيبين ، في مواقف تظهر لنا آفات التمييز العنصري ، الى ان ينهار الزنجي ، دافيس أمام دس صحفي ، يوحي أن حبيبته التي اجرت عملية لاعادة البصر لها ، لم تعد تحبـــه ؛ فيقرر الزنجي ان يرحل عن البلد ؛ الا انه ينتحر في الغرفة المجاورة .. وتعود الفتاة من المستشفى ؛ وتفشل العملية في اعادة بصرها لها .. فتسأل عن خطيبها ، المنتحر في الغرفة المجاورة ، ولا يجيبها الاصدقاء من حولها الا بالبكاء ، والنشيج .

الموضوع لاشك عنيـــف ، مؤثر ؛ تتسلسل فيه الاحداث ، والمواقف عن الحب ، والعنصرية ، وصراعها ، في الانفس ، وفي المجتمع ، حتى



رضوان ساطي ، يعقوب ابوغزالة ، هيلدا زخم ، ثناء دبسي ،
محمد خير حلوان ، رفيق سبيعي في منظو من مسرحية (لو رآنا الناس معاً)

الخاتمة المفجمة ، والتي هي نتيجة من نتائج العنصرية والتمييز العنصري البغيض . .

وفي الحقيقة ان العمـــل المسرحي شيق ، وحار ؛ يظهر مساويء العنصرية ، وثقلها على النفوس ، وعمل المجتمع على مكافحتها ، او ايضاً استغلالها .. وقد ملأه المؤلف بالحوار الذكي ، والانتقاد الجريء ، والمشاعر المشبوبة ..

الا ان الخاتمة المفجعة جعلته اقرب الى الافتعال ، منه الى مقارنـــة الواقع .. وكان اولى بالزنجي أن يتريث في حبه ، أمام دس الصحافة ، وقرناء السوء ؛ وكان يمكن للمؤلف مداراة هذا الموقف في اتجاه الواقع ؛ علاوة على ان القفلة الختامية بالانتحار ، او ايضاً الهلع للانتحار ، كثيفة ، عنيفة ، مركزة . .

وفي الحقيقة ، أني احـــل النص ، وليس الاخراج ، مغبة العنف ، والتشتت اللذين ظهرا على العمل المسرحي ؛ ذلك ان الموضـــوع متداخل ، متشابك ، مكثف ، وعنيف ، مليء بالسرد ، والانتقاد والشعر ..

كان الاخراج الذي قام به المرحـــوم سليم قطاية ، وأكمله علي عقلة عرسان ، واقعياً ، ! بسيطاً ، مع السرد ، ومع الانتقاد ، مع اللمحات الذكية ، والوصف الجريء .. ورغم اننا كنا نشعر بعـــذاب هؤلاء المكدودين ، بقدرهم ،

وبثقل التمييز العنصري ؛ الا اننا فقدنا الفائدة العامة في المسرحية ، وعلى الخصوص لجريمة الدس وما اعقبها من انتحار ..

التمثل على العموم ، من مستوي جيـــد ؛ وقد تفوقت (ثناء دبسي) سيبيل ، في دورها ، واستطاعت تقمص دور هذه الفتـــاة العمياء ، العاشقة ، في مغالبتها عجزها ، وتحديها التقاليد ، ومداراة حبها ، وحبيبها ؛ كما تفوقت (هيلدا زخم) في دور صديقتها جاني ، الذي وفرت له البساطة ، وحسن التعاطف ..

ولكني أخذت على (رفيق سبيعي) ، روي صديق دافيس ، تعجله في أدائه ، في بعض الاحيان .. مما أربكه ولعثمه مع انه اجاد دوره حق الاجادة .

أما (محمد خير حلواني) دافيس ، الزنجي العاشق ، فقد دلل على بسالة ، ودقة ، واندماج مع الدور ، في مجموعه .. ألا ان الشاعرية كانت تخونه في بعض المواقف ، في حين كانت أدوار (يعقوب أبو غزالة) القس الزنجي ، و(رضوان ساطي) القس الابيض ، و (عدنان عجلوني) المحامي ، و (سليم حانا) الصحفي ، جيدة ، وعلى مستوى القضية ...

الديكور جيد ، بسيط ، وعادي ؛ في حين الموسيقي ضعيفة ، ولم تكن تكفي المواقف المختلفة ، أو تفيها حقها من الايحاء ، والتعبير ،

* * *

أما المشاركة الجدية ، الرصينة ، التي شاركت بها فرقـــة التلفزيون المسرحية ، في الاحتفال بالذكرى الاربعمائة لولادة الشاعر الكبير وليم شكسبير فكانت مشاركة قيمة .

كان شكسبير بفضل ما أوتي من شاعرية خلاقة بصيرة ، يعالـج في موضوعاته المختلفة ، قضية الانسان كأنسان ؛ ويرتفع من الجزئي ، والمحلي ، الى الكلي ، والعالمي ؛ ينصف حيوات النفوس ، وازماتها الكبرى ، ومآسيها ، أو يصغي الى همسها ، وبوحها . .

و (ماكبث) مأساة تاريخية ؛ تقوم على عنصر غيبي شيق ؛ وهو تنبؤات الساحرات ، والتي تخبره بأنه سيصبح ملكا ، فيركن لها ، ويقتل لذلك ، تحت تأثير زوجته الشريرة الملك دنكان ، ضيفه . .

ويرجع ماكبث اثرها ، الى الساحرات ، فيخبرنه بأنه لن يهزم حتى تتحرك غابة برنم ، ويقتله رجل لم تلده أمرأة ؛ ويكون بالفعـــل ان يهجم ما لكولم ، ولد دنكان بجيش انكليزي متستراً بأغصان الغابة ويحاصره في قلعته ، حتى اذا ما اقتحمها ماكدوف احد قواد دنكان ، اخبره بأنه اخرج من بطن امه بعد موتها ، ثم يعاجله بضربة قاضية . .

وقد حرك الدكتور رفيق الصبان شخوص المسرحية ، ببساطة ، وشاعرية ؛ معيراً اهتمامه لحركة المسرحية ، بقدر ما اعاره لتأزم المواقف وازمات النفوس ..

ولكن الذي لفت النظر هو الديكور ، والاثاثات فيها ؛ فالديكور لم يتبدل من اول المسرحية الى آخرهـــا ؛ مع انها تجري في الفلوات ، والسهول ، والقلاع ، والقصور ،

والمقاصير ، وساحات القتال ، والمدن ، والارياف . وكان أولى لو اعار الاخراج الديكور اهتمامه ، ففصله ، ونوعه ، كل مشهد حسب متطلباته ، ولو باستعمال الستائر .. الامر الذي افسد بعض المواقف ، الهامة فيها ..

الالبسة متقنة ومعبرة ،ولكن كان لا داعي لاستعمال خوذة ما كبث ، التي كان يرتديها قبل تتويجه بعد التتويج , او يصار الى تبديلها ، او الاستعاضة عنها بأخرى قريبة منها ..

التمثيل على العموم جيد ، وقد اظهر الممثلون فيه الاندماج في ادوارهم ، اوالاندماج فيا بينهم ، وهذه منة تسجلها للمخرج ، وقد كان (هاني الروماني) ماكبث ، (وسمر عطار) زوجته ، على مستوى عال في ادائها المعبر ، وحركتها المعتلة ، وعلى الخصوص (سمر عطار) التي دلت على تفوق ادائها ، في كافة مواقف شخصيتها التي تنتهي الى الهذيان والغضب ،فالانتحار ايضاً ..

في حين اظهر (شريف الخزندار) دنكان و (داهي موره لي) مالكوم (وبدرالمهندس) ماكدوف براعة ، في ادوارهم ، وتجاوبهم مع متطلبات الاداء والحركة فيها . على صعوبة الادوار جيعها ، وصعوبة اداء شكسبير ودرامية ماكبت بصفة خاصة . انها محاولة جيدة ولكنها ليست كاملة حتما ...



منظر من (ماكبث)

(المعرفة) مع :

(لو رآنا الناس معاً)

المعرفة تخالف رأي الناقد ابن ذريل، في أن خاتمة الانتحار، كان يمكن تجنبها أو طيها. في سياق القصة، وتصاعد التوتر المستمر، يصبح الانتحار طبيعياً أو مقبولا على الاقل منطقياً، لأن الزنجي الساذج المسكين المكثور الذي طارده الوسط الاجتماعي، لم يكن ليقوى على تحمل الصدمة القاسية التي دبرتها مؤامرة الصحافي وجماعته، بأن العمياء التي احب، قد عدلت عن حبها بعد أن عاد اليها بصرها اثر العملية. ومعلوم أن البيض الحاقدين الذين دبروا العملية انما كانوا يقصدون فعلاً الى انجاحها لكي ترى البيضاء العمياء حبها على أمل ألا تحتفظ به وهي مبصرة. ان الصدمة كانت قاسية بحيث أن الاسود الساذج الطيب لم يفقد حبه فحسب، بل مبرر وجوده كانسان. لاسيما وان التي احبته، قد رفضت أن تقول له كلمة واحدة حتى بالهاتف، كما دبرت المؤامرة. ولقد ابدع المؤلف في تصعيد التوتر، حركة بعد حركة، وحواراً بعد حوار، ومفاجأة اثر مفاجأة، حتى يشعر القارىء والمشاهد بأن من الطبيعي أو الضروري أن يتوارى الزنجي المسكين عن الوجود بغياب دائم يمثل قمة المرارة والشقاء واليأس. وكان ارهب ما انتهت اليه المأساة أن الفتاة العمياء لم تحزن لعدم نجاح العملية، اذ مايهمها: وقد بقي لي ديفيس.!

ولو لم ينتحر ديفيس، لما كان لهذه الذروة الدرامية أي وقع في النفس. كذلك لو انتهت بالخاتمة السعيدة، لانتحر الكاتب في تفاهته وتفاؤله. ان موضوع التمييز العنصري يحمل مأساته في جنبه لزاماً، ولا يستطيع الفن الصادق، الا ان يعبر عن حقيقتها، وهي حقيقة حادة الالم، مثل هذه النهاية الحادة.

والزنجي ديفيس بعد، ليس فيلسوفاً، ولا صاحب قضية ونضال انه مخلوق ساذج بريء، برحت به المصائب، وطارده المجتمع، وقد دخل القضاء مدعياً، فخرج محكوماً عليه. وكان المؤلف القادر الذي خلق عذابه المرير، يؤهله حقا لدور

البطولة ولكنها ليست بطولة من ينتزع روحه من جسده ، بل هي هنا : بطولة الانسان القادر على أن يتمرد على مصيره ، مها ظن أنه انسان تافه حقير .

ان اختتام اعمال المسرح القومي : بهذه المسرحية الانسانية تتويج لنجاحات هذا الموسم الخصب ، وافتتاح لنجاحات تلي في موسم قادم . وان نسي الجمهور بعض مسرحيات الموسم ، فلن ينسوا ابداً مسرحية (لو رآنا الناس معاً) ، كيف أداها الممثلون أداء بليغاً يليق بالمؤلف العظيم الذي كتبها ، وخلق حركتها المنظومة ، وشخصياتها الفذة وتجاذبها العنيف ، وتوترها المأساوي الرهيب .

اننا في هـــذا النجاح الذي لقيته المسرحية ، نشير الى الاخراج حقاً الى جانب التأليف . ولكن التمثيل وحده في هـذه المسرحية ، قد بلغ المستوى الرفيع الذي يشرف صفحة الفن في بلادنا . لقد قفز الممثلون ، مع هـذه المسرحية ، من دور التجربة الى ميدان الابـداع ، واعطانا نجاحهم دليلين اثنين الأول أن النص هـــو الجوهر الأساسي الذي تشحذ عليه المواهب وتشرق ، ويجب أن يكون موضوع اهتمامنا وتخطيطنا للمواسم القادمة والثاني ان هذه المواهب موجودة عندنا بنزارة وتدفق، بحيث يجب أن نحرص على عدم هدرها في مجالات الارتجـال أو سوء الاختيار .

كذلك يجب الا ننسى نجاح الفصحى الخالدة، على شفاه هؤلاء الفنانين الشجعان الرائدين . لقد نغمتها حناجرهم وشفاههم وتعابير وجوههم ، بمـا أكسبها حقا ، تلك الطلاوة ، التي يقال أنها مفقودة في تعامل العربية الفصحى مع المسرح . ولا شك في أن الترجمة قد ساعدت نطق الممثل فاستحق المترجم كل الشكر والثناء ـ ولكن ليس في ترجمة الشعر ـ .

على ان الاسراع والانفعال أحياناً، قد يشوهان النطق وقد يؤديان الى ارتكاب الغلط ، أو الى ابتلاع الحروف والكلمات ، مما وقـــع فيه بعض الممثلين في بعض المسرحيات ، وفي هذه المسرحية بالذات ، وهنا لا يغيب عنا ان نسجل تفوق الممثلات على معظم الممثلين ، في هـذه الناحية من الأداء ؛ واتقين من ان بذل بعض الجهد

في صراع الممثل مع دوره ومع نطقه ، سيجنبه بعض هذه العثرات ، التي لم تعب فنانينا ، ولكننا نريد أن نشد بأيديهم نحو الكمال ، لاسيما وان الفصحى المسرحية قد اعتزت بهم في هذا الموسم الناجح . فشكراً لهم من الأعماق .

كلمة اخيرة تحب أن تقولها (المعرفة) هي أن الممثل الناجح والمخرج الناجح ، قد ولدا عندنا قبل المؤلف المسرحي الناجح . إنه أمر يبدو غريباً ، ولكنه الواقع الواقع ، عسى أن يقرع اعلان هذه الحقيقة ضمير الأدب ، فيفطن الى تقصيره ، ويحاول أن يلحق بركب الفن الصاعد ، على يد هذه النخبة من نجوم مسرحنا الفني .

بل ان الكلمة الأخيرة التي تقولها (المعرفة) هي ضرورة (تغريب) هؤلاء الفنانين الرواد ، بارسالهم الى دول المسرح الراقي من شرقية وغربية ، في زيارات ودورات لمدد طويلة وقصيرة ، بقصد الاطلاع والدراسة ؛ وتعبئة الطاقة الفنية وتغذيتها ، ونؤكد أن بعض الدول او المنظات لاتتأخر عن توجيه مثل هذه الدعوات الى فناني المسرح القومي وادارييه ، بوساطة من الوزارة فاذا لم تتوافر هذه الدعوات ، كان علينا ان ننفق في هذا المجال بعض الانفاق الذي سيرتد الينا ربحاً مادياً ومعنوياً كبيراً في مستقبل قريب .



ترجمة
متري
حارنة

نظرية جديدة في اصل الانسان قد تقلب النظريات المعروفة في التطور رأساً على عقب

تمكن العالم البريطاني لويس ليكي ، وهو استاذ معروف في علم الانسان ، من اكتشاف بقايا مخلوقات حية لايزيد طولها على ثلاثة اوأربعة اقدام في اولدوفاي في تنجانيقا خلال ابحاث علمية قام بها هو وزوجته زهاءالاربعسنوات. واطلق ليكي على هذا المخلوق اسم(Homo habilis) أي الانسان القادر في اللاتينية . وقد انتشرت هذه المخلوقات البشرية في شرق افريقيا قبل مليون او مليوني سنة . ويقول ليكي بانشكل هذه المخلوقات كان يشبه رأس الانسان المعاصر الا انه كان اصغر منه .

وكانت هذه المخلوقات تسير منتصبة القامة وانها كانت ماهرة في الاعمال اليدوية . فقد صنعت الادوات المختلفة وبنت الاكواخ .

ويعتقد ليكي هنا أن هذا الانسان كان هو اصل الانسان الحالي وليست المخلوقات الاخرى كما كان مظنونا . فالانسان الفرد الذي عاش في شرق افريقيا ، يمثل حلقة من التطور فقدت تماما . ويعني بهذا ان نظريات التطور المعروفة في طريقها لأن تنقلب رأساً على عقب ومن ضمنها نظرية حديثة ضمنها كتابا حديثاً له في موضوع اصل الانسان .

عزل الفيروس المسبب لسرطان الدم

تمكن الدكتور جانينو Negroni نيغروني من عزل الفيروس الذي يعتقد بانه المسبب لسرطان الدم (اللوكيميا) .

وتصف الاوساط الطبية اكتشاف العالم الايطالي هذا بانه اعظم تقدم يحرزه العلم حتى الان في ميدان مكافحة سرطان الدم .

ويطلق على الفيروس المذكور اسم ICRF HLI (اللوكيميا البشرية ١) . وقد وجد العالم الايطالي هذا الفيروس في نخاع عظام عشرة من المصابين بهذا المرض في خلال البحوث التي قام بها في مختبرات البحوث السرطانية .

وقد تمكن العالم الدكتور نيفروني من عزل الفيروس المذكور لاول مرة قبل اربع سنوات ويقول بانه لايقطع بصورة جازمة انه السبب المباشر لسرطان الدم. وبالرغم من الحذر الذي يبديه العلماء في ماهية هذا الفيروس ، الا انهم يعتبرون هذا الاكتشاف خطوة للامام قد تؤدي الى اعظم النتائج في القضاء على سرطان الدم .

جهاز رادار يحمل باليـــد ، ويعين المواقع التي تجري فيها التحركات

تمكنت الدوائر العلميـــة ، لشركة جنرال ديناميكس في سان ديغو من صنع رادار يدوي لايزيد وزنه عن ثمانية ارطال . والجهاز الجديد يستطيع تحديد الاهداف وتحذير العامل بواسطة اشارات تلتقطها السماعات او مكبرات الصـوت خلف الوحدة على مسافات قصيرة ويمكن استخدام الرادار الجديد هذا من قبل الجنود لتعيين مراكز العدو وحركاته في المناطق الغريبة التي يكثر فيها الضباب الكثيف او الاراضي الحرجية ومناطق الغابات . وبامكان الجهاز المذكور ايضا الاتصال بالطائرات التي تطير على ارتفاع قليل .

ويمكن استخدام الجهاز الجديد من قبل جنود وسلطات الحدود في عمليات الاستكشاف ومطاردة المهربين واعمال حرس المصانع . ويتوقع المخترعون بانهم سيحسنون الجهاز المذكور ويتمكنون من تخفيف وزنه .

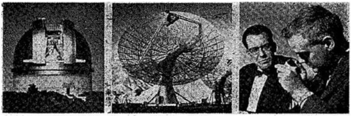
التنبؤ عن الزلازل قبل حدوثها

منذ قـديم الازمنة والعـالم يتعرض للدمار والخراب بسبب الزلازل التي تقع في انحاء عـدة من العالم بين الحين والآخر . وعلماء طبقات الارض مازالوا يتدارسون امكانيـة التوصل الى معرفة الزلزال قبل وقوعه. وآراء العلماء متضاربة ومتباينة في هذا الموضوع . الا ان الدكتور دين كارور، عالم الزلازل المشهور يرى ان العلم سيتوصل في المستقبل القريب جداً الى التنبؤ عن الزلزال قبل وقوعه . وطريقته تتلخص في دفن جهاز الجيوفون GeoPhone على عمق الف او الفي قدم قرب المناطق التي تعتبر مناطق الزلازل حيث الشقوق والاخاديد والتضاريس العميقة التي يظن انها مركز الزلزال . والجيوفون هـذا عبارة عن جهـاز حساس دقيق الصنع يستخدم لالتقـاط اضعف الاصوات وتسجيلها على شريط على سطح الارض وبالرغم من ان الدكتور كاردر لم يجرب اختراعه بعد ، الا ان الدوائر العلمية المختصة تدرس القيام بهذه التجربة . وستكلف التجهيزات والقيام بالعملية حوالي النصف مليون من الدولارات .

والجـديـر بالذكر ان جهاز الجيوفون هـذا يستخدم في المناجم بشيء من النجاح للانذار من الانفجارات التي قد تقع بين الصخور فيلتقط الجهاز المذكور الاصوات المنبعثة من الصخور قبل ان يحدث الانفجار او الانهيار .

هـذا العالم العظيم !

يعترف علماء الفلك اليوم بانهم مصابون بقصر البصر . فقد كانوا يظنون أنهم وصلوا الى مشاهدة اقصى ما تمكن مشاهدته باجهزتهم العلمية العصرية الدقيقة . الا ان اختباراتهم الجديدة في مجالات النشاط الاشعاعي أثبتت لهم انهم في المرحلة الاولى



اكتشاف ٣ س - ١٤٧ والآلات التي اكتشف بواسطتها العالم شمدث هذا الجرم وحدد موقعه

من الطريق الشاق الطويل فلا يزال هناك الكثير من الاجرام السماوية التي لم تصل اليها أجهزتهم العلمية المعروفة . فقد ثبت لهم ان هنالك ما يشبه الاجرام السماويـــة تدأب على ارسال اشعاعات قوية مسؤولة عن جزء عظيم من التشويش في اجواء الارض وتحول دون التقاط الموجات الصوتية بصورة واضحة .

لقد تمكن العلماء من تحديد اثني عشر جرماً من هذه الاجرام السماوية حتى الآن . وفي غضون الاسبوع الماضي فقط اكتشف العلماء آخر واحد منها فاطلقوا عليه اسم ٣س - ١٤٧ ويعتبر هذا الجرم السماوي أبعد جرم سماوي اكتشف حتى الآن . وبسبب بعده الشاسع عن ارضنا ؛ يبدو وكأنه نجم صغير من نجوم مجرة درب التبّـــان (Milky Way) . ويقول علماء الفلك الذين شاهدوا هذا الجرم لاول مرة انه اكـــبر من شمسنا بملايين المرات .

في سنة ١٩٦٢ تمكن علماء الفلك البريطانيون والاستراليون من اكتشافه وتحديد موقعه بواسطة راديو - تلسكوب قطره تسعون قدماً في مرصد مانشستر .

وتمكن الفلكي كالتش شمدث ان يحدد موقعه بالضبط بواسطة تلسكوب هيل الذي يبلغ قطر عدسته مائتي قـــدم والموجود في مرصد جبل بالومار . وتمكن كذلك من تصوير الطيف الضوئي الذي ينبعث منه ، وبعد ذلك قام بتحليل الطيف الضوئي الى الموجات المختلفة الاطوال للذرات التي يتكون منها . وكم كانت دهشته عظيمة عنـدما اكتشف تزحزحاً ذا لون احمر . ويشير هذا التزحزح في رأي شمدث الى ان العالم باسره ليتمدد وينتشر بسرعة عالية جـــداً في جميع الاتجاهات . وبعد تطبيق قانون هيل ، توصل شمدث الى ان ٣س-١٤٧ يتحرك بسرعة (٧٦) الف ميل في الثانية .

وهذا يعني بان هذا الجرم السماوي ابعد عن ارضنا من اي جرم معروف حتى الآن . وطبقاً لقانون هيل تبين ان هذا الجرم يبعد عن الارض بحوالي (٧) بلايين سنة ضوئية .

ويقول شميدت ان حقائق علمية جديدة عن العالم تتكشف كل يوم وقد تؤدي الى مناقضة المعلومات التي لدينا فالعلم اوسع من ان يحيط به عقل اي انسان .

حاسبات الكترونية بدل الالواح السود في المدارس

قامت بعض المدارس في الولايات المتحدة باستخدام الآلات الحاسبة الالكترونية واجهزة التلفزيون بدلا من الالواح السود في حل المسائل الحسابية والهندسية المعوصة لطلابها فبدلا من ان يقضي الاساتذة والطلاب الليالي الطوال في التوصل الى حل المسائل الحسابية والهندسية الكثيرة الارقام ، تقوم هذه الآلات الالكترونية الحاسبة باجراء ذلك في اقصر وقت ممكن فيقف الطلاب بانفسهم على طريقة الحل ويوفرون وقتهم الثمين لاشياء مفيدة اخرى .

ففي المعاهد التكنولوجية للهندسة المدنية ، يتلقى الطلاب اليوم دروساً خاصة في طريقة استخدام هذه الاجهزة الحاسبة وفهم لغتها الخاصة ليتمكنوا من استخدامها بالصورة الصحيحة في اعمالهم المستقبلة . ويتوقع ان يعمم استعمال هذه الاجهزة خصوصاً في المعاهد والكليات التي تدرس الهندسة والرياضيات المعقدة .

آلة اقوى من المجهر

تمكن العلماء من صنع آلة اطلقوا عليها لاسر (laser) تساعد علماء البيولوجيا في التوصل لرؤية الاشياء والعناصر التي يقصر المجهر المعروف عن اظهارها فبواسطة التركيز البؤري لهذا الجهاز بواسطة المجهر ، اصبح بامكان العالم تحليل عشرة عناصر او اكثر في أية مادة حية في فترة لاتتجاوز واحداً على المائة من الثانية . فعندما توجه حزمة الاشعة من جهاز لاسر بواسطة المجهر ، تحول العناصر الذرية الاساسية في كل شيء حي الى بخار غازي ثم تضاء الغازات المنشطة بين الالكترودات الكربونية . فتقوم الغازات في بعث موجات ضوئية ذات طاقات اشعاعية تتوافق وطول الموجة . وبعدها يسجل الضوء فوتوغرافياً بصورة تبين التحليل الفوري لهذه العناصر .

الرؤية باصابع اليد

تتحدث الاوساط العلمية عن ظاهرة غريبة تحاول جاهدة ان تجد لها تفسيرا معقولا . فقد ذكرت الاوساط العلمية الروسية ان هنالك فتاة اسمها لينا بلزنوفا ، عمرها تسع سنوات ، تستطيع ان تعرف الالوان وتميزها بواسطة اصابعها ويمكنها كذلك تمييز الالوان بكتفيها . وهنالك فتاة روسية اخرى تدعى روز كولشوفا عمرها (٢٢) سنة تستطيع قراءة الاحرف العادية المطبوعة وتستطيع معرفة الالوان بواسطة اصابع يدها .

وقد تناقلت الصحافة الروسية والعالمية هذا الخبر الذي اثبتت صحته اكاديمية العلوم الروسية.

وتتحدث الاوساط العلمية في الولايات المتحدة عن حادثة مماثلة في اميركا . فذكرت ان هنالك سيدة تدعى المسز ستانلي باستطاعتها تمييز الالوان ومعرفتها باطراف اصابعها وهي معصوبة العينين .

والجدير بالذكر ان الفتاة الروسية كولشوفا تستطيع رؤية الالوان وتمييزها باطراف اصابعها في الظلام الدامس . والغريب ان السيدة ستانلي تستطيع تمييز الوان الاشياء حتى وهي لابسة قفازاً رقيقاً ولكنها لاتستطيع معرفة الوان الاشياء الموضوعة في ماء ساخن . وقد حار العلماء في هذه الظواهر ويحاولون جاهدين ان يجدوا لها تعليلا معقولا ولكنهم لم يتمكنوا .

آلة تترجم المعلومات الفضائية في خلال ساعات معدودة

توصل العلماء الى صنع آلة صغيرة الكترونية مترجمة تستطيع ترجمة المعلومات الفضائيـــة التي تحصل عليها السفن الفضائية في غضون ساعات بدلا من الاشهر والاسابيع . فقد تمكن العلماء في مختبرات جون هوبكنز من صنع هذه الآلة التي توضع في الاقمار الصناعية والسفن الاخرى التي تطلق الى الفضاء لجمع المعلومات عن الطبقات الجوية العليا . فبامكان الآلة المذكورة تحليل المعلومات وتدقيقهـا وطبعها في غضون ساعات قلائل ، بينما كانت العملية في الماضي تستغرق عدة اسابيع واشهر . فمنذ اللحظة التي تقوم فيها آلات السفن الفضائية بجمع المعلومات عن احوال الفضاء تبدأ الآلة المترجمة الالكترونية عملها .

تصوير قاع البحر على عمق عشرين الف قدم

تمكن علماء شركة وستنغهاوس من صنع آلة الكترونية يمكن بواسطتها تصوير قاع البحر على عمق عشرين الف قدم .

والآلة الالكترونية الجديدة تعمل بواسطة الامواج الصوتية ، ذات الذبذبة العاليه الـــتي توجه الى قاع المحيط . فعند انعكاس هذه الموجة الصوتية الى الجهاز الجديـد تظهر صور واضحة بشكل قـاع المحيط ، على شاشة التلفزيون ثم يسجل الجهاز المذكور تلك الصـور على ملف من الورق الحساس في نفس الوقت . ويتوقع ان يؤدي تطوير هذه الآلة الى مساعدة الجيولوجيين ومصوري قاع المحيطات والبحار في الحصول على المعلومات القيمة التي يريدونها .



مهرجان تأبين العقاد

على مدرج الجامعة السورية

أقامت وزارة الثقافة والارشاد القومي يوم الاربعاء في ٢٩ نيسان حفلة تأبين للاديب الكبير المرحوم عباس محمود العقاد اجلالا وتقديرا لذكراه .

وقد بدأت الحفلة بآيات من الذكر الحكيم ، ثم القيت كلمة سيادة وزير الثقافة والارشاد القومي الاستاذ شبلي العيسمي . وقد القاها الدكتور يوسف شقرا الامين العام لوزارة الثقافة والارشاد القومي .

وهذا هو نص الكلمة :

ايها السيدات والسادة

في تكريم الامة للنابغين من ابنائها وفي احيائها ذكرى عباقرتها وفاء بحقهم في اعناقها ، وتقدير لجهادهم في سبيلها ، ودعوة لاقتفاء آثارهم والنسج على منوالهم ، اغناء للحضارة الوطنية والانسانية في شتى مجالاتها .

والامة العربية لاتفرق في تمجيد اعلام الفكر والادب بين ابنائها : قاصيهم ودانيهم ، فالمعري والمتنبي وابن خلدون وابن سينا ملك الامة



عباس محمود العقاد

العربية جماء لايختص بهم قطر درجوا على ترابه اوبلد عاشوا في رحابه .

وقد تنادت الوزارات والمجامع والجامعات والمجالس المعنية بشؤون الفكر في هذا القطر الى احياء ذكرى علم من اعلام الفكر العربي في هذ

العصر وأسهمت معنا في اقامة هذه الحفلة التأبينية للمفكر الكبير والاديب العبقري الاستاذ عباس محمود العقاد وهي في ذلك انما تحيي وحدة الفكر العربي المعطاء ، وحدة الفكر البناء ، وحدة الفكر الخلاق يتلاقى وينطلق من كل ارض عربية في آسيا وافريقيا ليغذي اجيالها الصاعدة .

ان فقيد العروبة الكبير عباس محمود العقاد يمثل مجرى فكريا قويا من مجاري الفكر العربي في هذا العصر يمثل مدرسة متميزة باصالتها وغناها وعمقها ، يمثل التفتح والتطلع في ميدان اللقاء التفاعل مع النتاج الفكري الحضاري العالمي .

اذا استعرضنا حياة العقاد الفكرية طوال ستين عاما قضاها مع الكتاب والقلم ، وعاشها مع التيارات المتضاربة والاحداث المتشابكة والصراع المتأسد ، رأينا فيه الرجل الصلب المكافح ، رجل الطليعة الذي شق طريقه بنفسه عدته ذهنه النير ، وحافزه هدفه الواضح ، يسير الى غايته مجالدا عنيدا مستهينا بكل خصومه ، واثقا مطمئناً الى النتيجة . اذا طلبنا العقاد في مسيرته الفكرية وجدنا فيه الغواص الدؤوب على استخراج لآلىء الفكر والنفائس المتطلع الى غد مشرق بأمجاد أمته ومستقبل تراثها الرفيع .

واذا طلبناه باحثاً مفكراً طالعنا بجرأة رأيه وعمق فهمه .

واذا قرأناه ناقداً برزت لنا عقليته العلمية في حجتها الدامغة ووثوقها الواضح .. تضلع في اللغة، وجلاء في العرض وقوة في الاقناع . واذا نشدناه أديباً وشاعراً غذانا من ذهنه النير وبصيرته النافذة ومشاعره الصادقة ، أدبا مشرقاً غنياً ينبع من حس مرهف وادراك عميق . واذا قصدناه مؤرخاً يتمثل تاريخ أمته وأمجادها وبطولاتها ، أدركنا بغيتنا في عبقرياته الخالدة يستعرض فيها شخصية أبطال أمته الخالدين الذين بنوا لها كيانها وجسدوا وجودها وأعلوا مكانتها بين الأمم الصاعدة .

العقاد المفكر والعقاد الأديب والعقاد الناقد والعقاد الشاعر كلها جوانب أصيلة لشخصية جبار الأدباء تمثل عمق التفاعل مع الفكر في تنوعه وغزارته وتمثل في عصره ما مثله شخصية الجاحظ في العصر الذهبي للحضارة العربية .

قد تخرج العقاد من جامعة العقاد وتعالى على كل خريج ومضى بعد كفاح طويل مدلا بناء فكري شامخ قوامه ثمانون كتابا تمليه على الزمن وتعطي للاجيال العربية المنطلقة غذاء ثرا يمثل دفقة الفكر العربي وأصالة العقلية العربية في غناها وعمقها وتفتحها للحياة والنماء .

واذا افتقدنا اليوم عباس محمود العقاد في ساحات النضال الفكري فأملنا ان يكون في أجيالنا الصاعدة الكثيرون الكثيرون يتلقفون مشعل الفكر من يده وينيرون به وهاجاً وضاء طريقنا الطويلة المحفوفة بالمكاره المرصوفة بالأشواك لنسابق الحضارات ونبلغ بأمتنا العربية منزلتها التي كانت لها في مقدمة الركب الحضاري العالمي .

والسلام عليكم ورحمة الله .

وتعاقب بعد ذلك المتحدثون عن شخصية العقاد من شتى جوانبها ، وكم هي متعددة تلك الجوانب التي برعت فيها عبقرية العقاد ، وأزهرت مؤلفات مشرقة أغنت المكتبة العربية بشكل نادر لم يتوفر لها من قبل . تحدث الامير الاستاذ مصطفى الشهابي عن العقاد في مجمعي اللغة ، وتناول الدكتور جميل صليبا فكر العقاد ، واهتم الدكتور ابراهيم الكيلاني بتحليل أدب العقاد .. وبحث الدكتور شاكر فحام أسس النظرة النقدية عند العقاد .. اما الاستاذ احمد الجندي فقد تكلم عن شعر العقاد ...

وهذه نظرة مجملة على هذه الابحاث القيمة ، التي ألقت أكثر من ضوء على تراث العقاد الفكري .

كلمة رئيس المجمع العلمي

بدأ الأمير مصطفى الشهابي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق كلمته بالحديث عن الذكريات الراسبة في ذهنه عن العقاد في المجمعين . . وتحدث عن الذاتية الوجيزة التي كتبها العقاد بخط يده وأرسلها الى المجمع العلمي بدمشق عقب اختياره عضواً فيه : ومن هذه السيرة نعرف أن العقاد ولد في أسوان صيف عام ١٨٨٩ ، وتلقى علومه الابتدائية في مدرستها . وفي عام ١٩٠٣ تخرج منها . وكان والده يصطحبه الى مجلس الاستاذ احمد الجداوي احد فضلاء الازهريين الذين لازموا الاستاذ جمال الدين الافغاني ، ونهلوا منه منهج نهضته ، وسعة علمه . وقد كان العقاد – وهو صغير بعد – يستمع الى قراءات الاستاذ الجداوي الادبية ، ومطارحاته الشعرية مما أثار شوقه الى المعرفة وقراءة الكتب ...

ومع هذه السيرة – يقول الامير مصطفى – أرسل العقاد مقالة قيمة للغاية حلل فيها شيع الادب يومها ، وألم بمختلف اتجاهاته . فهناك المتزمتون الذين لايقرون أي تجديد ، ويريدون الحفاظ على القديم كما هو .. وهناك الذين يحاولون المزاوجة بين القديم والحديث ، يمدون جذورهم في أعماق التراث وأصالته ، ويغــذون فروعهم وأوراقهم من ثقافة العصر وعلومه ... وهناك بالاضافة الى ذلك الاباحيون ، وهم الذين يعرضون عن التراث ، ويبحثون عن التجديد فحسب لاتنظمهم قواعد ، ولاتكرثهم اصول اوأسس .

وينتقل الامير الشهابي بعدئذ للحديث عن تبحر العقاد في علوم اللغة . فعدد المقالات التي كتبها عن المشاكل اللغوية ، والتعقيبات التي القاها في المجمع اللغوي ، فبعث في اوصاله الحيوية . ثم حلل نظرة العقاد الى اللغة ... اذ كان حريصاً على سلامتها ، مهتما كثيرا ببيانها ، لايقبل لها الضعف ، او الركاكة أو الهجانة . . كما كان العقاد يريد المحافظة على الشكل التقليدي للشعر ، فلم يسمح بالتحرر من قيود الوزن والقافية . بل انه لم يكن يتردد — رحمه الله — حين تقدم اليه قصيدة من الشعر الحديث بتحويلها الى لجنة النثر باعتبار انها نثر وليست شعراً .

العقاد المفكر

وتكلم بعد ذلك الدكتور جميل صليبا عميد

كلية التربية عن فكر العقاد . فامتدح أدب العقاد ولطافة روحه ، وسحر منطقه ، ثم انتقل الى مؤلفات العقاد التي بلغت الثمانين .. انتثرت فيها آلاف الافكار المضيئة التي توضح نظرة العقادالى العالم والانسان ، ولم ينتظم هذه الافكار مذهب بين الحدود .. واضح المعالم ، ولذا جاءت كتبه اقرب الى الادب منها الى الفلسفة . . الا انذلك لاينقض من قيمة العقاد الفكرية . . فلئن لم يخطط لمذهب فلسفي شامل ، فان عظمته تنبع منمصدر آخر هو كلية البناء.

لقد كان العقاد هرماً من اهرام مصر لايقل عن هرم خوفو.. وعلما من اعلامه ورائداً من رواده ترك في الجيل العربي اعمق الاثار..وخلف تياراً مليئاً بالحيوية جياشاً . . وعميقا .

كان كاتباً بليغاً ، وشـــاعراً ملهما ومفكراً رصينا . ولم يكن ليكتب في موضوع الا اذا تخيل اجزاءه اولا .. فينتقل من الجزء الى الكل ومن الكل الى الجزء بمنهجية منطقيـــة ، وبحدس ذكي لامع ..

وعلى الرغم من انه كان موزع الفكر بين موضوعات مختلفة ، فان آثاره ـ حين تزنهـــا بميزان النقد ـ تجـــدها مصطبغة بصبغة فكرية أصيلة الى جانب مااشتملت عليه من أدب رفيع فهو مفكر قبل كل شيء .. وكان ذلك يتبدى في كل مايكتبه .

ثم استطرد الدكتور صليبا لتحليل وجهة نظر العقاد في الوعي الكوني حقيقة يستلزمهـــا العقل ، بمعنى أنها « ضرورة » . وهي ـ فوق ذلك « ملكة أعلى من الاحساس ، وأشمل من العقل ، بها ينفذ الانسان الى ذاته ، والى الحقيقة المحيطـــة ، فيقع على ادراك متكامل كلي للأنا وللعالم الخارجي ، يسطع كاشفاً الحقيقة الكونية البعيدة .

وهكذا ، فقد كان « الوجدان » هـــو وسيلة العقاد الى امتلاك الحقيقة .. وحين نتأمل جيداً أفكاره المبثوثة في كتبه ، نجد انه لم ينظر الى الكون والطبيعة والذات الالهية نظرة علية مجردة وجامدة ، بل انه كان يتناولها كعمل فني يسوده التناغم والانسجام ، فالكون والحياة والفن ومناظر الارض والسماء .. كل ذلك مظهر للتآلف والتنوع بالنسبة له . وهو ـ من خلال هذه النظرة ـ أقرب الى المتصوفين . الا أن تصوف العقاد يختلف عن تصوف القدماء في ان هؤلاء كانوا يبطلون الظواهر ويعرضون عنها من اجل الحقيقة الكلية . أما العقاد فلم يبطل الظواهر ، كما لم يعرض عنها ... بل اعتبرها صوراً جميلة للحقيقة الكونيـة كالامواج بالنسبة للبحـــر ...

وهو فيلسوف الهي ، آمن بالذات الالهية ، وكان عاشقاً للحق والخير والجمال .

ثم اختتم الدكتور صليبا حديثه برؤية مجملة بدأ فيها انتاج العقاد موائماً لأحلامه ، وحياته اليومية الظاهرة متصفة بنفس سمو حياته الفكرية العميقة . وكان اكثر ميلاً الى التفاؤل منه الى التشاؤم . قوي الارادة ، محباً للحرية والاستقلال . وفي عزوفه عن الوظيفة وفي مقاومته لفساد الحكومـــة وفي اعلان رأيه جهاراً لأصدق الأدلة على ذلك .

العقاد « الأديب »

بعدئذ وقف الدكتور ابراهيم الكيلاني مدير التأليف والترجمة في وزارة الثقافة والارشاد القومي متحدثاً عن أدب العقاد .

هو أحد الأعلام الذين انتهت اليهم زعامة الفكر والأدب ، وهو خير رائد لهذا الجيل المستنير بنور الحضارة . وذكر الدكتور الكيلاني سيرة العقاد التي كتبها بخط يده ، ثم أخذ يحللها مستشفاً من سطورها القليلة ، وكلماتها البسيطة الموجزة الملامح العامة التي ستصبغ شخصية العقاد أبان نضجها . فليس في حياة العقاد ما هو خارق ؛ أو عجيب . انها حياة عادية ورتيبة لانسان نذر نفسه لتحصيل المعرفة والكتابة والابـــداع وسط أبعاد قاسية من التقشف والزهد

كان يقرأ كل مايقع تحت يده . ولم تكن قراءته منفعلة فحسب ، بل كان فاعلاً فيها أيضاً . وقـــد عرف عنه الموقف الصلب ، والقدرة الفذة على تبني آرائه وحلها دون خوف .

ومنذ نعومة اظفاره كانت له سمات الأديب ، القراءة ، العقل المتفتح ، الرأي الذاتي .. ثم استقالته من مناصب الحكومة لرتابتها وجمودها واصطدامه برجال الحزب الذي كان ينتسب اليه كل ذلك يجلو سمات الاديب الكامن فيه .

ثم ذكر الدكتور الكيلاني حادثته الشهيرة مع سعد زغلول حين قال : أنا زعيم الأمــة .. فنهض العقاد وقال باعتداد ؛ وأنا زعيم الأدب ومن حقي أن اقول رأيي .

واستطرد بعد ذلك للحديث عن خصائص أدب العقاد .

فقد حقق في كتابته التوازن بين الشعور والفكر . الشعور لصنع الثوب الجمالي الشاعر ، والفكر للغوص والتعميق .. وما ذلك بغريب! ألم يكن العقاد ناثراً وشاعراً في وقت واحد .

وكان لايرتجل ، ولا يتسرع ، بل يحمـــل موضوعاته طويلا في داخله يدرسها ، يوازنها ، ينضجها ، ثم يكتبها بعدئذ ..

ولعل مرد ذلك أن للعقاد رسالة .. هي رسالة الحياة .. والأدب بالنسبة له صلاة الروح . ففي كل كاتب شيء من طبيعة النبوة . والكاتب انسان قبل أن يكون حامل قلم . ولا قيمة لمن يكتب بلا رسالة ، اذ أن كتابته في هذه الحالة لاتعدو اللغو السطحي عديم القيمة .

ولهذا ، فان العقاد لم يؤمن بكتابة الوحي ، الكتابة المرهونة بلحظات خاصة ، والتي تتوالد ذاتياً وبصورة بهلوانية ، وانما آمن فحسب بالعمل ، العمل الدائب الزاهد ، والتفكير المتواصل ، والدراسة الجادة الطويلة .

ويستنتج الدكتور كيلاني من ذلك ، ان العقاد رمز للأصالة الكاملة .

فقد أغنى موهبته وغذاها من ضروع المعرفة المتنوعة .. الشاملة تقريباً .

وانتقل الدكتور الكيلاني بعد هذه اللمحة العامة عن خصائص أدب العقاد للكلام عن موقفه ازاء المعركة التي اشتعلت بين القديم والحديث ، فوصف مسلكه ـ ومن حذا حذوه ـ بالذكاء

والحضارة ... اذ انهم بنوا التجـــديد على أسس ثلاثة ...

١ – الاصالة .. فيتفاعل الاديب مع تراثه ومع الجو الذي يحيا فيه ويتبنى قضاياه ومشاكله

٢ – الحفاظ على العربية وتطويرها ، واستنفاد كل طاقاتها التعبيرية .

٣ – الاتصال بالفكر الأوروبي ، وتطعيم الفكر العربي به ... وكان هذا المنهج خير المناهج ، وادقها .

العقاد « النـــاقد »

تكلم الدكتور شاكر فحام عن النظرة النقدية عن العقاد ، فبين كيف أنه لم يترك نظرية محدودة الاسس في النقد .. غير ان المطلع على كتبه التي حفلت بمقالات النقد يكتشف ظواهر نظرة نقدية ناضجة .

وقد ترك العقاد آراء ثمينة في تعريف الشاعر . وهو بالنسبة اليه من يشعر بجوهر الأشياء ، ومن يمتلك نظرة خاصة في الحياة . انه يعنى آخر الذي يوثق صلتنا بالحياة .

وتعرض الدكتور فحام للحديث عن الحرب الشعواء التي اشعلها العقاد على شعراء التكلف والصنعة . فقد هاجم شوقي واعتبره شاعراً متكلفاً متصنعاً .. كما وصف ابن زيدون بأن نثره أكثر من شعره .

واشتغل العقاد في الحديث عن الصياغة أكثر مما اهتم بالجوانب الأخرى في الكتابة ..

العقاد الشاعر

وكلمة الختام كانت للاستاذ احمد الجندي ..

أضاء بها آخر زوايا الشخصية المتعددة الفنية التي تفرد بها العقاد .. انها زاوية الشعر .

فذكر الاستاذ الجندي أن من المفارقة أن يكون العقاد ذو الطابع الفلسفي الميال الى التأمل والتحليل والتعقيل شاعراً .. خاصة وأن الشاعر لايستطيع ان يستبعد شعره من كل مايكتب .. فحتى نثر الشاعر لابد ان يتضمن بعض الشعر.

ولكنه بالنسبة للعقاد ، فقد تجمع النقيضان. وان كان الشعر بالنسبة له عرضاً أكثر مما هو جوهر . لقد كان كاتباً أكثر منه شاعر .

ولعل خير ما نصف به شعره أنه أراد أن يشعر فشعر ولكنه لم يغن ..

ويوضح الاستاذ الجندي خصائص شعر العقاد .. فيقول انه كان يدقق في اختيار اللفظ في شعره ، وقد اهتم باختقاد تلك الالفاظ التي تستقطب ايجاد البيت .. كالحال عند الرمزيين في المغرب ، وعند ابن الرومي الى حد ما ...

ولئن استطاع العقـــاد ان يكون مصوراً أحياناً فان خطوط الصورة لديه لم تكن موفقة.. فهو بهذا المعنى ليس بصانع للشعر لان أدوات الصنعة غير كاملة لديه ..

ثم بين الاستاذ الجندي كيف ان العقاد قد تأثر بمؤثرين تضاربا في داخله وتعارضاً ..

الأول هو حياته في اسوان حيث الصفاء ، والقمر ، والنيل الهادىء الساحر والثاني هو الادب الانكليزي المعتمد على الفكر .. وبالذات الشاعران توماس هاردي ، وشكسبير . .

ولقد وضحت آثار هذين العاملين جلياً في شعره .

أما بالنسبة للشعراء العرب فقد تأثر العقاد بابن الرومي والمتنبي وأبي العلاء وقصر عنهم جميعاً ...

ثم انتهى الاستاذ الجندي في كلمته الى الحكم.. بأن العقاد شاعر فكر ورأي لا شاعر صورة وصنعة وديباجة ...

وهكذا ، كانت الحفلة كشافة أبرزت تلك القمم التي تسلقها فقيد الأدب عباس محمود العقاد وحاولت أن تعطي ظل صورة لجولاته الفنية في دنيا الفكر والكلمة .

رحم الله العقاد ، وطيب ثراه .

جولة الشهر

مع تيارات الفكر العالمي

فؤاد الشايب

استمرار في توضيح ملامح المجتمعات المتخلفة بالسؤال : هل يمكن تصنيفها عقائديا وسياسيا في احد المعسكرين الشرقي او الغربي – ولماذا ... لا – من اين تنبع الحوافز التي تدفع شعوب المجتمعات في آسيا وافريقية ، الى توكيد استقلالها ومكافحة تخلفها – وبأي صور يرتبط التخلف تاريخياً بوجود الاستعمار – ثم ماهي الأهداف التي تتابعها والمبادىء التي تهتدي بها في سبيلها الى توطيد الكيان ، وتسريع النمو ، وتحقيق المساواة والعدل – سنلم في هذه الجولة بملامح عامة للحياة الاقتصادية والاجتماعية في مجتمعات الشعوب المتخلفة – هل فرضت الشعوب الجديدة على الدول الكبرى تعاملا اقتصاديا لاعهد للعالم بمثله ؟! – وما هو سبيل هذه المجتمعات الى تأليف (الوحدة الوطنية) – .

ستنجلي ملامح المجتمعات المتخلفة بوضوح اكثر ، عندما ننتقل من تصنيفها كما فعلنا في نماذج من مجتمعات تقليدية واصلاحية وثورية ، الى بحث السمات المشتركة فيما بينها والمبادىء التي تجمعها، والى تحليل بواعث حركتها ، وطفرتها بالرغم مما سبق ان ألمحنا اليه من فروق في شروطها البشرية وظروفها التاريخية ، ومواقعها الستراتيجية . وسنسقط من البحث شؤون المجتمعات التقليدية ذات النظام القبلي المتحجر ، التي يرادف التقدم في شرعها وفي واقعها معنى العداء لها والتهديد بفنائها ، لأن ليس من موضوع للتطور أو الطفرة فيها ، جدير بالبحث ، اللهم الا اذا ساق اليها

الباحثون اعناق مطيهم ، بدافع الفضول أو بلذة علم النبش الاثري عن مستحاثات وهيا كل مدفونة .

وهنا يجب التنبيه الى اننا في قبولنا مبدئياً تصنيفها الى اصلاحية ، وثورية لانرمي الى القول بأنه من الممكن دمغها نهائياً ، أو دمغ اكثرها ، باحدى سمتي الأصلاح او الثورة ، اذ أن معظمها يجمع بين السمتين باسلوبه الخاص ، وبمحاولاته كما قلنا شق طريقه لنفسه وسط عوامل وظروف تبدو معها ملامح التكوين كأنها في ورشة قائمة قاعدة ، يعلوها الغبار ويكاد يحجبها احياناً : مشهد شديد التناقض مألوف عادة في أماكن يمر بها الناس حيث تنهض الجدران العالية قبالة الآثار المتداعية الخربة ، أو جنباً الى جنب تماما .

بل ان الغرض القريب من تصنيفها على نحو مافعلنا ، هو تيسير المدخل الى فهم فلسفة حياتها ، ومخطط مصيرها بشيء من التفصيل ، مما سنعالجه فيما بعد ، ويبقى ان الغرض الاساسي من هذا التصنيف ، هو في رفض تصنيفها ، كما يريد الباحثون الأجانب ، الى دول في معسكر الغرب ، ودول في معسكر الشرق وما يتبع ذلك من لصق البطاقات عليها لتحديد ولائها للديموقراطية الليبرالية أو للاشتراكية الشيوعية ان هذا الرفض ، ضروري جداً ، لرفع الحيف عن شعوب متحررة شديدة الطموح يلحقه بها سياسيون وباحثون يجمعون الولاءات في جيوبهم بعد الحصى أو لاينظرون عندما يتجردون عن النظرة السياسية النفعية ، الى هذه المجتمعات الا وكأنها نماذج فجة من حجارة غريبة يقع عليها سائح غر ، او عابر سبيل على عجل ، دون ان يفهم جوهرها او ان يحاول فهمه .

بل للباحث ان يصنفها كما يشاء ، اذ ينظر بعين بصيرة الى شروطها وظروفها لكي ييسر لنفسه سبيل التعرف اليها وتحليلها ، الا ان يتبع ولاءها لدولة من الدول او إيديولوجية من الايديولوجيات المعروفة ، تعسفا واعتباطاً ، اذ عندئذ سيضل طريقه الى فهمها وتفهيمها .

ان هذه الشعوب ، على الرغم من عدم وضوح ملامحها في غمرة التكوين وغبار

الهدم والبناء ، ليست في نطاق احـــد المعسكرين ، علميا وعمليـــا ، سياسياً وايديولوجيا ، ولعل نزوعها المتوضح يوماً بعد يوم ، الى التشبث بسلوكية الحيـاد الايجابي ، منذ مؤتمـر باندونغ الاول لايعبر عن سياستها الدولية العالمية فحسب ازاء تطاحن المعسكرات بل قبل ذلك يؤكد اتجاها عقلياً ووجدانياً وطنياً داخلياً نحو استقلال سياسي واقتصادي وثقـافي معاً . ومن هـذا النزوع الى الاستقلال السليم غير المثلوم ، تنشأ في افريقية مثلاً كل المحاولات الوحدوية على نطاق ضيق أو واسع . لأن الكيانات الصغيرة الناشئة تشعر بأن تحقيق الاستقلال الاقتصادي بله السياسي ، ليس ممكنـــاً على صعيد الوحدات الصغيرة ، ولاغنى عن تجمعها بشكل من الاشكال السياسية من اجل توكيد الشخصية الافريقية واستقلاليتها الـكاملة (١) بل ان التأكيد على التضامن الاسيوي الافريقي وعلى التضامن الاسيوي الافريقي اللاتيني الامريكي أيضاً ، ليس سوى مظهر واقعي محسوس، غير افتراضي ولاسرابي ، من مظاهر الـنزوع الشديد الى رفض تصنيف هذه الشعوب الجديدة تصنيفاً نظرياً أو عملياً في نطاق دولة من الدول ، أو قيادة من القيادات ، أو عقائدية من العقائديات الرائجة .

وأنه لأجدر بان يكون هذا الاتجاه سليما صحيحاً ، علمياً وعمليـــاً ، عندما نضيف الى ماذكرنا من عوامل وحوافز أن وحدة المعسكرات المتطاحنة قـــد تثلمت حدودها وسدودها ، سياسياً على الاقل ، مما قد ينجم عنه تثلم عسكري شبه عادة ، للتبرير والتقرير ، حركات التثلم الايديولوجي . فلا الرأسمالية وحدة كما رأينـــا في عرض سابق لنماذج من التحولات في النظام الرأسمالي الليبرالي . ولاالاشتراكية أوالاشتراكية الماركسية نفسها وحدة ، كما سبق ان أوضحنا ايضاً في مقـارنات بـــين ملامح المجتمعات الاشتراكية . بل قد يغدو من المؤكد في مستقبل ليس ببعيد ، أن تفتح (الطريق الثالثة) التي تسير فيها الشعوب الجديدة ، افاق تفكير وتنظيم لا تلبث أن تلهم وتوحي

(١) (كان المستعمرون يثيرون قبيلة ضد قبيلة ليعطلوا عمل الاستقلال فاصبحوا يثيرون دولة ضد دولة ، ليعطلوا عمل الوحدة) .— جوليوس نيريره ـ تنغانيكا —

وتقود مثلما غدا من المؤكد اليوم أن حركات التحرر الأسيوية الأفريقية، وقد طفقت تمشي في دوارهـا الحركات اللاتينية، قدقلصت الكثير من طموحات سياسية ،وعسكرية وايديولوجية واسعة حتى ان المؤرخين والباحثين ليصنفونها تاريخياً، وعلمياً، في ملفات المطامح والآراء والاعتبارات السائدة في قرن مضى وانقضى: القرن التاسع عشر.

قال الرئيس سوكارنو، عام ١٩٥٩ لجمهور من الشباب الجامعي: ان الفيلسوف الانكليزي (برتراند راسل) قسم الجنس البشري في الوقت الحاضر الى جماعتين تبعاً لفلسفتين مختلفتين: الجماعة الواحدة تؤمن باعلان الاستقلال لتوماس جفرسون الامريكي، والجماعة الثانية تؤمن بالبيان الشيوعي لكارل ماركس.

وبما أن الفيلسوف راسل ليس منحازاً لأحدى الفلسفتين — كما يقول سوكارنو — فهو يحض على عدم انهاء التناقض الفلسفي بين الطرفين في ساحة الحرب. ويجب الا يدفع التنافس العقائدي النـاس الى ان يقتل بعضهم البعض الآخر. وحبـذا لو ان كلاً من الفريقـين حقق الرخاء والسعادة للجنس البشري بطريقته التي يختارها اذن ليصبح المحقق رخاء اكبر فائزاً في نهاية الشوط.

ويضيف سوكارنو بانه لا يوافق على على قول (راسل) بان الانسانية اليوم فريقان، بل ثمة فريق ثالث، ليس من هذا ولا ذاك، وهو يعد اكثر من مليـار بشري، بل مليار اً ونصف المليار يعيشون تحت أعلام قومياتهم في آسيا وافريقية ويعملون من أجل التقدم والرخاء، دون أن يسلكوا أياً من الطريقين اللذين يريد أن يزج الشعوب في أحدهما او الآخر. ولنقل بالاصح ان ثمة ثلاث جماعات. وهـــذه الثلاثة هي واقعة من وقائع القرن العشرين.

وبعد ان يوضح الرئيس سوكارنو، أنه ليس من شغل الدولة في آسيا وافريقية أن تتحرى اخطـــاء كل من ماركس وجفرسون، يوصي بها أن تأخـذ منها ما حسن وساغ وصلح للبناء ودفع التقدم ولدى كل منها، من العلم مايجب ان نعرف منه ونزده على انفسنا. ويخلص الرئيس سوكارنو الى نتيجة فكرية، يريدها للادمه واقعاً هي أن لا وقت للنظرية ولا مجال بل للعمل كل الوقت وكل المجال من أجل

بتأمين الحياة الطيبة للمواطنين . فلنأخذ من ماركس او جفرسون – يقول سوكارنو – ما طاب لنـــا دون ان نكون في جانب جماعة هذا او ذاك . في السياسة ، نسمي هذا السلوك ، استقلالاً وتماملاً ايجابياً ... ولكنني أريد أن ارى ذلك مأخوذاً في حقل العلم ، أيضاً ...

* * *

من هنا وفي ضوء هذا التفرد بالطابع الذاتي ، او الطموح اليـــه على الاقل ، نستطيع أن نتبسط في توضيح الملامح ، ونحن نبحث عن السمات المشتركة ، او اوجـــه النسبة والتقارب في الحوافز والاهداف بين شعوب المجتمعات المتخلفة في آسيا وافريقية بصفة خاصة ، على ما يفرق بينها من أبعاد ومن ظروف ومن ثقافات وتقـاليد .

أ – حوافز واحدة تهز هذه الشعوب في نضالها من اجل توكيد ذاتها واستقلالها وكلها ينبع من حقدها على التخلف ، ومن حقدها على الدول ذات الماضي الاستعماري معها ، ومن ربطها بين الحقـدين بالتداعي والتلازم . لان هـذه الشعوب انما تنكر اطلاقا فضل مهمة التمدين الغربيـــة أو ما أراد (رديارد كبلنغ) ان يسميه ذات يوم بعبء الرجل الابيض . فآثار التمدين التي شيدت معالمها المادية ، انما هي الحاصل اللازم للعمل من اجل الاستعمار والاستثمار وليست من اجل الذين يدورون على انفسهم بحجارة الرحى ، وعيونهم معصوبة . فالطرق استراتيجية عسكرية ، والعمارات الحديثة ادارات ومساكن للمستعمرين المستثمرين وقف الرجل الاسود امامها رقيقاً ضعيفاً مريضاً ، جاهلاً ، عبر مئات السنين .

وأما الاسواق الجميلة في المدن ، فشص ذو طعم لاصطياد أموال الناس ، بعــد استراق المواد الخام من حقولهم وآبارهم وغاباتهم . وطالما ان الانسان قد بقي نموذجاً للتخلف الأزلي ، مقـارناً بمستحدثات التمدين المادية ، فقد سقط جماع حجـة التمدين ، وتلاشت غباراً رسالة (عبء الرجل الابيض) . انما الانسان وحده قياس الحضارات وهدفها .

أما الارساليات التبشيرية وهي أداة

من أدوات الاستعمار كالطرق العسكرية والعمارات الحديثة والاسواق الفاخرة فهي حيث لم تكن اوكاراً لتربية جرثوم الذل ولتكوين الولاء للمستعمر الابيض فقد كانت مباءات لتجمع الحماسة والوعي ومنطلقاً لطوائف جديدة من الجماهير ترفض ان يكون الدين حبلاً في رقاب البشر ، او تبريراً اخلاقياً لادارة الخد الايسر بعد صفع الخد الايمن ، وسواء أكانت القيادة في يد سيكوتوره المسلم أم في يد نكروما المعمد كاثوليكياً منذ طفولته ، فقد كانت القيامة الكبرى ضد الاستعمار ، شرع دين ودنيا ، ودعوة حياة وبقاء .

وأما المثقفون الذين نشأ عودهم في حضن المدرسة الغربية ، فحملوا منها الى بلادهم بذور الدعوة الى الحرية والمساواة فلم يربطهم ولاؤهم الثقافي الى عجلة المستعمرين ،عمياناً ومعصوبين ،يدورون على انفسهم ليملأوا بقرب المياه خزان الاستعمار. بل لكأنهم سرقوا النار من أتونه خلسة ، وطفقوا بشعلها المتكاثرة يحرقون بيادره ثم اتونه .

فاذا كان هذا الانتقاض في شرع المثقفين الغربيين او بعضهم لا اخلاصاً للنعمة وكفراً بها ، وانكاراً للجميل ، فليس ذلك الا لأنه تصحيح لسير الثقافة في اتجاه الحضارة ، وصب لتياراتها في احواض القيم الانسانية . انما مستقبل الحضارة الجديدة ، مستقبل مشاركة لا فرض ، ومبادلة لا احتكار .

هذه هي الحوافز المشتركة التي تهز ضمير الشعوب وتصدع جلاميدها. ولا علينا اذا قلنا أن الحقد في رؤوس ينابيعها ، فالحقد مولد الشرارة الأولى دائماً في حياة الشعوب التي قد يبدو أن جبال براكينها قد انطفأت . وليس الحقد غذاء للشرارة بعد الانطلاق ، الا اذا كان الفعل شراً ، والفاعل شريراً . ولقد استطاعت هذه الشعوب الناشئة على حداثة عهدها بالاستقلال والحرية وقصر تجاربها في ميادين التعامل الدولي ان تبرهن على أنها لم تعبد التعصب ، ولم يستعبدها الحقد ، بل قد مدت يدها وأحياناً قبل الأوان ، الى ايدي أعدائها بالأمس ، داعية ابداً الى المشاركة الحرة الايجابية ، لأن بناء الحضارة الجديد

لايمكن ان يرفع تحت شارة التقليــــد الانحصاري القديم، ولا يمكن، بل كيف يجوز أن يرتفع للمستقبل بناء حضاري لاتساهم فيه ايدي مليار ونصف المليار من ابناء شعوب نشرت ألويتها تحت الشمس.

ب — تحت ضغط هذه الحوافز تحصر هذه الشعوب الناشئة ، حركتها الدائبة في اهداف ومبادىء متماثلة مهما شرقت وغربت :

اولهـــا الحرص الشديد على تدعيم الاستقلال السياسي ، وترسيخه في قاعدته الاقتصادية والثقافية السليمـــة نشداناً للاستمرار والاستقرار ثم توضيحاً للشخصية الوطنية ، أو الكيان القومي .

ثانيها تسريع النمو ، ودفع عجلة التقدم بلا هوادة ، تخلصا من ذل التخلف وعاره

ثالثها — نزوع عقلي ووجداني شديد نحو تحقيق أعز أهداف المجتمع الحر المنظم وهو المساواة الاجتماعية .

وانه لمن الواضح أن تحقيق مثل هذه الأهداف والمبادىء ، بحـاجة أولية الى نظام حكم أقل صفاته القدرة مع المرونة ، والخبرة مع الارادة الطيبة والجرأة مع التمكـن من الاستمرار والاستقرار . وتدخل في عناوين فرعية تحت هذه، مجموعة من الصفات الأخرى اللازمة لحكم ناجح.

وقد سبق ان وعدنا بتحليل الأفكار السائدة في آسيا وافريقية وراء انظمة الحكم الجديدة ، وتجاربها الحافلة ، في محاولة خاصة . وسنقصر البحث هنا ،على ملامح عامة للحياة الاقتصادية والاجتماعية لنجيب على اسئلة شتى تطرح ، ولا تزال مطروحة حول التوازن بين طموح هذه الشعوب وقدرتها ، وبين ارادتها وواقعها.

لابد من الاعتراف ، في البدء ، أن هذه الأهداف الغالية التي تضعها المجتمعات الجديدة الجريئة نصب العين ، عندما تنحدر الى ميادين التنفيذ والتـــداول العملي. تختلف اساليب معالجتها وتدبيرها ، حتى ليبدو احياناً أنها متنابذة بالرغم من أنهـا تحط على هدفين قريبين عاجلين : هما الحكم القوي ، والحكم بالعدل .

وتعود اسباب الاختلاف فيما بينهـا ، عند الممارسة والتنفيذ، الى مراكز الانطلاق من حيث كونها تجريبية ، أو عقائدية أو حائرة بينهما . ولما كانت المنطلقـــات

الايديولوجية غير متوافرة للعدد الاكبر من الدول في آسيا وافريقية ، ماعدا القرر أنها ماركسية بينة كالصين الشعبية ، أو ديموقراطية على الطراز الغربي ، كالهند ، ونيجيريا — (١) فقد أصبح طابع الانطلاق تجريبياً ، لايخفي ولاءه النظري والعملي لحكم القوة والعدل معاً ، تمارسه السلطات ممارسات ذات وجوه متعددة ، ثم تحاول معه صياغة مبررات فكرية تقترب شيئاً فشيئاً ، في بعض المجتمعات ، من حدود الايديولوجيات الواضحة ، وتغدو أحياناً جريئة ، في محاولاتها وضع ايديولوجيات مستقلة ، لاشرقية ولاغربية . وبانتظار وضوح السلوك المذهبي ، فان المشكلة التي تواجهها هذه المجتمعات — كما يقول سوكارنو هي توفير الحياة الطيبة للشعب .. » وعلى هذا فان المرحلة الحاضرة ، ليست مرحلة اختراع نظريات .. »

الملامح الاقتصادية والاجتماعية

ينطلق معظم هذه المجتمعات الناشئة من حضيض التخلف ، بحيث أنها بحاجة ماسة ، الى الخبرة العلمية والمال في جميع مرافقها التنظيمية والادارية ، بله الاقتصادية والثقافية : بينا ترفض في الوقت نفسه أن يأتيها المال والخبرة من أي جهة يمكن أن تمس استقلالها ، أو توهن سيادتها ، وتجرها فوراً أو بالتدرج الى فلك التبعية . ففي معالجة المعضلات الاقتصادية والاجتماعية التي تجابه مجتمعاً عنيداً ، شديد الحساسية ، في تماسه مع المساعدات الخارجية ، يكاد الاجماع ينعقد على استبعاد توظيف رؤوس الأموال الاجنبية مباشرة .

---

(١) يدعو الرئيس سنغور — السنغال — الى ضرورة ايجاد معارضة او السماح بها ، امام الحزب الفرد الحاكم . على ان نظام جمهورية السنغال لايزال نظام الحزب الواحد . وفي الهند ، يكاد يكون نظام الحكم ، نظام الحزب الواحد ، بالنظر لسيطرة حزب الكونفرس ولشخصية نهرو ، بجانب وجود احزاب اخرى ممنوحة الحرية السياسية . على كل حال فالايديولوجية الهندية واضحة المعالم في انه من الممكن تحقيق التحول الاشتراكي ديموقراطيا ، وبوجود الصيغة البرلمانية الغربية المعروفة . على ان بعض المحققين الباحثين يزعم أن الأمر سيتبدل بعد نهرو بحيث ستتبدل واجهته او ايديولوجيته . لأن هذا التوازن العجيب بين السير الحثيث نحو الاشتراكية الهندية ، والحفاظ على الواجهة البرلمانية ، لايمكن ان يقوم به ويستمر سوى شخص قادر ونادر مثل الرئيس نهرو .

لأن هذه الأموال كالعادة انما تنشد الربح السريع والفاحش بالاضافة الى أنها لا تتخلى عن حق اشرافها المباشر على الاستثمار مما هو كفيل بأن يمنحها سلطات اقتصادية واسعة ، تتعارض مع الاقتصاد الوطني الموجه . فاذا ما مثلت في الذهن صور من سوء المعاملة المقترنة باستثمار رؤوس الأموال الأجنبية في تاريخها مع المستعمرات السابقة ، أو مع دول كانت تخضع للنفوذ الاجنبي ، أدركنا علة مقابلتها بالرفض .

وقد خرجت رؤوس الأموال هذه من المجتمعات الجديدة بعد استقلالها أو قد أصابها التأميم أو دخلت في ملكية الدولة . وحيث لم تخرج ، وبقيت تمارس حريتها وسيطرتها ، فانها تعطي أسوأ الامثلة على تعثر الاقتصاد الوطني بجانبها كما في الحبشة في افريقية وفي معظم دول امريكا اللاتينية .

وعلى هذا فقد أصبح من الرائج أن تقبل هذه المجتمعات مساعدات الدول الأجنبية قروضاً ، تتصرف في استثمارها كما تشاء لا يرافقها أي شرط سياسي أو اقتصادي . ولما كانت منة القروض ، قد تجر ايضاً ، الى نوع من الولاء أو الارتباط السياسي ، فان أفضلها ما يأتي من يمين ومن شمال ، من الشرق ومن الغرب على السواء تجنبا للارتباط ، وتحقيقاً لشرط اساسي من شروط الحياد الايجابي ، الذي غدا منذ باندونغ الاول عام ١٩٥٥ ، طرازاً معيناً من السلوكية الاقتصادية الدولية(١) بله السلوكية السياسية .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا ، بأن هذا

---

(١) من المفيد أن نعلم بان الاتحاد السوفيتي دخل اخيراً ميدان التنافس مع الولايات المتحدة الامريكية في منح القروض للدول المتخلفة ، والاتحاد يمنح القروض اليوم بشروط افضل : بفائدة ٢ بالمئة او ٢،٥ ولآجال تمتد حتى ثلاثين عاما . بينما تمنح القروض الامريكية بفائدة ٤ بالمئة ، ولآجال لاتتجاوز الخمسة عشر عاما . وتأتي فرنسا بعدهما من حيث نسبة الاقراض وما يسمى (التوظيف الأجنبي) الى الدخل القومي ، ثم تأتي بريطانيا .

كذلك من المفيد ان نذكر بأن ضغطاً رأسماليا على الجهاز الحكومي السياسي في الولايات المتحدة الامريكية ، قام مؤخرا يطالب بالولاء ، مقابل المساعدات الامريكية ، ومن المؤكد أن سياسة شراء (الولاء) قد مضى زمانها وولى .

النموذج من التعامل الاقتصادي الدولي قد استطاعت دول (العالم الثالث) ان تفرضه بنجاح على السياسة الدولية ممثلة بدولها الكبرى ، بل قد استطاعت هذه الدول الناشئة ان تحصل ، على مساعدات مسلحة حربية من يمين ومن شمـــال ، ـ كالهند مثلاً ـ دون ان تبـــدل من ولائها او اتجاهها . كما لا يفوتنا أن دول المعسكر الغربي قبل عام ١٩٥٥ كانت تفرض الولاء لها ولانظمتها السياسية ومعسكراتها الستراتيجية، ثمناً لمساعداتها المالية المجردة . ولا بد أن نذكر هذا النوع من (التعامل الدولي) الذي فرضته مجتمعات العالم الثالث ، كجزء من التحول الكبير في الحدث العالمي مع منعطف النصف الثاني من القرن العشرين .

ومهما يكن من شأن الدول الكبرى ، ازاء هذا التحول الكبير ، أقبلت به قبولاً ام فرض عليها فرضاً ،فان اجمل ما كرس به من كلمات ، كلمة للمؤرخ الباحث (توينبي) يقول فيها ان المصلحة الوطنية الخاصة غدت خيراً انسانياً شاملاً وهذه احدى ميزات القرن العشرين .

هذا من حيـــث تماس المشكلات الاقتصادية مع العالم الخارجي والمساعدات الاجنبية .

ب ـ أما في معالجة هذه المشكلات بتماسها مع مجتمعها الداخلي ، فان مجموعة من العوامل والاهداف تلعب دورها في تقرير السياسة المناسبة وانجاحها.

الوحدة الوطنية

واول هذه العوامل ان الدولة التي تريد ان تنشيء اقتصاداً وطنياً حراً،سريع النمو ، عادل التوزيع ، بالمساعـــدات الخارجية أو بدونها ، يجب ان يتوافر لها في المقام الاول حد ادنى من ولاء الشعب لقيادته . ويبدو هذا الولاء اول ما يبدو في قبوله التضحيات ، وقبوله الحرمان من جهة ، ووضع مدخراته ،واموالهالوطنية تحت تصرف الخطة الاقتصادية الشاملة من جهة ثانية . وكثيراً ماتم التجاوب بين الدولة وجمهورها في جو وطني حماسي خال من القهر والقسر عقـــب الظفر بالاستقلال ، والنهوض السريع بممارسة السيادة . وسهل التجاوب بينهما أن لا حقد يحدوهما سوى حقدهما على الاجنـــبي

واستعماره ، وان لاقضية اجتماعية اساسية بين القيادة والشعب ، يمكن ان تحول دون تحقيق وحدة وطنية عاملة حاشدة سريعة الحركة في ظروف قاسية .

ان معظم هذه المجتمعات في آسيا وافريقية ، استطاع ان يحقق وحدة وطنية دون عناء ، الا عناء مقارعة الاجنبي الذي قد يجلو ويترك وراءه من نفوذ ظاهر او مستتر يمارسه لتشتيت الوحدة الوطنية من اجل أهدافه قريبة او بعيدة . وليست مأساة الكونغو بعيدة عن متناول الاستشهاد التاريخي .

وقد ساعد على تحقيق الوحدة الوطنية في كثير من الدول الناشئة ، أن ثمة اجماعا وطنياً منعقداً على مكافحة آفتين داهيتين في مجتمع الشعوب المتخلفة هما : الاقطاع وبالاحرى نفوذ الاقطاع السياسي والاخلاقي ، لا مجرد ماديته . والرأسمالية المحلية الضالعة مع الاستثمارات الاجنبية المألوفة اشكالها في المستعمرات السابقة والمجتمعات الخاضعة لمناطق النفوذ . ولما كانت هاتان الآفتان قادرتين على قلة جمهورهما العددي، تأليف اوتزوير اكثرية سياسية تحجب الاكثرية الفعلية وتبطل عملها فقد كان من اسباب تأليف الوحدة الوطنية ونجاحها ان لاخلاف بين طبقات المجتمع الواحدة وفئاته حول ضرورة ضرب جماعات الفئتين واجتثاثها من حياة المجتمع ، لاسيما وأن بعض المجتمعات الموصوفة على هذا الشكل كان الاقطاع فيها ورأس المال الاجنبي ، حليفين للأجنبي الدخيل ضد نضال الشعب وقيادته الوطنية .

وفيما عدا ذلك ، فقد كان السلام الاجتماعي المدني ، يسود فئات المجتمع تحت عاملين اساسيين : اولهما انشغال هذه الفئات مجتمعة بالنضال الوطني ضد الاستعمار وثانيهما ان ليس بين هذه الفئات فروق اجتماعية مادية ، كافية لأن تثير حقداً طبقياً اوكراهية اجتماعية . يضاف الى العاملين ، عامل ثالث ، هو حرص القيادات عقب الاستقلال ، على عدم التفريط بالمشاركة الوطنية الشاملة ، مع اعتبار النضال الايجابي ، استمراراً للنضال السلبي ، ومع القناعة العقائدية والسياسية بان الفروق الطبقية ، على ما كانت عليه في المجتمعات الصناعية الغربية الكبرى في

القرن التاسع عشر ، منعدمة اسباب الوجود في المجتمعات المتخلفة الناشئة وليس من مبرر أن تعالج قضايا المجتمع بأدوية ليست لدائه .

من اجل هذا فقد احتضن الرئيس نهرو ، في ظل اشتراكيته البرلمانية عقب استقلال الهند ، جميع الفئات الوطنية ، التي كما يقول قد غذت بأموالها نضال حزب الكونغرس وحركة التحرير الهندية . وانه لمن المعقول ان يفعل ذلك ونظامه الاشتراكي ما يبرح نظاما برلمانيا قائماً على اسلوب الاقتراع العام ، مهما يكن حريصاً على التسريع في حركة التحويل الاشتراكي . لكن ماهو أبعد من ذلك تدليلا على حرص القيادات الوطنية في هذه المجتمعات الجديدة ، على الوحدة الوطنية ، هو موقف الرئيس ماو تسه تونغ من البورجوازية الصينية التي اشتركت بأموالها وبرجالها في الزحف المنتصر على بكين ، فافسح لها في نظامه الاشتراكي الماركسي ، مايشير حقاً الى حنكة القائد وحكمة البناء . ففي كتاب الرئيس ماو (في الديموقراطية الجديدة) توضيح او بالاصح ، اجتهاد في أن البورجوازية الصينية ، ليست كالبورجوازية الروسية عام ١٩١٧ شريكة حكم قيصري استبدادي ظالم ، بل هي شريكة في كفاح الشعب من اجل الحرية أي حليفة الجبهة الثورية للاشتراكية العالمية . وان المستعمرات وأشباه المستعمرات التي تتحرر من الامبريالية بمشاركة شعبية واسعة ، انما يليق بحكمها ، انتقالا ، دكتاتورية مشتركة Joint Dictatorship تجمع في الحكم كل الطبقات المعادية للاستعمار لا دكتاتورية البروليتياريا على الطراز السوفييتي في روسيا حيث توافرت لها وحدها الشروط والظروف المناسبة .

ولما كان تحقيق الوحدة الوطنية من اعز اهداف المجتمعات وامنعها عليها في الوقت نفسه ، كانت بالواقع قضيتها الاولى ومعضلتها الاساسية . اذ هي ليست سبيلا الى غاية قريبة في تدعيم السلطان السياسي وتأكيد الاستقرار فحسب ، بل هي الدعامة الكلية لوضوح الشخصية القومية المتميزة التي سيعزز وضوحها من بعد ، ولاء

المواطنين لكيانهم ولاء فكرياً واجتماعياً واعياً ، بالاضافة الى ولائهم الانتسابي والوجداني .

وان مايزيد قضية الوحدة الوطنية في مراحلها الاولى تعقيدا ، كونها لاتستند الآن على مؤسسات الكيان القديم ومصطلحاته وعلاقاته الاقتصادية الاجتماعية . اذ في هذه المجتمعات ، ثورة تختلف شمولا وعمقا بين مجتمع وآخر ، ضد معظم المؤسسات القديمة التي كانت تمثل الاستقرار ووحدة الكيان. والثورة تعني في مصطلحات العلم السياسي توجيه الجزء الادنى المتحرك من المجتمع ضد جزئه الاعلى الثابت، وفي هذه الحركة اطلاق للفعاليات والطاقات التقدمية التي تهدد المحافظة والثبات او الجمود أحيانا بحيث يبدو أنه لاغنى عن تضحية الاستقرار من اجل التقدم، بينا يحتاج الكيان الناشيء الى كليهما معاً دون تضحية احدهما في سبيل الآخر . وأنها لمعضلة حقاً أن يكون عاملا البناء الجديد ، عنصرين متناقضين بطبيعتها تناقضاً يطول أو يقصر ، حتى يجد المجتمع صيغة جديدة لمؤسساته العليا الثابتة ، أو ينسفها نسفاً ، اذا وجد مايحله محلها .

لانستطيع في عرض هذه الملامح عرضاً عاما ان نعالج دقائق هذا التناقض في المجتمعات الناشئة بتفاصيلها ، على الأخص أن بعضها لايزال أمام معضلاته في مثل الحالة السديمية الغامضة التي تحجب عنا الرؤية الملائمة . ولكن يبدو أن مجتمعاً نامياً – على تخلف – كالمجتمع الهندي، وهو مثال له اشباه كثيرة ، من حيث عراقة مؤسساته ، وطموح تقدمه معاً – يبدو أن هذا المجتمع قد عزم على معالجة جانب من المعضلة الكبرى بأن يتخطاها ، بل بأن يتجاهلها . في الهند الاشتراكية اليوم ، تدفق اشتراكي عنيف ، يصفه الغربيون ، كالانكليز مثلا بأنه لايقل عنفاً عن التدفق الاشتراكي في الصين الشعبية ، ولو كانت له صيغه الخاصة به . وفي الهند كذلك طموح جريء الى التصنيع السريع وتبديل العلاقات الاقتصادية الاجتماعية ، تبديلا واسعاً مها يكن اتهام البعض للاشتراكية الهندية

انها انما تنهض بتصنيعها على حساب الزراعة والاستهلاك ، والتعليم ايضاً ، خلافاً لما يجب أن يجري في المجتمع الشديد التخلف. ولكن مع كل ماتوصف به سياسة الهند الاقتصادية من جرأة واقدام ، فانها ونهرو وقيادته ، تقف مكتوفة أمام (البقرة المقدسة) التي يجب أن تصان ولا تذبح. وأمام احتقار الهندوسي للمنبوذ احتقاراً دينياً شنيعاً . بل قد ورد في الدستور نص بتوكيد حماية البقرة ورعايتها .

ومن المعلوم أن الهند ليست مثالا فريداً في سياسات انصاف الحلول والمصالحات الاجتماعية ، بين المجتمعات الآسيوية الافريقية ، التي تشق طريقها نحو التقدم بطموح واسع وارادة صادقة يبقى أن اقامة نوع من التوازن بين قوى الاستقرار التقليدية ، وقوى التقدم الجديدة ، هي شاغل المصلحين والثوريين على السواء في مرحلة من مراحل البناء السياسي والاجتماعي .

الخطة الاقتصادية الاجتماعية

من العوامل الأساسية التي تساعد الكيان الناشيء على تحقيق اهدافه الاقتصادية الاجتماعية من تسريع النمو وقهر التخلف الى تحقيق المساواة الاجتماعية وتوطيد الاستقرار على قواعد من علاقات اجتماعية جديدة تنسجم مع مبادىء المساواة ــ من هذه العوامل قدرة الكيان الجديد على انشاء خطة اقتصادية اجتماعية ناجحة ، لا يضع فيها امواله وخبرته فحسب ، بل كل ذكائه وحكمته وبعد نظره أيضاً . فالخطة في حياة المجتمع المتخلف الطامح الى رصد المستقبل لا الى الرجم بالغيب هي شهادة كفاءته ، واستحقاقه لطموحه والطموح قد يكون مغامرة ، كما يقول لنا التاريخ ، تفرزه غدد مريضة ، وقد يكون قدرة على احصاء النجوم وعد ذرات الرمال. بل إن الخطة في حياة مجتمعات ناشئة ، تحل محل نظام الحكم ، وتترجم مبادئه العامة ، الظاهرة والمستترة الى وقائع وطرق ذهاب وأياب وحركة .

وقد يحدث أن المجتمع الجديد لم يتمكن بعد من تأليف وحدته الوطنية ، لأسباب شتى قد يكون أهمها وامنعها عليه أنه بحاجة الى زمن

فان الخطة الاقتصادية الاجتماعية ، بما يمكن ان يتوافر لها من خبرة وارادة ، وبما تحشده حولها وتنظمه من قوى اجتماعية وطاقات مادية ، قد تأتي دفعاً حاسماً نحو تأليف هذه الوحدة وتسريع أجلها . كما قد تأتي في رجمها بالغيب واعتمادها عليه ، تفتيتاً للوحدة الوطنية وقضاء على الآمال المعقودة عليها .

سنعالج في الجولة القادمة موضوع الخطة الاقتصادية كبناء اجتماعي ، واهدافها المختلفة في تنظيم قوى الشعب وتجميعها وتوظيف طاقاته المادية والمعنوية .